LXXIV
PREMIO
STREGA
2020

الرواية الحاصلة على جائزة ستريجا لأفضل رواية إيطالية عام 2020

ساندرو ڤيرونيزي

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

الطنَّان

ترجمة :معاوية عبد المجيد

اثر

الطنّان

الطنّان/ رواية

تأليف: ساندرو فيرونيزي

ترجمة: معاوية عبد المجيد

الطبعة الأولى: 1444/ 2022

ردمك: 4-2-91904-603-978

رقم الايداع: 1436/ 1444

© 2019 La nave di Teseo Editore, Milano

أثر

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966549966668

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

مكتبة 10 1 2024

t.me/soramnqraa

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

الطنَّان

رواية

ساندرو ڤيرونيزي

مكتبة | 1629

ترجمة

معاوية عبد المجيد

تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن
مبادرة ترجم

أثر

إلى جوفانّي

أخًا وأختًا

لا أستطيع الاستمرار.

سأستمرّ.

صموئيل بيكيت

لنا أن نقول (1999)

مكتبة سُر مَن قرأ

لنا أن نقول إنّ حيَّ تريسته في روما هو مركزٌ لهذه الحكاية ذات المراكز العديدة الأخرى. فلطالما تراوح هذا الحيُّ بين السموّ والانحطاط، بين الرقيّ والرداءة، بين التميُّز والاعتياديّة. وهذا قد يفي بالغرض، حتّى اللحظة: من غير المجدي الإمعان في توصيفه، فقد ينجم عن ذلك توصيفٌ مملٌّ، لاسيّما أنّه في مطلع الحكاية، بل ربّما يأتي بنتائج عكسيّة. وفي المحصّلة، فإنّ أفضل توصيفٍ للمكان، أيًّا كان، هو سرد ما يحدث فيه، وهنا سيحدث شيءٌ في غاية الأهميّة.

فلنضع الأمور على الشكل التالي: أحد الأشياء التي تحدث في هذه الحكاية ذات الحكايات العديدة الأخرى، يحدث في حيّ تريسته، في روما، في صباحٍ من أواسط أكتوبر عام 1999، وبالتحديد عند تقاطع شارع كيانا بشارع رينو، في الطابق الأوّل من إحدى تلك البنايات التي، بالضبط، لن نسترسل في توصيفها هنا، حدثت فيها آلاف الأشياء الأخرى في الماضي. سوى أنّ الشيءَ الذي سيحدث بعد قليل حاسمٌ، بل لنا أن نقول من المحتمل أنّه فاتكٌ في حياة بطل هذه الحكاية. الدكتور ماركو كارّيرا، أو كما تقول اللافتة المثبَّتة على باب عيادته: الأخصّائيّ في طبّ العيون والبصريّات - ذلك الباب الذي سيفصله لمدّةٍ قصيرة عن أشدّ اللحظات حرجًا في حياته ذات اللحظات الحرجة العديدة الأخرى. وبالفعل، في داخل العيادة، الكائنة في الطابق الأوّل من إحدى تلك البنايات إلخ، يدوّن الطبيب وصفةً لسيّدةٍ

عجوز مصابة بالتهاب الجفن: قطرة مضاد حيويّ، بعد علاجٍ مبتكرٍ، لا بل لنا أن نقول إنّه ثوريّ، بالاعتماد على الأسيتيلسيستيئين المتقطِّر في العين الذي كان قد حلَّ عند مرضى آخرين المعضلةَ الأخطرَ في هذا المرض، ألا وهي أن يصبح مزمنًا. أمّا في الخارج، يتربّص به القدرُ ليقهره عن طريق رجلٍ ضامر البنية وقصير القامة، اسمه دانييلي كارّادوري، أصلع وملتحٍ، لكنّه قد وُهِبَ نظرةً، لنا أن نقول إنّها مغناطيسيّة، ستتركّز بعد قليل على عيني طبيب العيون لتقطِّر فيهما الريبةَ أوّلًا، ومِن ثَمَّ الحيرة فالألم، ولن ينفعه علمه (طبيب العيون) في الشفاء من كلّ ذاك. إنّه قرارٌ اتّخذه الرجلُ القصير، فاقتاده حتّى صالة الانتظار حيث هو جالسٌ الآن ينظر إلى حذائه ولا يغتنم العرض السخيّ الذي تقدِّمه المجلّات الجديدة الطازجة - لا الفاسدة والبالية منذ أشهر - المبعثرة على الطاولات الصغيرة. من غير المجدي أن نأمل أن يتروّى في الأمر.

ها نحن أولاء. باب العيادة ينفتح. العجوز المصابة بالتهاب الجفن تتخطّى العتبة، وتلتفت لمصافحة الطبيب وتتّجه نحو مكتب السكرتيرة لتدفع الأجرة (120.000 ليرة)، في حين يطلّ كارّيرا برأسه لإدخال المريض التالي. ينهض الرجل القصير، يتقدّم، يصافحه كارّيرا ويدعوه للدخول. مدوِّرُ الأقراص العتيق من طراز ثورينز الذي تجاوزه الزمن - لكنّ زمنه يعني منذ ربع قرن، فهو واحدٌ من بين الأفضل - محشورٌ على الرفّ مع المضخِّم الموثوق مارانتز والمكبِّرين الخشبيّين آر6، يدوِّر قرصَ غراهام ناش بصوتٍ منخفضٍ جدًّا، والمعنون «Songs for Beginners» (1971)، على أنّ غلافه الملغز، المسند على الرفّ إيّاه، حيث يظهر غراهام ناش إيّاه وبيده آلة تصوير في سياقٍ يصعب فكّ طلاسمه، يبدو أكثر الأشياء لفتًا للانتباه في الغرفة كلّها. ينغلق الباب مجدّدًا. ها نحن أولاء. سقطت الغشاوة التي كانت

تفصل الدكتور كارّيرا عن أقسى صدمةٍ عاطفيّة في حياته الزاخرة بصدمات عاطفيّة قاسية أخرى.

فلنصلِّ من أجله، ومن أجل كلِّ السفن في البحر.

بطاقة بريديّة محفوظة (1998)

لويزا لاتيس

بريد محفوظ

67 شارع الأرشيف

75003 باريس

فرنسا

روما، 17 أبريل 1998

إنّني أعمل وأفكّر بكِ

م.

نعم أو لا (1999)

- صباح الخير. أدعى دانييلي كارّادوري.
- ماركو كارّيرا، صباح الخير.
- هل يذكِّرك اسمي بشيء؟
- هل ينبغي؟
- نعم، ينبغي.
- هلّا أعدتَ، من فضلك؟
- دانييلي كارّادوري.
- أهذا اسم المحلِّل النفسيّ لزوجتي؟
- تمامًا.
- أوه. اعذرني، لم أظنّ أنّي التقيتُك يومًا. تفضّل. ما الذي يمكنني فعله من أجل حضرتك؟
- أن تصغي إليّ، يا دكتور كارّيرا. وأن تمتنع إن أمكن، بعد أن أخبرك بما عندي، عن الإبلاغ عنّي لدى المجلس الأعلى للأطبّاء، أو - وهو الأسوأ - لدى الجمعيّة الإيطاليّة للتحليل النفسيّ، الأمر الذي بوسعك فعله بسهولة، بصفتك زميلًا.
- أبلّغ عنك؟ ولماذا؟

- لأنّي سأُقدِم الآن على ارتكاب فعلةٍ ممنوعة، وفي مهنتي يعاقب عليها القانونُ بحزمٍ شديد. لم أكن أحلم بارتكابها إطلاقًا، ولا تخيّلتُني يومًا أوشك على التفكير بها حتّى، لكنّي محقٌّ في اعتقادي بأنّك تواجه خطرًا عظيمًا، وأنّني الشخص الوحيد في العالم على درايةٍ به. لذا قرّرتُ أن أحيطك علمًا، على الرغم من أنّي بذلك أهدم واحدةً من القواعد الأساسيّة في مهنتي.

- اللعنة. قل.

- ولكنْ قبل ذلك أودّ أن أطلب منك معروفًا.

- هل تزعجك الموسيقى؟

- أيُّ موسيقى؟

- لا، لا شيء. ما الذي تودّ طلبه منّي؟

- أودّ أن أطرح عليك بعض الأسئلة، لمجرّد الحصول على تأكيدٍ حيال الأشياء التي قيلت لي عنك وعن عائلتك، ولاستبعاد ما وردني من صورةٍ مشوّهة. الأمر الذي أراه غير واردٍ ربّما، ولكنْ من غير الممكن استبعاده كلّيًّا. تفهمني؟

- نعم.

- أتيتُ بدفتر الملاحظات هذا. أجبني نعم أو لا، فقط، من فضلك.

- موافق.

- هل أبدأ؟

- تفضّل.

- حضرتك، الطبيب ماركو كارّيرا، البالغ من العمر أربعين عامًا، نشأتَ في فلورنسا، متخرّج من كلّيّة الطبّ والجراحة في جامعة لاسابيينسا بروما ومتخصّص بطبّ العيون؟

- نعم.

- ابن ليتيتزيا كالابرو وبروبو كارّيرا، معماريّان كلاهما، ومتقاعدان كلاهما، ومقيمان في فلورنسا؟

- نعم. لكنّ والدي مهندس.

- آه، حسنًا. حضرتك شقيق جاكومو، أصغر منك بقليل، ومقيم في أميركا؛ وشقيق إرينه - المعذرة - المتوفّاة غرقًا في أوائل عقد الثمانينات؟

- نعم.

- متزوّج من مارينا موليتور، ذات الجنسيّة السلوفينيّة، مضيفة أرضيّة في شركة لوفتهانزا؟

- نعم.

- والد آديلي، عشرة أعوام، تلميذة في الخامس الابتدائيّ في مدرسة عموميّة بجانب الكولوسيوم؟

- مدرسة فيتّورينو دا فيلتري، نعم.

- وحين كانت بين الثالثة والسادسة عامًا من عمرها، كانت على يقينٍ من وجود خيطٍ موصولٍ بظهرها، الأمر الذي دفعكما، أنتما والديها، للتوجّه إلى أخصّائيٍّ في علم نفس الطفل؟

- الساحر مانفروتو...

- ماذا؟

- لا شيء، هكذا يسمّيه الأطفال. لكنّ مشكلة الخيط لم يحلّها هو، مع أنّ مارينا ما انفكّت تصدّق ذلك.

- مفهوم. صحيحٌ إذًا أنّكما توجّهتما إلى أخصّائيّ في علم نفس الطفل.

- نعم، لكنّي لا أرى أيّ صلة لهذا بـ....

- حضرتك تدرك لماذا أطرح عليك هذه الأسئلة، صحيح؟ ليس لديّ سوى مصدرٍ واحد، وها أنا أتحقّق من مصداقيّته. إنّه هوسٌ لا أستطيع تجاوزه، نظرًا إلى ما جئتُ أخبرك إيّاه.

- موافق. ولكن ما الذي جئتَ تخبرني إيّاه؟

- سأطرح بضع أسئلة أخرى، إن كان ذلك لا يؤسفك. ستكون أسئلةً أكثر حميميّةً، وأرجوك أن تجيب عليها بأعلى درجات الصدق. هل ترى أنّك قادر؟

- نعم.

- حضرتك تلعب القمار، صحيح؟

- حسنًا، أقلعتُ منذ زمن.

- ولكنْ في الماضي يمكننا أن نؤكّد أنّك كنتَ لاعب قمار؟

- نعم. في الماضي نعم.

- وصحيحٌ أنّك حتّى الرابعة عشر عامًا من عمرك كنتَ أقصر قامةً من أقرانك، لدرجة أنّ والدتك أطلقت عليك لقب «الطنَّان»؟

- نعم.

- وأنّ والدك صحبك إلى ميلانو، وأنت في الرابعة عشر، لإخضاعك لعلاج تجريبيّ يعتمد على الهرمونات، كانت نتيجته أنّك اكتسبتَ طولًا طبيعيًّا، فَنَمَتْ قامتك بما يقارب الستّة عشر سنتمترًا في أقلّ من عام؟

- خلال ثمانية أشهر، نعم.

- وصحيحٌ أنّ والدتك كانت تعارض ذلك، بمعنى أنّها رغبت في أن تظلّ قصيرًا، وأنّ اصطحابك إلى ميلانو ما هو إلّا الخطوة الوحيدة التي أقدم عليها والدك في ممارسته لمهامه الأبويّة، طالما أنّه في عائلته - واعذرني إن استخدمتُ اللهجة التي وردني بها هذا المعطى - لا يساوي قضيبًا؟

- آه! غير صحيح، ولكن بالنظر إلى مَن أخبرك بهذه الأشياء، نعم، مارينا لطالما كانت مقتنعةً بذلك.

- غير صحيح أنّ والدتك كانت تعارض العلاج التجريبيّ أم أنّ والدك لا يساوي قضيبًا؟

- غير صحيح أنّ والدي لا يساوي قضيبًا. سوى أنّ الانطباع الذي تملّكَ الكثيرين كان ذاك على الدوام، لاسيّما مارينا. شخصيّتهما مختلفتان، هي ووالدي، لدرجة أنّه في معظم الأحيان...

- لا داعي لشرح أيّ شيء يا دكتور كارّيرا. قل لي نعم أو لا فقط، موافق؟

- موافق.

- صحيحٌ أنّك أغرمتَ دائمًا بامرأةٍ ما زلتَ تقيم علاقةً معها منذ سنوات طويلة، تدعى لويزا لاتيس، المقيمة حاليًّا في...

- ماذا؟ مَن قال هذا؟

- احزِرْ.

مكتبة سُر مَن قرأ

- أيُّ هراء! غير معقول، لا يمكن لمارينا أن تخبرك بأنّي...

- أجب نعم أو لا، من فضلك. وحاولْ أن تكون صادقًا، حتّى أتمكّن من تقييم مصداقيّة مصدري. هل ما زلتَ مغرمًا بلويزا لاتيسِ هذه أو هل ولَّدتَ هذا الانطباع لدى زوجتك، نعم أم لا؟

- كلا طبعًا!

- ما يعني أنّك لا تراودها خلسةً، أثناء المؤتمرات التي يصدف لك أن تشارك بها في فرنسا، أو بلجيكا، أو هولندا، أو في أماكن ليست بعيدةً جدًّا عن باريس بكلّ الأحوال، حيث تقيم لويزا؟ ولا خلال الصيف، في بولغيري، حيث تلتقيان لقضاء شهر أغسطس في منزلين عائليّين متجاورين؟

- هذا مضحك! إنّنا نلتقي في كلّ صيف على الشاطئ مع أبنائنا، وربّما نتحادث طويلًا، لكنّنا لم نحلم يومًا بـ «إقامة علاقة»، مثلما قلتَ حضرتك، ولا حتّى أن نلتقي خلسة عندما أكون ذاهبًا إلى مؤتمر.

- اعلمْ أنّني لم آتِ إلى هنا لكي أحاسبك. ما جئت إلّا لكي أحاول التحقّق من صحّة ما وردني من كلام. إذًا، غير صحيح أنّك وهذه المرأة تلتقيان خلسة؟

- غير صحيح، نعم.

- وحضرتك تستبعد أنّ زوجتك قد تكون على يقين من هذا حتّى لو كان صحيحًا؟

- أستبعد ذلك بالتأكيد! لقد أصبحتا صديقتين أيضًا. يجولان على ظهر الحصان معًا، بمفردهما تمامًا: تتركان الأولاد عندنا نحن الزوجين وتمضيان كلّ الصباح للتنزّه في الريف.

- هذا لا يبرهن أيّ شيء. من الممكن أن يصادق المرء شخصًا ويلتقيه كلّ يوم تمامًا لأنّه يغار منه حتّى الهلاك.

- نعم لكنّ هذه ليست حالتي، صدّقني. مارينا لا تغار من أحد إلى درجة الهلاك، وأنا مخلِصٌ لها وهي تعرف ذلك حقّ المعرفة. والآن، هلّا قلت لي من فضلك لماذا أنا في خطر؟

- يعني أنّكما لا تتراسلان منذ سنوات، حضرتك ولويزا لاتيس هذه؟

- لا!

- رسائل حبّ؟

- لا طبعًا!

- هل أنت صادقٌ يا دكتور كارّيرا؟

- نعم طبعًا!

- سأطرح السؤال مرّة ثانية: هل أنت صادق؟

- أنا صادقٌ بالتأكيد! ولكن هلّا قلت لي...

- يتوجّب عليّ الاعتذار إذًا، فإنّني وخلافًا لقناعاتي التي كانت راسخة، أؤكّد لك أنّ زوجتك لم تكن صادقة معي، وإلّا لما أتيتُ إلى هنا، وهذا يعني أنّك لم تعد في خطر مثلما كنتُ أخشى، وبناءً عليه لن أزعجك أكثر. أرجو ألّا تقيم لزيارتي هذه أيَّ اعتبار، وأوصيك ألّا تبوح بشأنها لأحد.

- ماذا؟ لماذا تنهض؟ إلى أين تذهب؟

- أكرّر اعتذاري، فلقد اقترفتُ خطأً فادحًا في التقييم. إلى اللقاء، أعرف الطريـق...

- كلا، كلا. لا يمكنك أن تأتي إلى هنا، لتخبرني بأنّي في خطرٍ عظيم بسبب شيءٍ مّا أخبرتك به زوجتي، وتجري معي استجوابًا مفصَّلًا، ثمّ تمضي في حال سبيلك دون أن تقول لي شيئًا! عليك أن تقوله لي الآن، وإلّا أبلغتُ ضدّك عند مجلس الأطّباء مباشرةً!

- اهدأ، أرجوك. الحقيقة هي أنّني ما كان ينبغي لي المجيء إلى هنا وكفى. لقد عوّلتُ دائمًا على تصديق ما ترويه عليَّ زوجتك عن نفسها وعنك، وكوّنتُ فكرةً دقيقة عن الاضطراب الذي تعانيه تمامًا لأنّي صدّقتُها دومًا. وبناء على تلك الفكرة، وإزاء وضعٍ بدا لي في غاية الخطورة، ظننتُ أنّه من واجبي فعل شيء خارج حدود الأخلاق المهنيّة المفروضة عليّ، لكنّ حضرتك الآن تُبيِّنُ لي أنّ زوجتك لم تكن صادقةً معي حيال أمرٍ جوهريّ، وإذا لم تكن صادقة حياله فمن المحتمل أنّها لم تكن كذلك حيال أمور أخرى، بما فيها تلك التي جعلتني أعتقد أنّك في خطر. أكرّر على مسمعك، كان ذلك خطأي، الذي لا يسعني إلّا الاعتذار عليه مرّةً ثالثة، ولكنْ منذ أن انقطعت زوجتك عن المجيء إليّ وجدتُني أسائل نفسي حول...

- ماذا، ماذا؟ زوجتي انقطعت عن المجيء إليك؟

- نعم.

- ومنذ متى؟

- منذ أكثر من شهر.

- حضرتك تمزح.

- ألم تكن على دراية؟

- بالتأكيد لم أكن على دراية.

- لم تعد تأتي منذ جلسة الـ... السادس عشر من شهر أكتوبر.

- لكنّها تقول لي إنّها مستمرّة في ذلك. الثلاثاء والخميس، في الثالثة والربع، كالعادة، أنا أتّجه لاستعادة آديلي من المدرسة لأنّ مارينا ينبغي أنِ تأتي إليك. حتّى في ظهيرة هذا اليوم عليَّ أن أفعل الأمر نفسه.

- أن تكذب عليك فهذا لا يفاجئني يا دكتور كارّيرا. المشكلة أنّها كذبت عليّ أيضًا.

- حسنًا، كذبتْ عليك حيال أمرٍ واحد. ثمّ المعذرة يا سيّدي، أليست الأكاذيب بالنسبة إليكم أكثر كشفًا من الحقيقة المحجوبة؟

- بالنسبة إلى مَن؟

- أنتم المحلّلين. ألا تفيدون من كلّ شيء، حقائق وأكاذيب، إلخ إلخ؟

- ومَن قال هذا؟

- لا أدري، أنتم... المحلّلون النفسيّون. التحليل النفسيّ. أليس كذلك؟ فمنذ أن كنتُ صغيرًا وأنا محاطٌ بأناسٍ تتّجه إلى التحليل، ولطالما سمعتُهم يقولون إنّ السياق والتحويل والأحلام والأكاذيب، باختصار، إنّ لكلّ شيء أهمّيّته تمامًا لأنّ الحقيقة التي يخفيها المريض تبقى عالقة. أم لا؟ ما المشكلة الآن إن كانت مارينا قد اختلقت شيئًا مّا؟

- لا، إذا كان ما يتعلّق بلويزا لاتيس من صنع مخيّلتها يتغيّر كلّ شيء، يصبح الخطرُ داهمًا بزوجتك حينذاك.

- ولكن لماذا؟ أيُّ خطر؟

- اسمعني، يؤسفني جدًّا: لم يعد مجديًا أن أتحدّث إليك. ولا تقل لزوجتك أنّي مررتُ إلى هنا، أحلِّفك.

- وكيف تحسَب أنّي سأتركك تنصرف بكلّ بساطة، بعد أن قلتَ لي ما قلت؟ إنّني الآن أطالب حضرتك بأن...

- لا جدوى أيّها الطبيب كارّيرا. أبلِغْ ضدّي لدى المجلس إن شئت، فأنا أستحقّ ذلك بالمحصّلة، بسبب الغلطة التي اقترفتُها. لكنّك لن تجبرني على أن أخبرك بها...

- اسمعني، ليست من صنع مخيّلتها.

- ماذا قلت؟

- ما قالته لك مارينا عن لويزا لاتيس ليس من صنع مخيّلتها. صحيح، نحن نلتقي، ونتراسل. سوى أنّها ليست علاقة، أعني هي ليست خيانة زوجيّة: إنّه شيءٌ يخصّنا ولا يسعني تعريفه ولا أفهم كيف استطاعت مارينا التوصّل إليه.

- أما زلتَ مغرمًا بها؟

- حذار فليس هذا ما يهمّ، المهمّ هو أن...

- اعذرني على الإلحاح: أما زلتَ مغرمًا بها؟

- نعم.

- هل تلاقيتما في لوفيانو، في يونيو الماضي؟

- نعم، ولكن....

- هل كتبتَ إليها في إحدى رسائلك منذ بضعة أعوام أنّك تحبّ الطريقة التي تغطس بها في الماء من الضفّة؟

- نعم، ولكن كيف استطاعت أن...

- هل نذرتما نذر العفّة، أيْ ألّا تمارسان الجنس حتّى لو اشتهيتماه؟

- نعم، ولكن بحقّ السماء، كيف توصّلت مارينا إلى معرفة كلّ هذه الأشياء؟ ولماذا لا تخبرني حضرتك بما عليك أن تخبرني به من دون تعقيدات؟ هناك زواجٌ وعائلة، هناك ابنة.

- يؤسفني أن أقولها لك يا دكتور كارّيرا: زواجك بحُكم المنتهي منذ مدّة. وبخصوص الأبناء، سيولد ابنٌ آخر عمّا قريب، لكنّه لن يكون ابنك.

مع الأسف (1981)

لويزا لاتيس

شارع فروزا 14

50131 فلورنسا

بولغيري، 11 سبتمبر 1981

لويزا، لويزتي

لا، لستِ لي، مع الأسف، لويزا وكفى (لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا، اسمكِ يعذّبني ولستُ أدري ماذا أفعل لإيقافه): لقد هربتُ، على حدّ قولكِ. صحيح، لكنّني بعد ما حدث، وبعد الشعور بالذنب الذي اجتاحني، وبسبب تلك الأيّام الطويلة والمروّعة ما عدتُ أحدًا، لا أنا نفسي ولا غيري. كنتُ في غشيةٍ من أمري، أفكّر أنّ ما حدث كان بسببي، لأنّني كنتُ معكِ أثناء حدوثه، لأنّني كنتُ سعيدًا معكِ. وما زلتُ عند فكرتي.

الآنَ يقول الجميع إنّها كانت مشيئة الربّ، أو المصير المحتوم أو كلّ هذه الترّهات، وقد تشاجرتُ حتّى الموت مع جاكومو وألقيتُ باللائمة عليه

وليس لديّ أيّ رغبةٍ في النظر إلى والديَّ وجهًا لوجه. أن أعرف مكانهما لا يفيدني إلّا للبقاء في مكانٍ آخر. وإن كنتُ قد هربتُ، يا لويزتي، لا لستِ لي، مع الأسف، لويزا وكفى (لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا، اسمكِ يعذّبني وليس لدي أيُّ رغبةٍ في إيقافه)، فإنّما هربتُ إلى الوجهة الخاطئة، مثل طيور الحجل التي رأيتُ الحرائقَ تباغتها عندما كنتُ إطفائيًّا، تهمّ بالطيران مذعورةً من النيران وتطير بجنون نحو النيران، تقترب منها عوضًا عن الابتعاد عنها، تقترب كثيرًا، إلى أن تسقط فيها. لم أدرك أنّي هربت، هذا ما حصل: كان هناك كثيرٌ من الأمور العالقة، والرهيبة كلِّها، إضافةً إلى مهزلة «آل مونتيكي وآل كابوليتي» التي جعلت اجتياز السياج مستحيلًا (لكنّي كنتُ تحت وقْع الصدمة يا لويزا، كان ممكنًا وكيف لا، يا لويزا، لا أنكر ذلك، لويزا لويزا لويزا لويزا) فلم أجتزِ السياجَ ولم أودّعكِ حتّى.

والآنَ أنا هنا، وحيد، بكلّ ما تعنيه كلمة وحيد، لقد رحل الجميع، قالوا إنّهم لن يعودوا أبدًا، وأنّهم سيبيعون المنزل، وأنّ أقدامهم لن تطأ أيّ شاطئٍ أبدًا، وأنّهم لن يأخذوا أيّ إجازةٍ أبدًا؛ ولقد رحلتم أنتم كذلك، وأنا أجتاز السياج مرارًا وتكرارًا، الآنَ، ولا أحد يراني، أذهب إلى الشاطئ، أذهب إلى المولينيلّي، أذهب خلف الكثبان، لا يوجد أحد، وينبغي لي أن أدرس لكنّي لا أجرِّب حتّى، وأفكّر فيكِ، أفكّر في إرينه، وفي السعادة وفي اليأس اللذين وقعا على رأسي في اللحظة نفسها وفي المكان نفسه وأنا لا أريد فقدان أيٍّ منهما، أجل، أريد كليهما، لكنّني أخشى أن أفقدهما أيضًا، وأن أفقد هذا الألم، أن أفقد السعادة، وأن أفقدكِ، أنتِ يا لويزا، مثلما فقدتُ شقيقتي، ولعلّي فقدتُكِ أساسًا لأنّكِ تقولين أنّي هربتُ وهذا صحيح مع الأسف لقد هربتُ ولكنْ ليس منكِ فأنا لستُ سوى أنّي هربتُ إلى الوجهة الخاطئة مثل طيور

الحجل تلك يا لويزا الويزا الويزا الويزا لويزا أرجوكِ لقد وُلِدتِ توًّا فلا تموتي أنتِ أيضًا وحتّى لو كنتُ قد هربتُ فانتظريني سامحيني عانقيني قبِّليني لم تنتهِ الرسالة إنّما انتهت الورقة،

ماركو

عين الإعصار (79-1970)

كان دوتّشو كيلّيري فتىً طويل القامة وقبيح المظهر، لكنّه موهوبٌ في المجالات الرياضيّة بالقدْر نفسه، حتّى لو كان لا يرتقي إلى توقّعات أبيه في ذلك. أسودُ الشعر، لثويُّ الابتسامة، هزيلُ البنية لدرجةٍ يبدو فيها بمقطعٍ جانبيٍّ على الدوام، وقد ارتبط به صيتٌ بأنّه يجلب الحظَّ التعيس. لا أحدَ يروي كيف ومتى وُجِّهَ إليه ذلك الافتراء، ما جعله موصومًا به منذ صغره، مع اللقب الذي نتج عنه: «شنيع الذِّكْر». على أنّه عُرِفَ بلقبٍ آخَر إبّان الطفولة: بليزارد، نسبةً إلى ماركة الزلّاجات المستخدمة في بطولات جبال الأبينين التوسكيّة - الإيمليانيّة التي كان فيها يقدِّم نفسه نجمًا واعدًا من فئة الأشبال ومِن ثَمَّ فئة المتدرّبين الطامحين. وفي الواقع، ومثل أيّ شيء، كان للأمر بداية، ترجع بالضبط إلى إحدى تلك المسابقات، على خطٍّ متعرّجٍ وشاهق في محطّةِ التزلُّج زوم زيري عند ممرّ دوي سانتي، المُقامة من أجل التصفيات المناطقيّة. حلّ دوتّشو كيلّيري بالمرتبة الثانية من فئته في الجولة الأولى، خلف بطلٍ مودينيٍّ سمجٍ اسمه تافيلا. كانت أحوال الطقس تحولُ دون المتابعة، نظرًا لهبوب الريح العاتية علاوةً على الضباب الذي أغرق المضمار، حتّى إنّ لجنة التحكيم أخذت بعين الاعتبار فرضيّةَ إلغاء السباق. ثمّ هدأت الريح وانفتح الجدل حول الجولة الثانية على الرغم من تكثُّف الضباب. وفي انتظار الصافرة، أجرى له والده المدرِّب تمارين الإحماء لعضلات ساقيه وذلك بحَثِّهِ على الكرّ بلا خوف، الكرّ، الكرّ، حتّى الموت، لاجتياز المدعو تافيلا. وعندما وقف عند نقطة الانطلاق، مستعدًّا للانغماس في المضمار غير المرئيّ، وبينما

كان والده المدرِّب لا يكفّ عن الترديد في أذنيه بأنّه قادرٌ على فعلها، قادرٌ على الفوز، قادرٌ على هزيمة تافيلا، أصغى دوتّشو كيلّيري إلى نفسه وهو ينطق الجملة التالية: «سيسقط، ويتأذّى أيضًا». وصل إلى العمق بتوقيتٍ قياسيّ، وجاء دور تافيلا بعده مباشرة. لم يشهد أحدٌ الواقعة، فالضباب كان في غاية الكثافة، إلّا أنّه قُبَيْلَ منتصف الوقت، وعند أحد المضائق في آخِر السياج، سُمِعَتْ صرخةٌ مدويّةٌ وآتيةٌ من المنحدر. وعندما هرع الحكّامُ وجدوا تافيلا على الأرض مرميًّا، مغميّ عليه، والعصا نصفُ مغروسةٍ في فخذه - كانوا يستخدمون عُصيًّا خشبيّة في تلك الآونة، وقد تتحطّم الخشبة أحيانًا - وبركةُ دمٍ تدبغ بالأحمر الاندماجَ الناصعَ للثلج بالضباب. بدا كأنّه هوجِمَ من قِبَلِ الهنود. لم يمت الفتى مضرّجًا بدمائه لأنّ العصا، وقد اخترقت العضلة، لامست الشريان الفخذيّ بالكاد؛ لكنّ الحادث اعتُبِرَ الأخطر في تاريخ محطّة التزلُّج تلك، وقُدِّرَ له أن يُذكَرَ على مدى دوراتٍ عديدة متبوعًا بالكلمات التي نطقها دوتّشو كيلّيري قُبَيْلَ الانطلاق.

وهكذا، استهلّ المراهقة مشتهرًا بجلب النحس، فجأةً ودون حقٍّ بالنقض. لم يتعنَّ أحدٌ للتأمّل، وإن بأثرٍ رجعيّ، أنّ *بليزارد* بالإنكليزيّة تعني «عاصفة ثلجيّة» - ما يضعه عمليًّا منذ طفولته ضمن الإطار الكارميّ المحدّد جيّدًا باللقب الذي ينتظره في رشده. ولا غامر أحدٌ للافتراض بأنّ كنيته، النادرة نسبيًّا في إيطاليا والشائعة في بعض مناطق توسكانا حصرًا، قد تنحدر (إيحائيًّا، في حالته) من الكلمة الإنكليزيّة «killer»: كان سيخطئ، فمن الوارد أنّ أصل الكنية ناجمٌ إمّا عن القلب المكانيّ مع الكنية الأكثر انتشارًا *كيلّيمي*، ذات النشأة اللومبارديّة بفرعها النبيل والمتجذّرة في صقليّة بفرعها الشعبيّ؛ وإمّا عن الهجرة الإيطاليّة لبعض أعضاء الفسكونتيّة الفرنسيّة العريقة لآل كيلّير. كان هذا مجرّد تبيينٍ للسطحيّة الفادحة للظاهرة التي

انهالت عليه، وللغياب التامّ للتعمُّق الذي لم يفارقه. كان جالبًا للنحس، هذا يكفي، ما الذي يجب التعمُّق فيه؟

خلال الانتقال من بليزارد إلى شنيع الذكر، تضاءلت غنيمة الأصدقاء التي استولى عليها بفضل نتائجه الرياضيّة، وعندما دخل عامه السادس عشر لم يبق له من صديقٍ في فلورنسا كلّها عدا ماركو كارّيرا. كانا رفيقين على مقاعد الابتدائيّة والمتوسّطة، رفيقين في رابطة فلورنسا للتنس، رفيقين في نادي التزلُّج إلى أن توقّف ماركو عن المشاركة بالسباقات، وعلى الرغم من أنّ كلًّا منهما تردّد إلى مدرسةٍ ثانويّة مختلفة ما توانيا عن التلاقي كلَّ يومٍ لأسبابٍ تتعدّى الرياضة أيضًا، على رأسها الاستماعُ إلى موسيقى الويست كوست الأمريكيّة - إيغلز، كروسبي ستيلز ناش ويونغ، بوكو، غريتفل ديد - التي يُجمِعان عليها بشغفٍ راسخ. بيد أنّ صداقتهما لم تتوطّد على وجه الخصوص، *على وجه الخصوص*، إلّا بالقمار. في الحقيقة كان دوتّشو هو المولع باللعب، حيث يقتصر ماركو على استقاء شغف صديقه، ليستمتع معه بمعنى الحرّيّة الرائع، ويمكننا تسميته بالتحرّر، الذي ولَّدته تلك النزوة في حياتهما. فلم يكن أيٌّ منهما في الواقع سليل أسرةٍ استضافت ذلك الشيطان ولا حتّى عَرَضيًّا، ولا حتّى في أزمنةٍ بعيدة: لا وجود لأيّ عمٍّ أبٍ أفلَسَ كلّيًّا في صالونات البكاراه التي ترتادها الأرستقراطيّة الفاشيّة، لا وجود لأيّ ثروةٍ من القرن التاسع عشر تبدّدت بوقتٍ قصير على يد جدٍّ أكبرَ خلخلتِ الحربُ العظمى دماغَه. إنّما، ببساطة، كان القمار من اكتشافهما. لاسيّما دوتّشو، الذي كان يعتبره فتّاحةَ أقفالٍ لخلع *القفص الذهبيّ* (كان يسمّى هكذا حينذاك) الذي أنشأه والداه حوله؛ كما أنّ هدرَ إرثهما في الأوكار والملاهي فكرةٌ تغويه بقدر ما أغوت والديه فكرةُ تكويم الإرث عن طريق محلّات الألبسة. وبكلّ الأحوال كان عمره خمسة عشر عامًا، ستّة عشر،

سبعة عشر: ما الذي ستهدره أنت في تلك السنّ؟ فرغم مصروفه الأسبوعيّ الفائض (ضِعف ما يحصل عليه ماركو تقريبًا) لم يكن ليخدش ازدهار عائلته من أجل مبالغ كهذه: ففي أسوأ الحالات، والأوقات العصيبة، كان يحدث أن يستدين من «عالم الأسطوانات»، محلّ بيع الأسطوانات في شارع كونتي الذي يمدُّهُ وماركو بالموسيقى المستوردة - دَينٌ يُوفى دائمًا في غضون أسابيع تلقائيًّا دون حتّى أن يدري به أبواه.

والحال أنّه كان يربح في معظم الأحيان. كان ماهرًا. لم يكن هناك مَن ينافسه في مباريات البوكر مع الأصدقاء (تلك المباريات البريئة التي تُجرى ليلةَ السبت حيث قد يربح عشرين ألف ليرة حدًّا أقصى)، ومن أجل هذا، وإضافةً إلى السمعة التي حوّلته في الأثناء إلى لقب شنيع الذكر، أُقْصِيَ من تلك السهرات عاجلًا. على عكس ماركو، لم يُقْصَ، بل ظلَّ ردحًا من الوقت يشارك فيها، ويربح دومًا هو الآخر، إلى أنّ قرّر بنفسه الانصراف عنها للحاق بصديقه على دروبٍ أكثر احترافيّةً. مراهنات الأحصنة، أوّلًا. نظرًا لكونه قاصرًا حينها، لم يكن لدوتّشو كيلّيري الحقّ في دخول الأوكار غير المرخّصة، ولا حتّى الكازينوهات، أمّا في حلبة المولينا فلا يطلبون وثائق ثبوتيّة. كان موهوبًا في هذا أيضًا، لا يرتجل البتّة. وها هو يتسيّب عن المدرسة ليقضي صباحاتٍ بأكملها في مضمار السبق ليشاهد إحماء الخيول، رفقة عُجَّزٍ مزكومين يرشدونه إلى أسرار مملكة الجري. وها هو ماركو إلى جانبه، يثبت حضوره يومًا عن يوم، سواء في ذلك التمرين الصباحيّ الثمين، أم في صالات العدْوِ عند الظهيرة، أم في المولينا من جديد، في الجلسات المسائيّة، للرهان على أحصنةٍ مفحوصة، أو على أحصنةٍ كُتِبَ لها الفوز في السباقات الماضية التي وصلتها أنباؤها. ومجدّدًا، كان الصديقان يربحان أكثر ممّا يخسران كثيرًا.

إلّا أنّ دوتّشو، خلافًا لماركو الذي لم يقطع صلته بأصدقائه الآخرين، لا في الرياضة، ولا في الاهتمام بالفتيات، وقد نجح في إخفاء نشاطاته تلك عن عائلته دومًا - أي أنّه حافظ على الفرص في بلوغ الحياة المتألّقة التي تكهَّنَ بأمرها الجميع - أفاد دوتّشو من القمار لتمزيق أواصره بمصيره البرجوازيّ. أحسَّ بالإهانة في بدايات اكتشافه أنّه بات شنيع الذكر، كثيرًا بقدْر ما تعلَّمَهُ من ذلك الموقف في وقتٍ لاحقٍ ليصبح قويًّا. وعلى الرغم من أنّ رفاقه السابقين تجنَّبوه كأنّه الطاعون، كان يراهم كلَّ يومٍ في المدرسة، وبما أنّ فلورنسا ليست لوس أنجلس كان يلاقيهم بالصدفة أيضًا، في وسط البلد، في السينما، في الحانة. وقد أدرك في تلك المناسبات أنّ لأيّ مقولةٍ يلفظها قوّةً غامضةً تضاهي اللعنة الكنسيّة، وبما أنّ الأشياء التعيسة تقع لأيّ شخص، فإنّ كلًّا من عبارة «أراك بصحّةٍ جيّدة» وعبارة «أراك منهكًا» تبدوان مشؤومتين على السواء لِمَن يتلقّاها وتفتكان به على الفور. قد يبدو محيِّرًا بالفعل أنّ الفتية الآخرين، في أواخر السبعينات من القرن العشرين، كانوا يعتقدون حقًّا بأنّ دوتّشو كيلّيري يجلب النحس. ليس ماركو، بطبيعة الحال، إذ إنّ السؤال الذي لا يكفّ الجميع عن طرحه له هو نفسه دائمًا: «لماذا ما زلتَ تخرج معه؟» وكان الجواب هو نفسه أيضًا: «لأنّه صديقي».

ومع هذا، ومع أنّ ماركو لم يكن ليُقِرَّ يومًا، هناك سببان آخران يدفعانه لمرافقته، بشكلٍ أقلّ كذلك. الأوّل، ذكرناه، القمار: بصحبته كان ماركو يعيش فوراتٍ من الأدرينالين لا مثيل لها، يكسب نقودًا، ويكتشف عالمًا تحتيًّا مبهمًا لا استطاعة لأحدٍ في عائلته حتّى على تصوُّره: لا أمّه الراقية ولا أبيه الدمث، ولا أخويه: الأولى، إرينه، تكبره بأربع سنوات، غارقةٌ كلّيًّا بمشكلاتها العلاقاتيّة؛ والثاني، جاكومو، يصغره قليلًا، وقد ابتلعه التوقُ إلى التنافس. أمّا السبب الثاني فهو نرجسيٌّ بشكلٍ ميؤوسٍ منه: تصميمه على

مرافقة فردٍ أقصاه الجميع كان مغفورًا له: بفضل ذكائه، أو جمال شخصيّته، أو كرمه؛ أيًّا كان السبب، فإنّ لماركو القدرة على معارضة ما يُملى على القطيع دون الخضوع لأيّ عقوبة. وكان يُسَرُّ لرؤية نفسه مجسّدًا في تلك القدرة. لا بل والحقّ يقال، مع التقدُّم بالعمر، لم يكن له من أسباب لمصاحبة دوتّشو كيلّيري إلّا المذكورة آنفًا، في حين كانت الأسباب التي متّنت صداقتهما تتلاشى واحدةً إثر أخرى. فلقد تغيَّرَ دوتّشو بالفعل - وكما غدا ماركو ينتبه إلى كلّ تغيّراته آنذاك تمامًا: تغيَّرَ نحو الأسوأ. فمن الناحية الجسديّة، صار مظهره مخيّبًا: كلّما تحدَّثَ تخثَّرَ لعابٌ أبيض في إحدى زوايا فمه؛ أصبح شعره القاتم دهنيًّا وقشريًّا أكثر من قبل؛ كان نادرًا ما يتحمّم وفي أغلب الأحيان تفوح رائحته الكريهة. ومع مرور الوقت فَقَدَ كلّ اهتماماته بالموسيقى: كانت بريطانيا تنهض - كلاش، كيور، غراهام باركر أند ذا ريومور، والعالم المتوهّج لإلفيس كوستيلو - لكنّه لا يهتمّ البتّة، لم يعد يشتري الأسطوانات ولا يستمع إلى الأشرطة التي يسجّلها له ماركو. أقلع عن قراءة الكتب والجرائد، ما عدا «تروتّو سبورتسمان». انزلق أسلوبه في الكلام إلى تعابير تعيسة يستنكرها قاموس جيله بالكامل: «لذيذٌ ووافر»، «أوكي» أو «أوك» دفعة واحدة، «عادةً وبشكلٍ متكرّر»، «العبرة من الحكاية»، «أتمنّى لك أشياء كثيرة»، «في هذا الصدد»، «موافقٌ بلا أيّ لا». لم يكن يفكّر في الفتيات، وإذا ما احتاج إلى شيءٍ وجده عند عاهرات كاشينه.

كلّا، ما زال ماركو يودّه، غير أنّ رفقة دوتّشو كيلّيري لم تعد صالحة، وليس بسبب شهرته بشنيع الذكر. بل كان يفيد من عدم تعرّضه للعقوبات لكي يستكلب في مقارعة ذلك اللقب، ويفعلها باستبسال إذا ما تعلّق الأمر بفتاةٍ تعجبه: هل جننتم - يقول - لا أفهم كيف تؤمنون بذلك حقًّا. وعندما يفردون عليه قائمة الشؤم والحِداد وهجمات الجرب التي ظهرت في محيط

ظهوره، يؤكّد إدانته ويستلّ البرهان الدامغ مغتاظًا: انظروا إليّ، بحقّ الربّ. إنّني أرافقه. لم تنزل بي أيُّ كارثة. وأنتم ترافقونني، ولم يحدث لكم شيء. فما هذا الهراء الذي تتفوّهون به؟

إلّا أنّه بات من المستحيل إزالة الوصمة التي تأصّلت على صورة دوتّشو كيلّيري، لذا وتفنيدًا لحُجّة ماركو، برزت نظريّة عين الإعصار. تقول التالي: مثلما لا نعاني من العواقب إذا تموضعنا في قلب الدوّامات الإعصاريّة التي تعصف بالسواحل والمدن، فإنّنا لن نواجه أيّ خطرٍ إذا حافظنا على تواصل وثيقٍ بشنيع الذكر؛ غير أنّه يكفي انحرافٌ طفيف - لقاءٌ عَرَضيّ، توصيلةٌ بالسيّارة، أو حتّى تحيّةٌ من بعيد - لكي تتحتّم النهاية على القرى التي تكنسها تلك الزوابع نفسها. حلٌّ ممتاز: يسمح لأصدقاء ماركو بمواصلة الضحك وكذلك الإيمان جدّيًّا بمصائب البارون سامدي (واحدٌ من الأنباز التي عُرِفَ بها دوتّشو كيلّيري، مثل لواء، بوكور، مفستوفيليس، إبسوس)، مثلما يسمح لماركو كارّيرا بمواصلة التردّد إليهم وكذلك تأنيبهم على تخاريفهم. كانت خطّة توازن، الوحيدة الممكنة. نظريّة عين الإعصار.

هذا الشيء (1999)

ماركو كاتّزيرا

إلى عنوان أديلينو فييسبولي

شارع كاتالاني 21

00199 روما

إيطاليا

باريس، 16/ 12/ 1999

لقد وصلتْ، يا أمّاه إذا وصلتْ. لقد وصلتْ ولم ينتبه لها أحد. إنّها رسالةٌ قويّة يا ماركو، ولستُ أدري ماذا أقول، كالعادة.

صحيح، أنا لستُ سعيدة، لكنّ هذا ليس ذنب أحد، الذنب كلّه في داخلي. كلّا، أخطأتُ، ما كان ينبغي أن أكتب «ذنب»، ربّما عليَّ أن أسمّيه «الشيء»، لا الذنب.

ولقد وُلِدتُ حاملةً هذا الشيء، أجرّه خلفي منذ ثلاثة وثلاثين عامًا، لا يتعلّق بأحد، لا يتعلّق إلّا بي، مثل الشعور بالذنب، لا يتعلّق بأحد، سوى أنّ المرء إذا لم يولَد وغدًا يساوره ذلك الشعور دائمًا.

فماذا أقول لك الآن؟ أقول نعم، لديك الآن فرصةٌ للتحقّق من صحّة ما تفكّر به وتكتبه، دون الحاجة إلى أن تكون ثريًّا ووسيمًا. أنت الآن نظيفٌ مثل عصفور، لا ذنوب لديك، بإمكانك العودة للبدء بكلّ شيء من الصفر، بإمكانك أن تخطئ أيضًا، طالما أنّك تقدر على العودة إلى الخلف.

أمّا أنا فلا يا ماركو، إنّني في وضعٍ مختلف كلّيًا، وينبغي لي أن أغيّره، هذا ذنبي، وقد لا أنعم بالسلام من وراء ذلك حقًّا. لكنّي أعرف أنّك تفهمني، لأنّك مثلي، لديك طريقتي ذاتها في الحبّ: نخشى أن نؤذي مَن يقف إلى جانبنا.

أعتقد أنّك أجمل فصلٍ في حياتي، ذلك الفصل الذي لا تشوبه الأكاذيب، أو الخدائع أو نوبات الغضب (تواصلتَ معي ~~الآنهو~~الآن أهيم)، الفصل الذي نحلم به، حتّى في الليل، لأنني ما زلتُ أحلم بك.

هل سيبقى حلمًا؟ هل سيحدث كلّ شيء؟ هل سيحدث شيءٌ مّا؟ إنّني هنا وأنتظر، لا أريد أن أفعل شيئًا، أريد أن تحدث الأشياء من تلقاء نفسها. أعرف أنّها نظريّةٌ قميئة، إذ إنّ لا شيء يحدث لي، أبدًا، لكنّي لستُ قادرةً على اتّخاذ قرارات، ليس في هذا الشيء، ليس في هذه اللحظة.

ربّما درّبتُ نفسي طيلة تلك الأعوام على عدم فعل شيء، لكي أنجح في هذا الشيء. ما هذا الشيء؟ لا أدري، لا أدري، إنّني أهذي، سأتوقّف.

لويزا

طفلٌ سعيد (1960-70)

لم يفطن ماركو كارّيرا إلى أيّ شيء خلال طفولته كلّها. لم يفطن إلى التناقضات ما بين أمّه وأبيه: سَأمُها العدوانيّ، وصمتُه المستفزّ، والشجارات الليليّة التي تندلع بينهما بالهمس لئلا يسمعها الأبناء، والتي رغم ذلك كانت شقيقته إرينه - أكبر منه بأربعة أعوام - تسمعها بكلّ حذافيرها وتحفظها في ذاكرتها بدقّةٍ مازوشيّة. لم يفطن إلى سبب تلك الخلافات، وذلك السأم، وتلك الشجارات، الذي كان في منتهى الوضوح بالنسبة إلى أخته؛ وبالتالي لم يفطن إلى أنّ أمّه وأباه، على الرغم من كونهما مُنْبَتَّين عن جذورهما (هي، ليتيتزيا - اسمٌ ليس على مسمًّى - أصولها من سالنتو بوليا؛ وهو بروبو - *الحتميّة الاسميّة* - ينحدر من مقاطعة سوندريو)[1]، لم يُخْلَقا ليعيشا معًا، ولا كان بينهما أيُّ شيء مشترك - بل لا وجود لشخصين أكثر منهما اختلافًا على وجه الأرض - فهي معماريّة، كلُّها فكرٌ وثورة، وهو مهندس، كلُّهُ حساباتٌ وبراعةٌ يدويّة؛ هي منغمسةٌ في مزلقة العمارة الراديكاليّة، وهو أمهر مصنِّعي المجسّمات البلاستيكيّة في وسط إيطاليا؛ لذا لم يفطن إلى أنّ الرفاهية الهشّة التي كان يربى في ظلالها مع إخوته تُخفي زواجًا فاشلًا لا يُنتِج سوى المرارة والتأفّف والاستفزاز والإذلال والكراهية والإذعان والشعور بالذنب، ما يعني أنّه لم يفطن إلى أنّ أبويه ليسا متحابّين البتّة، على الأقلّ بالإجماع العامّ على معنى هذه الكلمة «محبّة»، التي تفترض فعلًا متبادلًا، طالما أنّ الحبّ كان

---

(1) اسم ليتيتزيا يعني الفرح والبهجة، واسم بروبو يعني شريف ونزيه. (المترجم).

موجودًا في زواجهما، إلّا أنّه ذو وجهةٍ واحدة، فكلُّ ما يساوره نحوها حبٌّ تعيسٌ، بطوليٌّ، مسعورٌ، صلبٌ، مريعٌ، إيذاءٌ ذاتيٌّ، لم تتمكّن أمّه يومًا من قبوله أو مبادلته، لكنّها لم تتمكّن من رفضه أيضًا، فمن البديهيّ أنّها لن تجد رجلًا آخر في الدنيا يعشقها إلى ذلك الحدّ، وبالتالي تحوَّلَ الحبُّ إلى سرطان، نعم، عبءٌ خبيثٌ ومتوالدٌ يمزّق أسرتها من الداخل ويبقيها مصلوبةً على خشبة التعاسة التي نشأ ماركو كارّيرا في ظلالها، من دون أن يفطن إلى ذلك. كلّا، لم يفطن إلى أنّ تلك التعاسة ترشح من جدران بيته. لم يفطن إلى أنّ ذلك البيت ينقصه الجنس. لم يفطن إلى أنّ نشاطات والدته المحمومة، كالعمارة والتصميم والتصوير الفوتوغرافيّ واليوغا والتحليل النفسيّ، كانت مجرّد محاولات لإيجاد نقطة توازن، لم يفطن إلى أنّ تلك النشاطات تشمل خيانتها لأبيه كذلك، وإنْ بطريقةٍ متعثّرة، مع خِلّانٍ تصطادهم من بين المثقّفين الذين كانوا في تلك السنوات يمنحون للمرّة الأخيرة في التاريخ ربّما حظوةً دوليّةً لمدينة فلورنسا، «رعاة الوحوش» في منتديات المعماريّين مثل سوبرستديو وآرتشزوم، ومريديهم الذين كانت تُحسَب عليهم، رغم أنّها تكبرهم من حيث الولادة، ولكونها من أسرة ميسورة بما يكفي لتسمح لنفسها بالاشتغال على مبادرات معشوقيها الشبّان من دون أن تتقاضى ليرة واحدة. كلّا، لم يفطن إلى أنّ والده كان على دراية بتلك الخيانات. لم يفطن إلى شيء، ماركو كارّيرا، خلال طفولته كلّها، ومن أجل هذا فقط اتّصفت طفولته بالسعادة. لا بل أكثر من ذلك: لأنّ الشكّ في أمّه وأبيه، لم يتبادر إلى ذهنه كحال شقيقته، ولأنّه لم يدرك مثل شقيقته منذ البدء أنّهما ليسا شخصين مثاليّين، اتّخذ منهما أنموذجًا، نعم، أنموذجًا يحتذى، وكوَّنَ شخصيّته بناءً على خليطٍ متشابكٍ من طباعٍ يقترضها منها ومنه: الطباع ذاتها التي تبيّنت لوالديه متعارضةً إبّان محاولة زواجهما. فما الذي أخذه خلال الطفولة عن والدته، حين كان لا يفطن إلى شيء؟ وما الذي أخذه عن والده؟ بالمقابل، ما الذي كان سيرفضه طوال

حياته بسببه أو بسببها، بعد أن فطن إلى كلّ شيء؟ لقد أخذ عن أمّه السأم، لا الراديكاليّة؛ الفضول، لا القلق من التغيير. وعن أبيه الصبر، لا الحذر؛ الميل نحو التحمُّل، لا نحو السكوت. أخذ عنها موهبة النظرة، لاسيّما عبْر عدسة الكاميرات؛ أمّا الأعمال اليدويّة، فعن أبيه. هذا وبما أنّ الفجوة الهائلة بين أمّه وأبيه كانت سرعان ما تتلاشى إذا تعلَّقَ الأمر باختيار الأغراض، فإنّ نشأته في ذلك البيت (كالجلوس منذ الولادة على تلك المقاعد، والاستلقاء على تلك الأرائك والدواوين، والأكل إلى تلك الموائد، والدراسة إلى تلك المكاتب، على ضوء تلك المصابيح، محاطًا بتلك المكتبات النموذجيّة إلخ) نقلت إليه حسًّا متعجرفًا بالفوقيّة التي امتازت بها بعض العوائل البرجوازيّة في الستّينات والسبعينات؛ انطباعٌ بأنّه يعيش في أجمل العوالم الممكنة إن لم يكن أفضلها: وهي أحقّيّةٌ تشهد عليها الأغراض التي كدَّسها أبوه وأمّه. ولهذا السبب، لا بسبب النوستالجيا، حتّى عندما فطن إلى كلِّ الاضطرابات في عائلته، وحتّى عندما لم يعد لعائلته وجودٌ فعليًّا، كان ماركو كارّيرا سيبذل قصارى جهده دومًا لينفصل عن تلك الأغراض التي حاوطته: لأنّها كانت جميلة، وما زالت وستبقى جميلة، وكان ذلك الجمال بمثابة البصقة التي تماسَكَ أبوه وأمّه من خلالها. فبعد وفاتهما كان سيجد نفسه يضع تلك الأغراض بقائمة الجرد، غرضًا تلو الآخر، برؤيةٍ أليمةٍ لبيعها مع كلّ البيت الكائن في ساحة سافونارولا (شقيقه الذي حسم أمره بألّا تطأ قدماه إيطاليا أبدًا، نطق عبْر الهاتف عبارة «تخلَّصْ منها»)، ليحصل على نتيجةٍ عكسيّة بإبقائها على عاتقه بقيّةَ عمره.

من جهة أخرى، فإنّ الهوس الذي تملَّكَ والده بترتيب أغراضه الشخصيّة - دون أن يطالب الآخرين بذلك، والحقّ يقال، لكنّه هوسٌ مطلقٌ، مروِّعٌ، وعنيفٌ أيضًا في نهاية المطاف - جعل منه شخصًا مستهترًا بشكلٍ مقرف؛

في حين كانت والدته مسؤولة عن معاداته الجامحة للتحليل النفسيّ، والتي قُدِّرَ لها أن تكون مفصليّةً في علاقاته مع النساء لاحقًا طالما أنّ القدر شاء أن تكون كلُّ النساء في حياته، بدءًا بأمّه تمامًا، مرورًا بشقيقته إرينه، وهلمَّ جرًّا إلى صديقاته، فخطيباته، وزميلاته، وزوجاته، وبناته، كلُّهُنَّ، كلُّهُنَّ بلا استثناء، سيخضعن لنماذج متفاوتة من العلاج التحليليّ، الأمر الذي لاقى فيه الصعاب باعتباره ابنًا، وشقيقًا، وصديقًا، وخطيبًا، وزميلًا، وزوجًا، وأبًا، ليؤكِّدَ له حدسَهُ البدائيّ: «التحليل النفسيّ السلبيّ»، على حدّ وصفه، هو بالغ الضرر. لكنَّ أيًّا منهنّ لم تشغل بالها، حتّى عندما بدأ يتذمّر من الموضوع. قيل له إنّ الأضرار تنجم عن أيّ عائلة، وعن أيّ علاقة مهما كان شكلها، وتصيب أيَّ أحد؛ وإنّه من غير المنصف اعتبار التحليل النفسيّ مسؤولًا أكثر من الولع بالشطرنج، على سبيل الافتراض. وربّما كانوا محقّين فعلًا، بيد أنّ الأثمان التي تحتَّمَ على ماركو كارّيرا دفعُها بسبب تلك الأضرار جعلته يشعر دومًا أنّه محقٌّ في رؤيته: التحليل النفسيّ مثل التدخين، لا يكفي الامتناع عنه، بل ينبغي التباعد عمّن يمارسه أيضًا. سوى أنّ الطريقة الوحيدة المعروفة للاتّقاء من تحليل الآخرين لنفسيّاتهم هي أن يتوجَّهَ المرء بدوره إلى التحليل، وهذا ما لم يكن ينوي الانصياع له.

وفي المحصّلة، لا داعي لمحلّلٍ نفسيٍّ لطرح الأسئلة الوجيهة: لماذا والأرض تعجُّ بنساءٍ لا يذهبن إلى المحلِّلين لا يجد نفسه مرتبطًا إلّا بأولئك اللواتي يذهبن؟ ولماذا كان يفضِّل استعراض نظريّته حول التحليل النفسيّ السلبيّ أمامهنّ، ليتلقّى منهنّ اتّهامًا بالسطحيّة، لا أمام أولئك المذكورات آنفًا، النساء اللواتي لا يخضعن للتحليل، حيث قد تلقى النظريّة عندهنَّ نجاحًا متوقّعًا؟

جَرْد (2008)

إلى: جاكومو - jackcarr62@yahoo.com

بريد مرسَل - Gmail - 19 سبتمبر 2008، 16:39

الموضوع: جرد ساحة سافونارولا

من: ماركو كارّيرا

جاكومو العزيز،

أنت تستمرّ في عدم الردّ عليّ وأنا أستمرّ في الكتابة إليك. وما قصدتُ إلّا أن أحيطك علمًا بما أفعله لبيع بيت ساحة سافونارولا، ولن يوقفني صمتك عن ذلك بالتأكيد. استَجِدُّ أنّني اتّصلتُ ببييترو براكي (هل تذكره؟ صاحب ستديو ب حيث اقتُنيَ كلُّ أثاث بيتنا على مدى عقدين)، هو الآن، بعمر السبعين ونيّف، يدير موقعًا لمزادات الأثاث متخصِّصًا بتصاميم الستّينات والسبعينات، وطلبتُ منه إجراء تثمينٍ للأغراض الموجودة في الشقّة. ومثلما تصوّرتُ، بعضها نفيسٌ جدًّا، وقد توصَّلنا إلى سعرٍ مدهش، ومع الأخذ بعين الاعتبار الوقائع المعروفة التي أدّت إلى إخلاء ذلك البيت وخراب عائلتنا، فإنّ معظم تلك الأغراض ما تزال في حالٍ ممتازة. وأكثرها، يقول براكي، معروضٌ في متحف الفنّ الحديث «موما». فإذًا، ينبغي اتّخاذ قرار بشأنها عندما سنبيع البيت، آخذين بالحسبان أنّنا إذا تركناها في الداخل لن

نحصل على أيّ زيادةٍ على سعر المبيع. بإمكاننا أن نأتمنها لدى براكي نفسه، الذي سيتكفّل ببيعها شيئًا فشيئًا على موقعه، أو أن نتقاسمها بيننا بحسب متطلّباتنا أو تعلُّقنا بها. أرجوك أن تولي أهمّيّةً للمسألة التي أطرحها يا جاكومو، فهي لأسبابٍ وجيهةٍ ليست صفقة ماليّة بسيطة: نحن بصدد كلّ ما تبقّى من حياةٍ وأسرةٍ ما عاد لهما وجود، على أنّنا أنت وأنا كنّا جزءًا منهما لما يزيد على عشرين عامًا، وحتّى لو أنّ الحال آلت إلى ما آلت إليه فلا مبرِّر - صدِّقني - لـ «ـتخلُّص منها»، كما قلتَ أنت في آخِر مرّةٍ أجبتني فيها، مضيفًا بذلك إلى الخسارة خسارة. من جهةٍ أخرى، تأثّر براكي حينما رأى من جديد كلَّ تلك الأشياء الرائعة التي باعها لنا بنفسه منذ زمن: لا أصدِّق أنّك لستَ مهتمًّا حتّى بفتح فمك لاتّخاذ قرارٍ يحدِّد مصيرها. أضمن لك أنّه لن يكون بهذا الشأن جدال، سأفعل ما تقوله أنت بالضبط، إذا وافقتني على الأقلّ بأنّه من الظلم أن نضيِّعها سدى. الأشياء بريئة، يا جاكومو.

فإذًا، أرفق لك طيًّا قائمة الجرد مع تقديرات أسعارها التي سلّمني إيّاها بييترو براكي. القائمة مقتضبة وغير شخصيّة، مثلما طلبتُها منه ومثلما تُفضِّلها أنت حسب تصوُّري، مع أنّه يعرف كثيرًا من الأشياء الحميمة حول كلّ غرضٍ من تلك الأغراض: لمن اشتُرِيَ، وفي أيّ غرفةٍ كان إلخ.

قائمة جرد قطع الأثاث في بيت ساحة سافونارولا:

2 ديوانان لفردين بامبولي: معدن، جلد رماديّ، بعازل بوليوريثان، ماريو بلّيني من ب&ب، 1972 (€20.000)

4 أرائك أمانتا*: ليف زجاجيّ وجلد أسود، ماريو بلّيني من ب&ب، 1966 (€4400)

1 *أريكة زيلدا: خشب مدهون بلون أخشاب الورد وجلد باللون البنيّ الداكن، سيرجيو آستي، سيرجيو فافري من بولترونوفا،* 1962 (2200€)

1 *أريكة سوريانا: فولاذ وجلد أنيلين بنّي، توبيا وأفرا سكاربا من كاسينا،* 1970 (4000€)

1 *أريكة ساكو*: بوليستيرول وجلد بنّي، غاتي، باوليني وتيودورو من زانوتا،* 1969 (450€)

1 *أريكة وودلاين: خشب بالثني الساخن وجلد أسود، ماركو زانوزو من آرفلكس،* 1965 (1000€)

1 *طاولة قهوة أمانتا: ليف زجاجيّ أسود، ماريو بلّيني من ب&ب،* 1966 (450€)

1 *طاولة منخفضة* 748*: خشب ساج بنّي، إكو باريزي من كاسينا،* 1961 (1100€)

1 *طاولة منخفضة ديمتريو* 70*: بلاستيك برتقاليّ، فيكو ماجستريتي من آرتميد،* 1966 (150€)

1 *طاولة لاروتوندا: خشب كرز طبيعيّ وزجاج كريستال، ماريو بلّيني من كاسينا،* 1976 (4000€)

1 *مكتبة مركّبة دودونا* 300*: بلاستيك أسود، إرنستو جيزموندي من آرتميد،* 1970 (4500€)

2 *مكتبتان مركّبتان سرجستو: بلاستيك أبيض، سيرجيو ماتسا من آرتميد،* 1973 (1500€)

1 **نجفة سقفيّة أو-لووك:** ألومينيوم، سوبرستديو من بولترونوفا، 1967 (€4400)

1 **مصباح مكتبيّ باسيفلورا:** زجاج بلكسي أصفر ولبنيّ، سوبرستديو من بولترونوفا، 1968 (€1900)

1 **مصباح مكتبيّ سافو:** ألومينيوم باللون الفضّي وزجاج، أنجلو مانجاروتّي من آرتميد، 1967 (€1650)

1 **مصباح باوباب:** بلاستيك أبيض، هارفي غوتزيني من غوتزيني، 1971 (€525)

1 **مصباح إكليس:** معدن أحمر، فيكو ماجستريتي من آرتميد، 1967 (€125)

1 **مصباح مكتبيّ غيربي:** صفائح زجاج بلكسي أحمر وفولاذ كرومّ، سوبرستديو من بولترونوفا، 1967 (€4000)

1 **مصباح مكتبيّ ميتزاكيميرا:** أكريليك أبيض، فيكو ماجستريتي من آرتميد، 1970 (€450)

3 **نجفة سقفيّة بارنتيزي:** معدن وبلاستيك، آخيل كاستليوني وبيو ماندزو من فولوس، 1971 (€750)

12 **نجفة سقفيّة وجداريّة تيتي:** بلاستيك أبيض، فيكو ماجستريتي من آرتميد، 1974 (€1000)

1 **مصباح قراءة هيبي:** معدن وبلاستيك مجعَّد أبيض، إيزاو هوزوي من فالنتي، 1972 (€350)

3 **مصابيح مكتبيّة تيليغونو:** *بلاستيك أحمر، فيكو ماجستريتي من آرتميد، 1968 (1800€)*

3 **مكاتب غرافيس:** *خشب ومعدن مطليّ بالأبيض، أوزفاللدو بورساني من تكنو، مزوَّدة بأدراج، 1968 (3000€)*

1 **طاولة ت ل 58:** *صفائح وألواح بندق، ماركو زانوزو من كارلو بودجي، 1979 (8500€)*

3 **حمّالة أغراض جداريّة أوتن.سيلو 1:** *بلاستيك أحمر، أخضر وأصفر، دوروثي بيكر من إنغو ماورر، 1965 (1800€)*

4 **عربات حاوية بوبي:** *من البوليبروبيلين أ ب س مصبوب أبيض، أخضر، أحمر وأسود، جو كولومبو من بيفبلاست، 1970 (1000€)*

7 **كراسي بعجلات مودوس:** *معدن وبلاستيك متعدّد الألوان، أوزفاللدو بورساني من تكنو، 1973 (700€)*

4 **كراسي مكتبيّة:** *فولاذ كرومّ وجلد، جوفاني كاريني من بلانولا ، 1967 (800€)*

7 **كراسي بليا:** *ألومينيوم وزجاج بلكسي شفّاف، جانكارلو بيريتي من كاستيلي، 1967 (1050€)*

4 **كراسي لووب:** *بامبو، فرنسا، سبعينات (1200€)*

4 **كراسي سيلين:** *من البوليستر رمليّ اللون، فيكو ماجستريتي من آرتميد، 1969 (600€)*

4 **كراسي باسكيت*:** *فولاذ وخيزران رمليّ اللون، فرانكو كامبو وكارلو غرافي من هوم، 1965 (1000€)*

1 **كرسي واسيلي طراز ب3**: جلد بنّي وفولاذ مصفّح بالكروم، مارسيل برووِر من غافينا، 1963 (1800€)

1 **طاولة رسم بنابض**: خشب بأذرع حديديّة، المهندس م. ساكي من شركة المهندس م. ساكي، 1922 (4500€)

2 **خزانتان صغيرتان فنتاج**: خشب ساج بنّي، أكسل كيرسغارد من كيرسغارد، 1956 (1200€)

1 **مشجب شانغاي**: خشب زان طبيعيّ، دو با، دوربينو ولوماتزي من زانوتا، 1974 (400€)

1 **حمّالة مظلّات ديدالو**: بلاستيك برتقاليّ، إيما جيزموندي شفايبرغر من آرتميد، 1966 (300€)

1 **آلة كاتبة فالنتين**: معدن وبلاستيك أحمر، إتوري سوتساس وبيري أ. كينغ من أوليفيتّي، 1968 (500€)

3 **هواتف غريلو**: ماركو زانوزو وريتشارد سابر من سيمنس، 1965 (210€)

1 **راديو كوبو ت س 522**: فولاذ كروم وبلاستيك أحمر، ماركو زانوزو وريتشارد سابر من بريونفيغا، 1966 (360€)

1 **جهاز هاي - فاي متكامل توتم***: ماريو بلّيني من بريونفيغا، 1970 (700€)

2 **لاقطا إشارة لاسلكيّة ف د 1102 رقم 5**: ماركو زانوزو من بريونفيغا، 1969 (300€)

1 **مدوِّر أقراص ر ر 126 ميدسنتري***: مزوّد بمضخّم ومكبّرات

متكاملة، من الباكيليت والخشب رمليّ اللون، زجاج بلكسي، بيير جاكومو وآخيل كاستليوني من بريونفيغا، 1967 (€2000)

1 قارئ أقراص بينّي: ميوزيكال ساوند، 1975 (€180)

الأغراض المشار إليها بعلامة * قُدِّرَت بناقص 50 بالمئة من قيمتها، بعد أن تبيَّنت أنّها إمّا معطَّلة وإمّا محفوظة بظروف سيّئة.

التثمين الإجماليّ: 92.800 €

هل فهمت يا جاكومو؟ ذلك البيت متحف. قل لي ما الذي تريد فعله بتلك الأشياء، حقًّا، وأنا سأفعل. ولكنْ لا تقل لي تخلَّصْ منها.

آه، آمل أنّك انتبهتَ أنّنا متعادلان بعدد النجيمات، كلٌّ منّا حطَّمَ غرضًا...

أعانقك

ماركو

طائرات (2000)

في العام 1959، عام ولادته، تجاوز عددُ المسافرين بالطائرات عددَ المسافرين بالسفن. ها هي المعلومة التي اعتقد ماركو كارّيرا أنّه لطالما عَرَفَها، بما أنّ والده ما انفكَّ يردِّدها على مسامعه منذ أن كان عاجزًا عن فهمها؛ حدثٌ تاريخيٌّ، بالنسبة إلى والده، القارئ المولع بكتب الخيال العلميّ، التي أفردت على صفحاتها نبوءاتٍ عن التنقُّل في المستقبل عبْر السماء أكثر منها على الأرض أو على الماء. ولكنْ، مثلما يحدث للأشياء التي لطالما عرفناها، خَلُصَ ماركو كارّيرا إلى الاستخفاف بتلك المعلومة، وصنَّفَها بين مسبِّبات الهوس غير الضارّ التي امتاز بها أبوه، عوضًا عن وضعها بين البذور الأقوى ضمن إطاره الكارميّ. في حين أنّ...

في حين أنّ الطائرات، والنقل الجويّ بشكلٍ عامّ، هي أحد البذور الأقوى ضمن إطاره الكارميّ. انتبه ماركو إلى الأمر عن طريق الصدفة، حيث بعد أن ضيَّعَ في السابق ما لا يُعدُّ من الفرص الواضحة للعيان، كان في الحادي والأربعين عامًا، في إحدى تلك الصباحات التي لا وجود لها إلّا في روما، جالسًا على الحاجز الخشبيّ تحت أشجار الصنوبر في شارع مونتي كابرينو، يقرأ الاتهامات الشائنة التي اختلقتها مارينا، زوجته السابقة والحال هذه، بالدعوى المهلوسة التي رفعتها ضدّه في المحكمة. أحد أجمل الأماكن في العالم بالفعل، المسمَّى غرانارونه دي بالاتسو كافّاريلّي (لا يعزى جماله إلى المميّزات المعماريّة الجوهريّة، التي لا يتمتّع بها أساسًا، إنّما إلى موقعه، المهيمن على كلّ الطرف الجنوبيّ الغربيّ لهضبة كامبيدوليو حتّى

نهر التيفر، أي المنطقة التي يوجد فيها أطلال معابد يانوس، والإلهة جونو المجيرة، ولاسبيرانسا/ الأمل، وأبولو سوزيانو، وكنيسة سانت أوموبونو، والرواق الجمهوريّ في ميدان أوليتوريو، علاوةً على كاتدرائيّة سان نقولا إن كارتشيري وجرف تاربيا، كلُّها بإطلالةٍ كاملةٍ ناهيك بثلاثة أرباع مسرح مارتشيلّو؛ غدت المنطقة في عصور الظلام مرعىً للماعز، لذا سُمِّيَت مونتي كابرينو/ جبل الماعز؛ وفي نهاية القرن السادس عشر أُعِيدَ استصلاحها بفضل بناء قصر كافّاريلّي في أعلى قمّة هضبة كامبيدولو بالضبط، من قِبَلِ عائلة كافّاريلي العريقة ذات الوجاهة البلديّة الرومانيّة؛ وفي أواسط القرن التاسع عشر استولى البروسيّون عليها، مع القصر وما تبقّى، وزادوا عليها مبانيَ أخرى من بينها المذكور آنفًا غرانارونه، حيث نُقِلَ المعهد الجرمانيّ لعلم الآثار؛ ثمّ استعادتها بلديّة روما قاطبةً، في العام 1918، جرّاء انهيار الامبراطوريّة البروسيّة)، كان المكان في تلك الأعوام يُستَخدَم مقرًّا لهيئة محامي العاصمة، وملحقًا بمكاتب البلديّة تُحفَظُ فيه الإجراءات القضائيّة وتُبلَّغُ لمن يهمّه الأمر. أي إنَّ الأشخاص الذين كانوا موضوع الشكاوى، والقضايا، والجزاءات القانونيّة، يجب عليهم التوجُّه إلى هناك لاستلامها، إلى غرانارونه. وبعدئذ، ما إن يخرجوا، غير عابئين بجمال المنطقة المذهل - طبع البشر - يسارعون إلى تمزيق الظرف المختوم لقراءة محتواه على الفور - متّكئين إلى شجرة، أو ربّما قاعدين على الأرض، أو مثل ماركو كارّيرا في ذلك الصباح، جالسين على الحاجز الخشبيّ. كان حوله ثلاثة تعساء مثله: شابٌّ في مقتبل العمر ميكانيكيٌّ ببزّة العمل، رجلٌ متأنّقٌ والخوذة ما زالت على رأسه، ورجلٌ بدينٌ متّسخٌ وشائب، وكلٌّ منهم مسترسلٌ في قراءة وثائقه - أحدها، وثيقة الميكانيكيّ، من المؤكّد أنّها من نوع وطبيعة الوثيقة التي استلمها ماركو كارّيرا توًّا، نظرًا إلى أنّ الشابّ أثناء قراءتها كان يعلّق عليها بصوتٍ مرتفع: («انظروا إلى هذه!»، «اللعنة على أمواتها!»، «ابنة العاهرة هذه!»)، يبدو أنّه

يهدِّد بتمزيق الورقة التي ترتعش في يده. إلّا أنَّ عدائيّته بدت دفاعيّةً أكثر منها هجوميّة، وتعابيره هي أقرب إلى الذعر منها إلى الغضب، تمامًا مثلما سيحدث لماركو كارّيرا. لأنّه إذ كان هناك، في ذلك الصباح الأخّاذ، وفي تلك الناحية الزاخرة بالتاريخ والجمال، وبقراءة تلك الدعوى، وبعد أشهرٍ من الحيرة أدرك حجم الشراسة، تمامًا، ودهاء الطريقة، اللتين اتّخذتهما زوجته السابقة للتخلّص منه.

ففي الواقع، بعد فشل الخطّة آ عبْر مبادرة محلِّلها النفسيّ، الذي انتهك السرّيّة المهنيّة وأطلع ماركو كارّيرا على الغايات التي تُدبِّرُها، انعطفت مارينا إلى الخطّة ب، أقلّ دمويّة بالتأكيد لكنّها مشحونةٌ بالحقد ومسبِّبةٌ للمآسي بكلّ الأحوال: مطالبةٌ بالخُلع تمطره بكلّ الاتّهامات التي من الممكن تخيُّلها عن زوجٍ وأب - وكلّها زائفة، بالطبع، لكنّ هذا لا يغيِّر شيئًا: لأنّه، والحال هذه، قبل أن يقف في حضرة القاضي ويجادلها بخصوص الحمل خارج العلاقة الزوجيّة الذي شارف على نهايته، وهجر سقف الزوجيّة، وانتزاع ابنته من حضانة أبيها المشروعة، وإلى ما هنالك من أفعالٍ دنيئةٍ دخلت حيِّز التنفيذ (ففي الخطّة آ لم يكن هناك من ضرورةٍ للإشارة إلى كلّ هذا، طالما أنّ المحلِّل النفسيّ الذي أحبط الخطّة لم يكن ليشهد في أيّ قضيّة من هذا النوع)، قبل التمكّن من مجادلتها بكلّ ما سبق، كما كنّا نقول، كان عليه أن يبرِّئ نفسه من اتّهاماتٍ بالعنف الجسديّ والنفسيّ، والاختطاف، وضرب الابنة والاعتداء عليها، والخيانات الزوجيّة المتكرّرة، والتهديدات بقتل كلّ القرابة السلوفينيّة لزوجته، والإخلال بواجباته الزوجيّة، والتهرُّب الضريبيّ، وخروقات قانون البناء: كلّ هذا. وهذا كلّه باطل، فلنشدِّد على الأمر (التهرُّب الضريبيّ هي التي أقدمت عليه، مارينا، في حين أنّه حاول التغطية عليها ليس إلّا، وأمّا خروقات البناء فعائدة إلى توسيع المنزل في بولغيري قديمًا، صحيحٌ أنّه أُجرِيَ في الخفاء، نعم نعم، ولكن من قِبَلِ أبويه، خلال الصيف الملعون الذي ماتت

فيه شقيقته، أي في العام 1981، أي عشرون عامًا مضت، أي قبل سبع سنوات من تعارفه هو ومارينا)، كما أنّ التُّهم مبنيّةٌ على سرديّةٍ ركيكةٍ للحكايا الباطلة هي الأخرى (التفاصيل الشهيرة التي يعشّش فيها الشيطان)، باستثناء حادثةٍ واحدة وقعت فعلًا - تافهة قياسًا بذلك السياق المهلوس بالتأكيد، لكنّها حقيقة، وقد دسَّتها بوضوحٍ ضمن كلّ تلك التلفيقات، بغية تذكيره بأنّه على الرغم من وقوعه ضحيّةً لافتراءات شنيعة، فهو ليس ببريء. وقعت الحادثة عندما كانت آديلي في المهد، عشرة أعوام مضت إذًا. في الصيف. في بولغيري، تحديدًا. كانت ذاكرته قد دفنت الحادثة كليًّا لكنّها ما تزال حيّة، بطبيعة الحال، فأثناء قراءته لها في سطور تلك الدعوى أُعِيدَ خلقُها في ذهنه بكلّ ما تحتويه من حقيقةٍ حارقة.

يوليو.

الظهيرة المبكرة.

عتمة.

نسمةٌ بحريّةٌ تداعب الستارة.

صريرُ جداجد محموم.

هو ومارينا ينعمان بقيلولةٍ في غرفتهما (للمفارقة، الغرفة نفسها التي أُضيفَت عام 1981 بطريقةٍ مخالفة للقانون)، وبجانب السرير، من جهة مارينا، المهد الذي فيه الطفلة النائمة.

أغطيةٌ وثيرةٌ. وسادةٌ وثيرةٌ. عبقُ رضيعٍ وثير.

سلام.

وفجأةً، انفجار. دويٌّ مجلجلٌ، متواصلٌ، مدمِّرٌ، مرعبٌ، مروِّعٌ، رهيب.

ينتفض ماركو كارّيرا من غفوته التي كان يهنأ بها منذ لحظة، ليجد نفسه واقفًا على قدميه، مرتعشًا، لاهثًا، مستندًا إلى شجرة صنوبر، خارج باب الغرفة الزجاجيّ، وقلبه منتفخٌ بالأدرينالين وأنفاسه تختنق في حلقه. تدوم الحالة خمس ثوانٍ، ربّما عشر، وبعدها يدرك ماركو ما الذي حدث وفي الآن نفسه ينتبه أنّه قفز خارج الغرفة التي بقيت فيها زوجته وابنته، لذا يعود، ويعانق مارينا القاعدة على السرير، والتي استيقظت جفلة هي الأخرى، وما زالت مذعورةً وغير واعية، فيطمئنها، ويساعدها على أن تهدأ، ويشرح لها ما الذي جرى - بينما لا تزال الطفلة نائمةً قريرة العين لحسن الحظّ. خمس ثوانٍ، ربّما عشر...

وكما قلنا، كان ماركو كارّيرا قد دفن هذه الذكرى، لكنّه في ذلك الصباح عاد ووجدها أمامه كاملةً، حيّةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ثمرةً من ذاكرة الآخرين، الحادثة الحقيقيّة الوحيدة في تلك العربدة من الأكاذيب التي قُيِّأتْ عليه بهدف رسمه على أنّه أحقر الرجال. كان في التهمة التي وجَّهَتها إليه زوجته «يتركها بفعلٍ جبانٍ هي والطفلة في الغرفة، فارًّا من مجرّد استشعاره بالخطر، المتمثِّل في هذا الصدد بهديرٍ ناتجٍ عن طائرة عسكريّة تخترق جدار الصوت في السماء فوقهم، ما يعني أنّه حدثٌ لا يشكِّل أيّ تهديد، رغم أنّه كان من الممكن أن يكون أشدّ خطورةً وهولًا».

وهذا صحيح.

مع أنّ التهمة المنقولة في الدعوى لم تقل بطبيعة الحال إنّ تصرُّفه لاإراديّ، وأنّ تقصيره لم يدم بالضبط سوى خمس ثوانٍ، أو عشر، أو حتّى خمس عشرة. إنّما كانت تترك انطباعًا بأنّ فراره هو فعلٌ متعمَّد وأنّه استمرّ مدّةً كافيةً لينجو بنفسه حصرًا من الخطر المحدق، ليترك زوجته وابنته تواجهان مصيرهما. وهذا مغلوطٌ طبعًا. لكنّ الدعوى لم تقل حتّى ما الذي فكّر فيه ماركو، أثناء

تلك الثواني العشر من الإهمال، قبل أن يعود إلى رشده ويتصرّف باعتباره زوجًا وأبًا. لم تقل أين طار عقله في فقاعة الرعب الجنونيّة والصاعقة تلك - خطأه الحقيقيّ الوحيد من بين كلّ ما لفّقته مارينا زورًا وبهتانًا، والذي لم تكن على درايةٍ به، والذي برز من جديد بغتةً بسبب الذكرى التي ما كانت لتعاوده إلّا بسببها.

وذلك عندما انتبه ماركو كارّيرا أنّ الرابط بين عام ميلاده والطائرات كان في الواقع نبوءةً من أبيه: لم يفطن إلى الأمر من قبل، لا حينما نجا من كارثة تحطُّم طائرة، ولا حينما تزوَّجَ مضيفةً إذ حسِبَها ناجيةً هي الأخرى من الكارثة نفسها؛ لم ينتبه إلّا حينذاك، عندما وجد نفسه مذنبًا بتهمة واحدة من أصل مئةٍ انهالت على رأسه: ليس فرارَه من الهدير المجلجل فوق رأسه من قِبَلِ طائرةٍ مقاتلةٍ تابعةٍ للقوّات الجويّة العسكريّة في قاعدة غروسّيتو المجاورة، إنّما ما شغل باله خلال تلك الثواني الخمس، وقد تولّاه الفزع، وهو يلهث مستندًا إلى شجرة صنوبر ينظر بعينين ممتلئتين بالقلق إلى سياج شجيرات البيتوسبوروم الذي يفصله عن حديقة الجيران. فلنقل عشر ثوانٍ: لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا لويزا...

جملة سحريّة معيّنة (1983)

ماركو كارّيرا

ساحة سافونارولا 12

50132 *فلورنسا*

باريس، 15 *مارس* 1983

مرحبًا ماركو،

أتصّور أنّك تتساءل مَن هذا الذي يكتب إليك بالآلة الكاتبة من باريس، بما فيه العنوان على الظرف. ربّما اتّجهتَ مباشرةً إلى نهاية الرسالة لترى التوقيع، ربّما اتّجهتَ لترى المرسِل، إلّا أنّني وضعتُ مكانه حروف اسمي الأولى، أو ربّما (وهي الاحتماليّة التي أفضّلها) راودك حدسٌ فأدركتَ على الفور مَن أكون. بكلّ الأحوال، هذه أنا. هذه أنا التي تكتب إليك من باريس، يا ماركو، من الآلة الكاتبة لوالدي. أنا، أجل، التي اختفيتُ منذ أن انتقلنا إلى هنا.

ماذا أفعل؟ كيف حالي؟ إنّني أدرس. يعجبني المكان الذي أذهب إليه كلّ يومٍ للدراسة. وإلى ما هنالك من هذا الكلام. لم أراسلك لأخبرك بهذه الأشياء.

أفكّر فيك غالبًا. أنت الشخص الإيطاليّ الوحيد الذي يخطر في بالي، أنت وشابٌّ آخر أعجز عن طرده من رأسي كلّيًا. أفكّر فيه باللحظات البشعة، وأفكّر فيك باللحظات الجميلة. وليس حصرًا حين أرتدي كنزتك الحمراء، كما جرى في هذا اليوم. أفكّر فيك بالتاكسي، خصوصًا، في الساعات المتأخّرة والاستثنائيّة التي كنتَ تحبّ فيها الذهاب لشراء عجائن السكياتشاتينة الساخنة مع خشيتك من مصادفة أمّك برفقة أصدقائها. أفكّر فيك بالتاكسي وأنا عائدةٌ إلى البيت، في وقتٍ متأخّرٍ من الليل، شبه سكرانة، بعد حفلةٍ مّا، وأشعر أنّني مثلما وصفتَني ذات مرّة «ضائعة بشكلٍ مفرح».

لم أستقلّ التاكسي قطّ من قبل. أعتقد أنّني لم أركب التاكسي في فلورنسا بمفردي إطلاقًا. كنتُ أجهل متعة التجوّل بالتاكسي في الليل. أن تؤشّر للسائق، بالتلويح بيدك من على الرصيف، كما في الأفلام. لم أكن أعرف أيَّ شيء عن سيّارات الأجرة. فعلى سبيل المثال، تعلّمتُ أنّه إذا كانت عبارة «Taxi Parisien/ التاكسي الباريسيّ» مضاءةً بالبرتقاليّ فهذا يعني أنّ التاكسي مشغول، في حين أنّها إذا كانت مضاءة بالأبيض فهو متوافر. وإذا كانت مضاءة بالأبيض، أقسِمُ لك، يكفي أن ترفع ذراعك فتتوقّف السيّارة. رائع. ولكنّك ربّما تعرف هذا، لا بل أنا واثقة من أنّك تعرف هذا. أمّا أنا فلا، لم أكن أعرفه. وعندما أكون في الداخل، وبعد أن أعطي العنوان للسائق، وبعد أن تنطلق السيّارة، وتنزلق في الطرقات والساحات المنيرة والمقفرة، أبات أشعر بتبدُّد كلّ الأشياء التي فعلتُها في الأمسية الطويلة التي انتهت توًّا: تتبدّد وجوه الفتية الذين رقصتُ معهم وشربتُ ودخّنتُ، تتبدّد كلّ التفاهات، يتبدّد كلُّ شيء، وأشعر أنّني بخير. وفي تلك اللحظات تحديدًا يحدث لي أن أفكّر فيك. أشعر أنّ كلّ الأشياء العبثيّة تنزاح عنّي وأنتبه أنّ حياتي إذا طرحتَ عنها الأشياء العبثيّة لا يبقى منها سواك أنت.

ومع هذا ليس من السهل التفكير فيك. لا سيّما بعد الذي وقع. ليس لديّ سوى القليل القليل من الذرائع، والقليل القليل من الصور التي أتذكّرها. فألجأ دومًا تقريبًا إلى الصورة التي تظهر فيها جالسًا على الديوان في بيتي، في بولغيري، وفي أذنيك سمّاعاتٌ موصولةٌ بالووكمان تعزلك عن العالم، بينما أنا وأصدقائي نتناول الرافيولي. ربّما بسبب الساعة، ربّما بسبب التاكسي، إلّا أنّ تلك تبدو لي ذكرى جميلة.

وفي بعض الأحيان، أحلم بك.

هذه الليلة، على سبيل المثال، حلمتُ بك: وهذا سبب كتابتي إليك، لأهدم بشكلٍ معكوسٍ ذلك العهدَ الذي انتزعتُهُ منك - ولا أذكر لماذا حتّى - بألّا تكاتبني بعدُ أبدًا.

كان حلمًا جميلًا جدًّا، يا ماركو. نقيًّا. صافيًا. خسارةٌ أنّني استيقظتُ في منتصفه. أذكره جيّدًا لأنّني بعدما صحوتُ لم أتمكّن من النوم ثانيةً وبقيتُ ساعاتٍ أتأمّل فيه. كنتُ مستلقيةً على أرجوحة النوم (المضجع)، تحت ما يشبه القنطرة المكسيكيّة المزوّدة بمروحة سقف هائلة تدور ببطء، وكنتَ جالسًا على حافّة المضجع، بثيابٍ بيضاء، وتأرجحني. كنّا نلعب لعبة غريبة ونضحك بطريقةٍ يصعب عليَّ وصفها. كنتَ تتحدّاني أن ألفظ جملةً سحريّةً معيّنة وأنا أخفق فيها. كانت الجملة غريبةً جدًّا، كتبتُها حالما استيقظتُ: «في عمر الثامنة عشر علَّمني البندكتيّون الكلام، فتعلَّمتُ شيئًا مّا». أقسِم لك، كانت هذه هي الجملة. ولم أكن قادرة على ترديدها، كنت أخطئ باستمرار، وكلّما أخطأتُ أكثر ضحكنا أكثر، وكلّما ضحكنا أكثر أخطأتُ أكثر. وفي النهاية - لعلَّكَ تفهم كم ضحكنا - ما عدتَ حتّى أنت قادرًا على نطقها. ثمّ قدم والدك، إلى القنطرة المكسيكيّة، جلفًا كعادته، فطلبنا منه أيضًا أن يلفظها، فراح يحاول ويخطئ. لا يمكنني أن أخبرك كم ضحكنا نحن الاثنان، وضحك

والدك كذلك بعد قليل، لأنّه كان ما يزال يحاول ويخطئ. لم يتمكّن، لا محالة: كان يقول أحيانًا «في عمر الثامنة عشر علَّمني الفرنشسكّيون...» أو «... علَّمتُ شيئًا مّا». كانت الجملة سحريّة بحقّ وكدنا نموت من الضحك. ثمّ استيقظتُ. برويه هكذا يبدو الحلم غبيًا، لكنّي أقسِم لك أنّه لم يكن كذلك. ولم يكن بيننا أيّ إحراج البتة. ولا حتّى مع أبيك. كانت الأمور على خير ما يرام. لكنّه هكذا، حلم.

نهضتُ وأنا ما أزال تحت تأثير الحلم، وخرجتُ، ذهبتُ إلى النادي (إنّني أذهب إلى النادي!) وشهدتُ ظاهرةً عجيبة: ثلجٌ وشمس. أقسِم لك. تحت قوس النصر كانت تتساقط نُدَفٌ كبيرة الحجم، ثقيلة، ومبلّلة، إلّا أنّ السماء في البعيد كانت صافيةً ومشرقة، وكنيسة نوتردام في المدى تتلألأ تحت الشمس. ولم يكن هذا حلمًا، إنّما حقيقة. وهذه الرسالة متخبّطة جدًّا، أعرف، ولكنْ لا بأس. ما أرجوه هو ألّا تشعر بالإحراج، وألّا ترى مشاكل «حيث لا وجود لمشاكل». (يخطر في بالي الآن أنّ آخِرَ مرّة رأيتُك فيها كانت في الصالة الرياضيّة، قرنًا مضى. التجلّي المحرج). لذا من المهم أن أواصل التفكير فيك، في سيّارات الأجرة، وإن أمكن أن أحلم بك مثلما حدث هذه الليلة. بالمناسبة، أن أحلم بك هذا يعني أنّني أنام. فأنت تعلم أنّي سئمتُ من الأرق، ومن الشابّ الآخر الذي يباغت ذهني من حينٍ إلى حين. أعانقك، إن كان لا يؤسفك.

لويزا

ليلة البراءة الأخيرة (1979)

في عمر العشرين عامًا، أخذ ماركو كارّيرا ودوتشو كيلّيري يهيمان على وجهيهما في الملاهي الأجنبيّة أيضًا - في النمسا، خاصّةً، وفي يوغسلافيا - لكنّ الرحلات الطويلة بالسيّارة التي كان يخطّط لها دوتشو بدقّةٍ شديدة، بما فيها الوقفات في المواخير والمطاعم، صارت تسبّب الملل لماركو. ناهيك بأنّ تلك الساعات العشر والاثنتي عشرة التي يمضيها محبوسًا مع صديقه في قُمرة سيّارته الفيات X1 /9 باتت ورطةً ثقيلة حقًّا ولا يمكن تحمُّلها، كما أنّ ماركو كارّيرا أصبح يشعر بالحاجة إلى تنقُّلاتٍ أكثر احترافيّةً، بلا شطحات، بلا عاهرات، مكرَّسةً بالكامل لتحسين نتائج مباريات القمار. وفي الواقع، وكما قلنا سابقًا، فإنّ الصداقة التي ما زال شنيع الذكر يكنُّها له، والرغبة في المجون معًا، والبهجة في قضاء الوقت معًا، كلُّ هذه الأشياء تبدّدت عند ماركو: لم يبقَ لديه سوى المتعة من دخول الملاهي رفقة ذلك الشريك المدهش، الخبير بأنظمة الروليت، صاحب الإدراك الحسّيّ الخارق، والملهم بلعبة الكرابس، والوحش بالفطرة في البلاك جاك. لذا أخذ على عاتقه المسؤوليّة ذات يوم وقرّرَ أن يسافرا وإن لمرّة واحدة بالطائرة، على الرغم من أنّ دوتشو كيلّيري يخاف من الطيران. توجَّبَ عليه خوض أربع سهراتٍ برمّتها لتقويض عدائه من *الطيور الحديديّة*، وذلك باستخدام - وهنا قمّة البراعة - ذات البراهين العقليّة والمضادّة للخرافات التي كان يحاجُّ بها الآخرين جميعًا لدحض مخاوفهم من شنيع الذكر. وفي النهاية قوَّضَ خوفه، وعَبَرَ الاثنان في ظهيرة يومٍ شذيٍّ من شهر مايو أبوابَ مطار بيزا، بقصد قضاء نهاية أسبوع طويلة في

ملهى ليوبليانا، حيث كانا قد ذهبا في العام المنصرم بالسيّارة، وربحا الكثير. وفي الواقع كانت الرحلة ستدوم طويلًا أيضًا، لأنّ ماركو قد نبش طيرانًا اقتصاديًّا للغاية من شركة يوغسلافيّة تدعى كوبر أڤيوبروميت التي كانت لسببٍ مّا تقطع المسار بين بيزا وليوبليانا لوقفةٍ ملغزة في لارنكا (قبرص). وبفضل ذلك العبث تضاعفت مدّة الرحلة أربع مرّات، في حين تناقَصَ سعر التذكرتين، ويا للغموض، بتناسبٍ عكسيّ.

كان دوتشو كيلّيري متوتّرًا أثناء الصعود. أمدَّه ماركو بحبوبٍ مهدِّئةٍ استلبها من صيدليّة شقيقته الخاصّة، المستهلِكة الكبرى للعقاقير النفسانيّة - غير أنّ اضطراب صديقه لم يتضاءل. وما إن جلسا في مكانيهما، أخذ دوتشو يبدي دلالاتٍ على انفعاله ملاحظًا اهتراء المقاعد ومساند الرأس - الكاشف برأيه على سوء صيانة الطائرة - إلّا أنّ أشدَّ ما أثار ذعره هو رؤية الناس الذين ما زالوا يصعدون إلى المتن. قُبّح، يردِّد، شُوِّه. انظر إليهم، يردِّد، يبدو أنّهم موتى أصلًا؛ انظر إلى هذا، يردِّد، انظر إلى ذاك، كما لو أنّنا نرى صورته في الجريدة. وما انفكّ ماركو يكرّر على مسمعه بأن يهدأ، بينما كان قلق شنيع الذكر يستفحل أكثر فأكثر.

وفجأةً وقف على قدميه والناس ما زالوا يصعدون، وأخذ يصيح ويسأل إن كان هنالك أحد المشاهير على متن الطائرة، لاعب كرة، ممثّل، شخصيّة اعتباريّة - أحدٌ مّا ابتسمت الحياة في وجهه. وكان المسافرون في اجتيازهم المضني للممرّ لبلوغ مقاعدهم ينظرون إليه مشدوهين، سأله أحدهم ممّن كان متضايقًا بالضبط. منكم، أجاب دوتشو كيلّيري، لأنّكم موتى أصلًا وتريدونني أن أموت أنا أيضًا. أمسَكَ ماركو كارّيرا بكتفيه وأجبره على الجلوس مجدّدًا، وأخذ على عاتقه أن يهدّئ من روعه، برفق، وهو يعانقه، مقاومًا رائحة المطبخ الخانقة التي عشّشت في سترته، ومحاولًا في الآن نفسه

أن يطمئن الآخرين الذين حوله وقد بدأ الغيظ يعتلي وجوههم. لا مشكلة، لا مشكلة يردِّد، لا مشكلة؛ بينما كان دوتشو ينفجر قائلًا: بالتأكيد، سنموت جميعًا ولا مشكلة. وهكذا، راح يئنُّ، ووجهه في يديه، يوشك على البكاء لولا كَبحَةُ صديقه، فكفَّ عن إزعاج الآخرين وبدا أنّه سلَّمَ أمره. إلى أن صعدت الطائرةَ فرقةٌ من الكشّافة، فانقلب الوضع بغتةً. ثار دوتشو كيلّيري: كلّا! إلّا الكشّافة! إلّا الكشّافة! اعترض طريقَ أوّلهم، وكان فتى بدينًا وكثيف الشعر، ومضحكًا بشدّة بسبب تلك البزّة التي تظهره مثل قائد فصيل عسكريّ: أين تظنّون أنّكم ذاهبون، أنتم؟ تحجَّرَ الفتى البدين، ربّما حسِبَهُ أحد المشرفين فأبرز على مرآه بطاقة الصعود. لا تصدِّعوا خصيتيّ! هيّا، انزلوا! انتفض ماركو مجدّدًا ليهدّئ من روعه، لكنّ دوتشو هذه المرّة خرج عن طوره: أمسك برؤوس فرقة الكشّافة وأخذ يخضُّها - مجرمون، كان يصيح، انزلوا من هنا! - وعندما بدأ بعضهم بالردّ، وانهالت اللكمات والشتائم من كلّ جانب، أدرك ماركو كارّيرا أنّ الويك إند في ليوبليانا قد فسد. تصرَّفَ على أنّه طبيب - كان في سنته الثانية من كلّيّة الطبّ، وهذا واضحٌ عليه من بُعد ميل - وشخَّصَ حالة صديقه بأنّها نوبة صرع من الدرجة الثانية (هكذا أوحِيَ إليه) وطالب بإعادة فتح باب الطائرة لنقله إلى الأرض. لم يصدِّق أفراد الطاقم أنّهم سيتخلَّصون من هذا الممسوس، فاستعادا الحقيبة من عنبر الشحن مباشرةً هناك على المدرج (كان مطار بيزا في تلك الفترة يدار ببساطة كبيرة)، وعاد الشابّان إلى المحطّة بينما كانت الطائرة تستهلّ انسيابها على المدرج. وبالتالي، هدأ دوتشو كيلّيري فجأةً حالما هبط إلى الأرض - بل أبدى ابتهاجًا غريبًا، كما لو أنّه عائدٌ حرفيًا من عالم الأموات. أمّا ماركو كارّيرا فقد كان يستشيط غيظًا، إلّا أنّه توخّى الوقوع في فضيحةٍ خرائيّة بشعةٍ جديدة أمام الجميع، واجتهد للسيطرة على غضبه، فتقوقع في صمتٍ عبوس. عبوسٌ لكنّه صار مشؤومًا شيئًا فشيئًا، لأنّه بينما كان يقود السيّارة للعودة

إلى فلورنسا وانعتاقه من دوتشو في أقرب لحظة ممكنة، وتحت وطأة الغضب الذي يجيش في صدره، والعار، أجل، العار الذي دفعه للهرب كاللصّ مخافة أن ينتشر نبأ المهزلة إلى خارج الطائرة، وبينما كان يقود على الطريق السريع إذًا، رأى أبعاد ما حدث مثلما سيراها أيُّ أحدٍ آخَر. ما الذي حدث، على متن تلك الطائرة؟ حدَثَ أنّ صديقه دوتشو كيلّيري أصيب بنوبة هلع فقضى على نهاية أسبوعٍ كان قد خُطِّطَ لها بعناية. هذا ما حدث، برأي ماركو - هذا *فقط:* ولكن برأيِ أحدٍ آخَر يعرف دوتشو كيلّيري جيّدًا، ما الذي حدث؟ ما الأمر الخطير والهائل الذي اقترفه شنيع الذكر داخل تلك الطائرة؟

اكتفى ماركو بوضع نفسه محلَّ أيّ أحدٍ من أصدقائه ليحسّ بغصّة في المعدة ما عادت تفارقه. وفي خلال الليل أيضًا، بعد أن أنزل صديقه أمام باب بيته دون حتّى أن يودّعه، واختلق أكذوبة على والديه حول تغيير برنامج الويك إند، فألفى نفسه في السرير يتقلّب ويطيل التفكير وإعادة التفكير بالوجوه التي لا يعرف أيًّا منها فعليًّا، وجوه رفاق الرحلة أولئك المتروكين لمصيرهم على متن تلك الطائرة، المساكين، والكشّافة البلداء، ومن يدري أين ظنّوا أنّهم ذاهبون، والمضيفات السلافيّات اللواتي بالغن بالحمرة والمساحيق وقد انفرجت أساريرهنّ بسذاجةٍ على رؤية ماركو وشنيع الذكر يغادران إذ استجابت الآلهة لنجواهنَّ - في حين أنّه كان ينبغي لهنَّ، وفقًا لما تقتضيه نظريّة عين الإعصار، أن يصنعوا من أجسادهم طوقًا بشريًّا لمنعه من النزول...

بينما كان ماركو كارّيرا يؤرّق نفسه بهذا الشكل، يزرب عرقًا بين الأغطية، عاجزًا عن النعاس، وعاجزًا أكثر عن التمتّع بأريج الياسمين النجميّ المتغلغل من النافذة المواربة، كانت الكارثة تقع في عُرض البحر من الساحل الشماليّ لجزيرة قبرص، لكنّه لم يكن على درايةٍ بها بعد: الطائرة DC-9-30

من شركة كوبر أڤيوبروميت، المرتقبة بلا جدوى على مدرج مطار لارنكا، ابتلعها بحر ڤيليقية؛ والأشخاص الذين فكّر بهم ماركو بذلك المزيج من الشفقة والقلق، كلُّهم ماتوا؛ وذكرى *الفتوى*[1] التي أطلقها عليهم شنيعُ الذكر قد امَّحت إلى الأبد جرّاء تداعياتها نفسها، وبقي هو الوحيد على وجه الأرض الذي يعرف عنها شيئًا.

وبما أنّه لم يكن بعدُ على علمٍ بهذه الأمور، غفا ماركو كارّيرا في النهاية – متأخّرًا، منشغل البال، لكنّه غفا – وفي حياةٍ غنيّةٍ بليالٍ أخيرةٍ كثيرةٍ أخرى، ستكون تلك بالنسبة إليه ليلة البراءة الأخيرة.

---

(1) بالعربيّة في النصّ الإيطاليّ. (المترجم).

أورانيا (2008)

إلى: جاكومو - jackcarr62@yahoo.com

بريد مرسَل - Gmail - 17 *أكتوبر* 2008، 23:39

الموضوع: روايات أورانيا

من: ماركو كارّيرا

جاكومو العزيز،

أودّ اليوم أن أحدِّثك عن المجموعة الكاملة (تقريبًا) لروايات أورانيا التي اقتناها أبي. لهذه المجموعة أيضًا، على الرغم من عدم اكتمالها، قيمةٌ تجاريّة، إذا أخذنا بعين الاعتبار العناية التي لطالما أولاها والدنا للحفاظ على هذه الكتب، وتغليفها بالمناديل الشفّافة التي صانها بها كتابًا كتابًا، والنتيجة حالةُ حفظٍ مدهشة رغم مضيّ خمسين أو ستّين عامًا: لكن ليس في هذا أردتُ أن أحدِّثك. من وجهة نظري للأمور، يجب أن تصبح هذه الكتب لك، للأسباب التي سأطلعك عليها، وبما أنّ الحيِّز الذي تشغله محدود فسأحفظها عندي من أجلك، لكنّي لن أبيعها مهما كانت الذرائع.

إذًا. المجموعة. تبدأ من العدد 1 *وحتّى العدد* 899*، أي من العام* 1952 *لغاية العام* 1981*، ولا ينقصها إلّا ستّ مجلّدات. ها هي، مع الأسباب:*

عدد 20، «حصاةٌ في السماء»، لإسحاق أزيموف، الصادر في 20 يوليو 1953.

غريبٌ - ألا ترى؟ - أنّه بعد تسعة عشر عددًا اشتراها والدنا بانتظام، وهو في السابعة والعشرين من عمره، متخرِّجٌ للتّو، يغفل عن هذا العدد بالضبط، واحدٌ من أجمل الكتب، يبدو، التي ألّفها كاتبه المفضّل. وبالفعل كان قد اشتراه، لأنّه موجودٌ على رفّ مكتبته حيث لطالما احتفظ بأعداد أورانيا (سمّاها براكي في الجرد الذي أجراه الشهر الماضي، والذي أرسلته إليك، «مكتبة مركّبة سرجستو»، ولا شكّ أنّك تذكرها، إذ كان لديك مكتبة طبق الأصل عنها في غرفتك، وما تزال هناك فعليًّا، مليئة بالقصص المصوَّرة كسلسلة تيكس وغيرها التي كنتَ تقرأها) على الرفّ، كنت أقول، بين المجلّد السابق، العدد 19، «توطئة للفضاء»، لآرثر سي كلارك، والمجلّد اللاحق، العدد 21، «رهابٌ في العالم»، لجيمي غويو، ثمّة بطاقةٌ صغيرة كُتِبَ عليها: «مُعارٌ إلى أ.»، بتاريخ «19 أبريل 1970». تتّفق معي أنّ أ. هو صديقه ألدو مانسوتي بالتأكيد، لا بل «ألدينو»، كما كان يلقّبه والدنا، وقد توفِّي إثر حادثٍ رهيب على درّاجة ناريّة تحدَّثنا فيه طويلًا في البيت، وجعل أبوينا أكثر عُندًا من أن يشتريا لنا درّاجة. أذكر جيّدًا حين ذهبنا جميعًا إلى جنّاز ألدو ذاك، كنتُ في المرحلة المتوسّطة بلا شكّ، ربّما في الصفّ الأوّل، أو بداية الثاني - فلا بدّ أنّه العام 1970 بالضبط. لذا على الأرجح أنّ هذا ما حدث: والدنا أعار الكتاب لألدينو، ووضع البطاقة في مكان الكتاب على الرفّ ليتذكّره، لأنّه كان متعلّقًا كثيرًا بمجموعته، لكنّ ألدينو توفّي بعد فترة قريبة فلم يفكّر والدنا بالطبع أن يسترجع الكتاب من أرملته - تيتي، هل تذكرها، تيتي مانسوتي، التقيتُها منذ بضعة أيّام، وقد باتت في أرذل العمر، التقيتُها بخصوص موضوعٍ سأحدِّثك فيه لاحقًا. خاصّةً أنّه في تلك الآونة،

أي في 1970، لم تكن المجموعة كاملةً أصلًا، إذ تنقصها خمسة أعداد أخرى، وهي: 203، 204، 449، 450، 451. ابق معي يا جاكومو، لا تكفّ عن القراءة. فلنحاول أن نفهم لماذا هذه المجلّدات الخمسة ناقصة.

العدد 203، «المدّ ينحسر»، لتشارلز إريك مين، الصادر في 10 مايو 1959، والعدد 204، «البشريّة الهاربة»، لغوردون ر. ديكسون، الصادر في 24 مايو 1959.

لا يوجد أيّ بطاقة في محلّ هذين العددين، دليلٌ على أنّه لم يعرهما، بل لم يشترهما هذه المرّة أساسًا. وبعد تأمّلٍ قصيرٍ حول التواريخ، فهمتُ السبب: السقطة الشهيرة لإرينه عن كرسيّ الأطفال. هل تذكر؟ قصّوها علينا مئة مرّة: إرينه تسقط عن الكرسيّ في المطبخ في بيت ساحة دالماسيا وتشجّ رأسها وتدخل في غيبوبة يومين في مستشفى ماير، ووالدتنا تُقسِم أنّها ستنقطع عن التدخين إذا نجت ابنتها، وإرينه تنجو، ووالدتنا لا تنقطع عن التدخين، وإرينه تتماثل للشفاء كلّيًا لكنّها في وقتٍ لاحق تحدِّد تلك السقطة سببًا لكلّ اضطراباتها اللاحقة... حسنًا، نحن الاثنان لم نكن قد وُلِدنا بعد، لكن علينا أن نعترف أنّ أكثر حدثٍ مأساويّ وقع في عائلتنا، حتّى موتها على الأقلّ، يتمثّل في سقطة إرينه تلك عن كرسيّ الأطفال. مأساويٌّ بحيث إنّها- إليك السبب - منعت والدنا مرّتين اثنتين، أي لمدّة 28 يومًا، من شراء رواية من سلسلة أورانيا المفضّلة لديه. والآن لا يوجد مَن يؤكّد لنا أيّ فترةٍ من العام تلك لكنّك إذا تذكر، ما يجعل هذه القصّة أكثر مأساويّةً أنّ والدتنا كانت حبلى بي (ومأساويٌّ، إن أردنا أيضًا، أنّ والدتنا لم تتمكّن يومًا من الانقطاع عن التدخين على الرغم من كونها في وضعٍ حرج).

أنا، في رأسي، لطالما تخيّلتُها ببطنٍ كبير، منهمكةً بتلك الطفلة التي سقطت

وأغمي عليها فرافقتْها بسيّارة الإسعاف، ثمّ بجوار سريرها في المستشفى، ولكنْ في الواقع يكفي أن نفترض أنّها كانت في شهرها الثاني لا أكثر، فتصبح الصورة منطقيّة. لقد وُلِدتُ في 2 ديسمبر، صحيح؟ ما يعني أنّها حبلت بي في مطلع مارس. العددان الناقصان عائدان لشهر مايو، أي حوالي شهرها الثاني أو الثالث حكمًا. لم يكن بطنها كبيرًا إذًا، لكنّنا شرحنا لماذا غفل والدنا عن هذين الإصدارين: إرينه كانت في الإنعاش، إرينه كانت في العناية المشدّدة، إرينه عادت إلى البيت من المستشفى للتوّ. ثمّ بعد شهر، عندما تجاوزت الخطر، استأنف والدي شراء الروايات بانتظام (العدد 205، «الكوكب المسجّى»، لروبرت راندال، 7 يونيو 1959)، ومضى قُدمًا لأكثر من سبعة أعوام من دون أن يضيّع أيّ عدد، إلى أن وصلنا إلى ثلاثة أعداد ناقصة، وهي:

العدد 499، «الإبادات الجماعيّة»، لتوماس م. ديش، الصادر في 20 نوفمبر 1966؛ العدد «هناك حربٌ دومًا»، لمجموعة من الكُتّاب (والتر ف. مودي، بول أندرسن، روبرت اي مارغروف، بيرس أنتوني، أندرو ج. أوفوت) الصادر في 4 نوفمبر 1966؛ والعدد 451 «قدرة الإله»، لماك رينولدز، الصادر في 18 ديسمبر 1966.

السبب بديهيٌّ هنا: الفيضان، والدنا يتحرّك على متن القوارب المطاطيّة التابعة للبلديّة لإنقاذ الحيوانات في السهل المغمور، ثمّ يتّجه إلى المكتبة الوطنيّة لإنقاذ الكتب مع مجموعات «ملائكة الطين». قد تتساءل: كيف يُعقَل أنّه لم يستطع شراء هذه الأعداد الثلاثة، في حين اشترى العدد 488، «النّغف»، لجون ويندهام، الصادر في 6 نوفمبر 1966، عندما كان الفيضان ما يزال ماثلًا وكانت فلورنسا تحت الماء حرفيًّا؟ وهنا، يا جاكومو العزيز، لكي أشرح لك هذا، علينا أن ننتقل إلى السبب الذي أرى بموجبه أنّه ينبغي

لك أنت الحصول على هذه المجموعة. إنّه شيءٌ اكتشفتُه عن طريق الصدفة المحض، وهذا بالضبط ما يجعلها ثمينة. إذًا. جرت الأمور كالتالي. بينما كنتُ هناك أسبر عناوين السلسلة، المرتَّبة جيّدًا على رفّ مكتبة سرجستو إلخ، وقعت عيني على عنوان ومؤلِّف أعرفه: «مشاة الفضاء» لروبرت أنسون هاينلاين. هاينلاين هو واحدٌ من أدباء الخيال العلميّ القلّة الذين قرأتُ لهم، وبدا لي ذلك العنوان مألوفًا بسبب فيلمٍ شاهدتُه. لذا أخذتُ الكتاب، وفتحتُه لأتحقّق، وبالفعل كان العنوان الأصليّ «Starship Troops»، الذي استُوحِيَ منه فيلمٌ رديء في أواخر التسعينات، والذي كان في نسخته الإيطاليّة يسمّى «مشاة الفضاء». ولكنْ، وهنا المهمّ، بعد أن رأيتُ هذا رأيتُ أيضًا، في الصفحة السابقة، أي في الأولى، ما اسمها، تلك التي تأتي بعد الغلاف مباشرةً، حيث يُكرَّرُ اسم الكاتب وعنوان الرواية والناشر، ما اسمها؟ حيث الكُتَّاب يضعون الإهداء، ما اسمها؟ صفحة العنوان؟ دعني أتأكّد. فعلتُها: أجل، تسمَّى صفحة العنوان، «الصفحة الأولى من الكتاب»، يقول ويكيبيديا، «أو بالأحرى تلك الصفحة التي يراها القارئ بعد فتح الغلاف». إنّها هي. كنتُ أقول، رأيتُ في صفحة العنوان كتابةً بالقلم الرصاص، بخطّ والدنا. أسطرٌ قليلة، أنقلها لك كاملةً: «صباح الخير سيّداتي سادتي، أقدِّم لكم صديقي الجديد... أو لا، صديقتي... الآنسة جوفانّا... أو ربّما لا، السيّد جاكومو... مَن يدري... ها نحن أولاء، ها نحن أولاء، انتباه... الممرّضة تأتي... ليس واضحًا بعد... ها هي تنحني... سيّداتي سادتي، لقد وصل جاكومو!»

أليس رائعًا؟ أمّنا أنجبتك للتوّ وهو كان هناك، شابًّا، متأثّرًا، منعزلًا، دون حتّى أن يعرف ما إذا كنتَ ذكرًا أم أنثى، في ممرّ أحد المستشفيات يدخِّن سجائر موراتي ويلهو على صفحة عنوان إحدى روايات سلسلة أورانيا. شتّان ما بينه وبيننا، نحن الذين حضرنا ولادة أبنائنا ملفوفين بالمئزر الأخضر، ونعرف

جنسهم منذ أشهر، ونشدّ على أيدي زوجاتنا...

لهذا السبب برأيي ينبغي لك أنت أن تحافظ على هذه السلسلة، في بيتك في شابيل هيل الذي لم أره إلّا من الأعلى عبْر غوغل إيرث.

والآن، نصل أيضًا إلى تفسير السبب لذلك المجلّد الصادر في 6 نوفمبر 1966: بعد أن فككتُ شيفرة كتابة أبي على صفحة العنوان، أغلقتُ الكتاب وبقيتُ هناك بعض الوقت، متأثّرا، ساهيًا (هل تذكر هذه الكلمة؟ هل تذكر مَن كان يستخدمها دومًا)؛ ثمّ تمالكتُ نفسي، أغلقتُ الكتاب ووقعت عيني على المربّع الأحمر الصغير في أسفل الجهة اليسرى من الغلاف، حيث يُحدَّد السعر (150 ليرة)، رقم المجلّد (276) والتاريخ: 25 فبراير 1962. يصادف أنّك ولدتَ في 12 فبراير، فكيف استطاع والدنا أن يحصل على كتابٍ قبل إصداره بثلاثة عشر يومًا؟ وهكذا، بعد لحظةٍ من التيه، لمع الجواب في رأسي. تذكّرتُ أنّني عندما كنتُ ألعب التنس كنتُ مشتركًا بالماتش بوول، مجلّة نصف شهريّة، وكان الكرّاس يصلني إلى البيت دائمًا قبل الموعد المحدَّد على الغلاف بأيّامٍ كثيرة، الأمر الذي بقيتُ مدّةً طويلةً أخاله امتيازًا لي، لأنّي مشترك، شيءٌ يشبه العرض الأوّل، إلى أن اكتشفتُ ذات يوم بخيبةِ أمل تقريبًا أنّ كرّاسات الماتش بوول كانت تباع في الأكشاك أيضًا قبل أيّام كثيرة من الموعد المحدَّد على الغلاف. ومنذ أن انتبهتُ إلى ذلك، لاحظتُ أنّ الأمر نفسه يتكرّر مع كثيرٍ من المجلّات الأسبوعيّة التي تدخل منزلنا، بانوراما، إسبريسو، بل وحتّى لا سيتيمانا إنيغماستيكا. لا بدّ أنّه تنبيهٌ نفسيٌّ لتوليد انطباعٍ بالجديد، وتجنيب القارئ فكرة أنّه يطالع محتويات تجاوزها الزمن، إذا وقعت بين يديه صحيفة بتاريخ أربعة، أو خمسة، أو ستّة أيّام مضت. وحتّى لو لم يكن للأمر أهمّيّة، لا بدّ أن دار نشر موندادوري أيضًا لجأت إلى هذا التنبيه بما يخصّ سلسلة أورانيا، فمن الوارد جدًّا إذًا أنّ التاريخ المحدّد على الغلاف

يوافق آخِرَ الأيّام الأربعة عشرة التي كان فيها المجلّد في الأكشاك. ما يعني أنّ الرواية التي أخذها والدنا معه إلى المستشفى، في 12 فبراير 1962، ليرافق والدتنا بمخاضها (تحقّقتُ من الكمبيوتر، كان يوم اثنين)، قد صدرت للتوّ، طازجةً طازجة، بتاريخ ما بعد ثلاثة عشر يومًا؛ أو ربّما اشتراها من كشك المستشفى، بعد أن دخلت هي قسم التوليد.

ولهذا السبب كان والدنا قد حصل على المجلّد المؤرَّخ 6 نوفمبر 1966 مع أنّه في ذلك اليوم كان على القارب المطّاطيّ التابع لرجال الإطفاء منذ ثماني وأربعين ساعة لإنقاذ الحيوانات الهائمة على الحشائش العائمة: لأنّه صدر قبل ثلاثة عشر يومًا.

وبعد تلك الأعداد الثلاثة الناقصة من العام 1966، لم يعد والدنا يفوِّت أيًّا منها طيلة - مدهش - خمسة عشر عامًا، لأنّ مجموعته منذ العدد 452 («كتاب المباحث السرّيّة»، تشكيلة قصص لأزيموف، توكر، فان فوخت، مارتينو وفيليب ك. دك)، تنساب باسترسال حتّى العدد 899 «بوليس العام 2000» لماك رينولدز. أربعمئة وسبعة وأربعون عددًا متتاليًا اشتراها ثمّ غلّفها بالمناديل الشفّافة ثمّ قرأها ثمّ صفّها بالترتيب على الرفّ بينما كان سعر تلك الكتب يرتفع من 200 إلى 1500 ليرة، وكانت أحداثٌ من كلّ نوع تقع في العالم، وفي إيطاليا، وفي فلورنسا، وفي عائلتنا.

تركتُ المجلّد الأخير من مجموعته حتّى النهاية لأنّه يرمز للختام أيضًا. إنّه أمامي في هذه اللحظة: الغلاف الأبيض بالخطّ الأحمر، والرسمة في دائرة (شابٌّ وشابّة واقفان في منتزه يحدّثان عجوزًا جالسًا على مقعد، ثلاثتهم عراة، فضلًا عن أشخاصٍ عراة بين الأشجار في البعيد)، العنوان: «بوليس العام 2000»، الكاتب ماك رينولدز، والتاريخ أخيرًا: 23 أغسطس 1981.

لكنّ 23 أغسطس 1981 هو يوم نهاية العالم. ومع هذا، كما رأينا، صدر

ذلك العدد قبل ثلاثة عشر يومًا، أي يوم 10، عندما كانت نهاية العالم لا تزال غير متوقّعة، ولا شكّ أنّ والدنا اشتراه قبل عطلة منتصف أغسطس من كشك كاستانييتو حيث كان يشتري الجرائد، ولا شكّ أيضًا أنّه قرأه في غضون يومين، مثلما يفعل عادةً، على الشاطئ قليلًا وعلى السرير قليلًا، مستلقيًا على جانبه الأيمن، نحو الخزانة الصغيرة، موليًا ظهره لأمّنا، نظرًا إلى أنّهما في بولغيري، خلال أغسطس، عندما نكون هناك جميعًا، ولضيق المجال ما كان بوسعهما النوم منفصلين. كان العدد التالي سيتوافر في الأكشاك منذ الاثنين 24 أغسطس (ليس في كاستانييتو ربّما، ربّما كان سيصل إلى كاستانييتو الثلاثاء أو الأربعاء)، لكنّ هذا، كباقي ما تبقّى، فقَدَ كلَّ أهمّيّةٍ بالنسبة إليه بغتةً. وهذه المرّة، إلى الأبد. لذا فإنّ العدد 899، «بوليس العام 2000»، هو الكتاب الأخير من سلسلة أورانيا الذي اشتراه والدنا وقرأه - الأخير من مجموعته الكاملة (تقريبًا)، من العدد 1 وحتّى 899. الأخير من حياته.

أتّفق معك يا جاكومو، لقد ألقيتُ اللوم عليك، وكان إلقاء اللوم عليك مريعًا. ولكنْ اللعنة، لقد مرّت ثلاثون عامًا. أطلب منك المعذرة لأنّني ألقيتُ اللوم عليك، أطلب منك المعذرة لأنّني أسهمتُ في جعل الحياة ضمن عائلتنا لا تطاق لأيّامٍ طويلة كانت، على الرغم من أنّها تراكمت واحدًا فوق الآخر، كانت كلّها قريبةً جدًّا من ذلك اليوم اللعين. ولكن مرّت ثلاثون عامًا. كنّا فتية، والآن أصبحنا كبارًا. لا يمكننا أن نصبح أغرابًا حتّى لو أردنا. يتشاجر الإخوة في العادة على الورثة، عندما يتوفّى الآباء: سيكون جميلًا لو أنّنا نقلبها ومن أجل الورثة نتصالح. أكثر من ذلك: سيكون صلحنا نمطيًّا في عائلتنا، التي كلُّ ما فيها يشتغل بالمقلوب.

أجبني.

ماركو

Gospodinèèèè! (1974)

كان يوم أحد، كان صباحًا باكرًا، وكانت ساحة سافونارولا قد اختفت. الأشجار اختفت؛ السماء اختفت؛ السيّارات اختفت. لم يعد هناك شيء. مثلما حدث في الفيلم الذي شاهده خلال أعياد الميلاد مع أمّه، عندما يهبط الضباب ويتوه الجدُّ أمام بيته، فهبط الضباب وتاه ماركو كارّيرا أمام بيته. الضباب في فلورنسا ظاهرةٌ نادرةٌ جدًّا - لاسيّما ذلك الضباب - نادرةٌ جدًّا. استطاع بالكاد رؤية قدميه.

كان يوم أحد، كان صباحًا باكرًا، وكان يومًا سخيفًا. مُنِعَ التنقُّل - Austerity/ تقشُّف، سُمِّيَ القرار - وهذا بحدّ ذاته مهزلة: عامٌ كاملٌ من إنهاك والديه، ومن التفاهم مع أخته وأخيه، ومن نيل العلامات الجيّدة في المدرسة، ومن إبداء الرزانة والبصيرة والتسامح، وذلك لإقناعهما بأن يشتريا له درّاجة الڤسپا، وما إن يلوح النصر، في يوم ميلاده نفسه، يدخل قانون الطوارئ هذا حيّز التنفيذ فيمنعه من استخدام الدرّاجة الناريّة في يوم العطلة. وليس هذا فحسب. كانت مسبِّبات ذلك القانون عبثيّة: أصبح النفط موردًا ينبغي تقنينه - هكذا، بووم، فجأة؟ - فأصبح البنزين كذلك أيضًا. بالنسبة إلى ماركو كارّيرا، نشرة الأخبار المتلفزة تتفوّه بالهراء. كان على قناعة من أنّ النفط إذا أصبح موردًا نادرًا لدرجة تقنينه فينبغي المرور بفترةٍ انتقاليّةٍ يتهيّأ فيها الناس لاستيعاب الأمر. في حين أنّ الأحداث جاءت على حين غفلة: حربٌ خاطفة، قرارٌ من بلدان منظمّة الأوبك بتقييد صادرات النفط، وعليه يجب قطع التيّار. في غضون شهرٍ واحد: تنطفئ إنارة الشوارع ليلًا، تتقلّص

مدّة البرامج التلفزيونيّة، يُمنَع استخدام التدفئة المنزليّة وتُحظَر وسائل النقل من التجوّل في يوم الأحد – بما فيها الفسپا. ولكنْ كيف: هل من السهل إذلال حضارته إلى هذا الحدّ؟ ومتى، في اليوم الذي يتمّ فيه أعوامه الأربعة عشر، ليطلّ على سنّ البلوغ؟ تحديدًا عندما توقَّفَ عن مسابقات التزلُّج لأنّه كان يريد مزيدًا من الوقت ليستمتع بها، بالفسپا، يوم الأحد، في الشتاء أيضًا، دون الحاجة إلى الذهاب إلى بلديّة أبيتوني في كلّ نهايات الأسبوع، طوال الشتاء وطوال الربيع، تدريباتٌ وسباقات، تدريباتٌ وسباقات، وكلُّ ذلك لكي يرى في النهاية أبناء الأبيتون يتزلّجون أسرع منه ضِعفين، ما باليد حيلة، وثلاثة أضعاف؟

لا درّاجة إذًا. سيرٌ على القدمين. وفي ذلك اليوم، علاوة على ما سبق: ضباب.

كان يوم أحد، كان صباحًا باكرًا. لم يكد ماركو كارّيرا يمشي خطوتين فإذا هو يرتبك، على بُعد أمتار قليلة من بيته، لأنّه لم يعد يعرف أين يتوجّه. أين هو؟ على الرصيف أم في وسط الطريق؟ وبيته على اليمين أم الشِمال؟ في الأمام أم في الخلف؟ لا صوت لأيّ سيّارةٍ يسترشد به.

كان لديه موعد في الثامنة والنصف في المحطّة – حيث سيستقلّ القطار إلى لوكّا مع ڤيردي وبيليجيرو والتوءم سوليما، رفقة المعلّم والمشرف المرافق، للمشاركة في المباراة النهائيّة للبطولة التوسكانيّة الأولى المقامة في الصالة، من فئة الأشبال. (وهذا سببٌ مقنعٌ آخَر للتوقّف عن التزلُّج: بدءًا بذلك العام، وبفضل انتشار الهياكل المطّاطيّة، كان هناك دوريّات في الشتاء أيضًا، ومن الأفضل بكثير بالنسبة إلى ماركو كارّيرا أن يركِّز على التنس طيلة السنة بدلًا من أن يقسِّم وقته ما بين التنس والتزلُّج. وعلى الرغم من عدم نموّ قامته، بالفعل، كان يصبح أقوى في التنس، وأكثر دقّة وهجوميّةً دومًا – الأمر الذي

سمح له بإحراز نتائج مدهشة في الفترة الأخيرة، إضافةً إلى نزوع خصومه إلى الاستهانة به بسبب قصر قامته. أمّا في التزلُّج فليس هناك حربٌ نفسيّة، ولا استراتيجيّة، ولا وجود لاشتباكٍ مع الخصم: إنّما هناك قوّة ارتكاز، وقامته ذات المتر وخمسين سنتمترًا، وبالأخصّ وزنه ذو الأربعة والأربعين كيلوغرامًا، وهؤلاء معاقون لا يستطيع مبارزتهم).

كان يوم أحد، كان صباحًا باكرًا، والإنارة في الساحة مطفأة بسبب التقشُّف. لم يكن يحيط بماركو سوى الضباب حقًّا. ليس عليه إلّا أن يصل إلى الموقف في شارع جاكوميني ليستقلّ الباص (التنقُّل مسموح للحافلات العموميّة على الأقلّ) الذي سيأخذه إلى محطّة سانتا ماريّا نوفيلا: لكنّ هذا الأمر بات في غاية الصعوبة فجأة. فأين هو شارع جاكوميني فعليًّا؟ كان على الطرف الآخر من الساحة، بالنسبة إلى بيته، بموازاة كنيسة سان فرنشسكو، ولكنْ - ها نحن عدنا إلى البداية: أين بيته؟ أين الساحة؟ أين الكنيسة؟

كان الحادث مباغتًا ومروِّعًا، مثل كلّ الحوادث. فقبل برهة كان ماركو كارّيرا تائهًا في تلك الغيمة، لا وجود لشيء من حوله، لا صوت، لا نقطة علام، وبعد برهة وقع ما وقع: الدويّ، الاصطدام، زمير البوق الذي ظلَّ عالقًا، بل وحتّى أولى الصرخات البشريّة: بدا الكلُّ آتيًا معًا، بلا تسلسلٍ زمنيّ. وفي المحصّلة، حيثما لا وجود للمكان لا وجود للزمان، قالها العمّ ألبرت بوضوح.

كانت أولى الصرخات البشريّة عبارةً عن كلمة واحدة، لم تُسمَع من قبل.

- غوسپودينيپي!

كلمة واحدة، لم تُسمَع من قبل، أُطلِقَت في الضباب كأعيرة الاستغاثة. كما لو أنّها تقول (له، لماركو كارّيرا، إذ لا أحد غيره هناك): «النجدة! نحن هنا! الحادث وقع هنا!»

ولكن، هنا أين؟

- غوسپودينيبي!

نحو تلك الصرخة اتّجه ماركو إذًا. حين حرَّكَ خطواته الأولى، بدا له أنّ الزمن أيضًا يستعيد جريانه: زمير البوق الذي ظلَّ عالقًا كفَّ عن النهيق. سمع صلصلة حديد. وكلمات غير مفهومة أخرى يلفظها صوتٌ ذكريّ - بينما ذاك الصوت الذي ما زال يصيح غوسپودينيبي، أجل، كان أنثويًّا.

وفجأةً، ظهرت امرأةٌ من حائط الضباب الأبيض، وبدت قريبةً بشكلٍ مخيف. غجريّة. كان وجهها نازفًا، ومشوّهًا من الصرخة التي ما زالت تصدرها: غوسپودينيبي! وبدت غمغمة الصوت الذكريّ قريبةً جدًّا هي الأخرى، حينها، لكنَّ الرجل الذي يصدرها ما يزال خفيًّا. ظهر رجلٌ أيضًا - غجريٌّ عجوز، والدماء تقطر من جبينه إلى عنقه - لكنّه ليس هو صاحب الصوت. وها هي سيّارة الفورد تاونيوس، بجانبه، أبوابها مفتوحة وهناك نفثة دخان تنبعث من صندوقها الأماميّ. وما زال ماركو يتقدّم في كوب الحليب الهائل ذاك، ليس لديه فكرة عمّا ينبغي فعله، ليس لديه فكرة عمّا يبحث. عن السيّارة الأخرى، ربّما؟ هل كان يبحث عن السيّارة الأخرى؟ هل راوده حدسٌ مّا؟ هل عرف السيّارة من زمير بوقها؟

- غوسپودينيبي!

ها هي السيّارة الأخرى. مصطدمة بعمود إنارة، لم يعد لمقدّمتها وجود عمليًّا. بيجو 504، تبدو - كسيّارة أبيه. لونها رماديٌّ ممعدن، يبدو - كسيّارة أبيه. غجريٌّ آخر، أجل، أصغر من الأوّل، غير مصابٍ بأذى ظاهريًّا، فتح الباب، وأثناء غمغمته كان يُخرِجُ شخصًا من السيّارة، أجل. شخصٌ فاقد الحواسّ، أجل، أو ميت.

فتاة، تبدو.

شقيقته إرينه، تبدو.

- غوسپودينييي!

بابا، هلّا أعرتَني السيّارة؟ كلّا يا إرينه، لا تعودي لهذا. ولكن عليَّ الذهاب إلى الأبيتون، عليَّ الذهاب إلى بولغيري، عليَّ الذهاب إلى حفلة في إمبرونيتا، فكيف أفعل؟ فليوصلكِ أحدهم. لكنّي وحيدة، لا يمكن لأحدٍ أن يوصلني. لم تحصلي على الرخصة بعد يا إرينه. ولكن لديّ شهادة مدرسة القيادة. بهذه الشهادة لا يمكنكِ القيادة بلا مرافقٍ بجانبكِ. لكنَّ صديقاتي كلَّهنَّ يفعلن ذلك. أمّا أنتِ فلا. هيّا يا أبتِ، سأبقى حذرة، أقسِمُ لك. كلّا. هل أنت خائف من أنّهم سيوقفونني؟ أجل. لن يوقفوني! قلتُ لكِ كلّا. سآخذها بكلّ الأحوال. إيّاكِ أن تغامري...

كم مرّةً سمع ماركو هذه اللازمة المتكرّرة، في الأسابيع الأخيرة. وكم شجَّعها، في تلك المناقشة المحتدمة وسابقاتها بين أبيه وأخته، شجَّعَ أخته الذكيّة إلى أبعد الحدود والمعذّبة إلى أبعد الحدود - نجمته القطبيّة، قدوته في الحياة وعنفوان الشباب، المهمومة دومًا بذلك الاضطراب، وذلك الغضب، وذلك الاندفاع، وذلك العرق السماويّ النافر من على صدغها والذي يجعلها مختلفة، نبيلة، متمرّدة، متفوّقة. والآن ها هي هناك، على الأرض، أمامه، حيث ألقاها الغجريّ الشابّ وحاول إنعاشها أيضًا، مخالفًا أبسط إجراءات الإسعاف السريع - الذي لم يكن أحدٌ من بينهم على علمٍ به - لكنّه كان حسن النيّة بلا شكّ: شاحبة، بلا جروحٍ ظاهرة، فاقدةً وعيها. إرينه. هل كانت ميتة؟

- غوسپودينييي!

لا، لم تكن ميتة، بل لم تتأذَّ حتّى، إنّما أغمي عليها، وكان ماركو كارّيرا سيدرك الأمر في دقيقة. إلّا أنّ النظرة التي وجَّهها إليها خلال تلك الدقيقة كانت مطابقة لتلك التي سيوجّهها إلى جثّتها، بعد سبعة أعوام، في السابعة صباحًا، في مشرحة مستشفى شيشينا: نظرةٌ مشحونةٌ باليأس نفسه، والشفقة، والغضب، والعجز، والرهبة، والرقّة. النظرة التي لسببٍ غامضٍ خشي أن يتحتّم عليه أن يوجِّهها إليها، إن كان ما رووه عليه صحيحًا، بطبيعة الحال، أنّه حين لم يتجاوز الخامسة بعد، في ليلة القدّيس لورنس، في بولغيري، على الشاطئ نفسه حيث ستموت بالفعل، طلب منه الجميع - أمّه، صديقة أمّه، بنات صديقة أمّه، وإرينه ذاتها - أن يعبِّر عن أمنيته حالما يرى شهابًا رائعًا في السماء، فقال من دون حتّى أن يدرك معنى ما يقول: «أتمنّى أنّ إرينه لا تنتحر»

إرينه، أسطورته. أخته التي لم تكن تتحمّل حضوره، مثلما لم تتحمّل حضور أحد في المحصّلة، بين أفراد العائلة على الأقلّ، ولهذا السبب أصبحت وهي في الثامنة عشر عامًا مثل صليب العذاب على عاتق تلك العائلة، كي لا نتحدّث عن بذور المآسي التي لم تتوانَ عن زرعها في محيطها - سقطات، حوادث، كسور، مشاجرات، إحباطات، مخدّرات، معالَجات نفسيّة - فأزهَرَ ما يشبه التعاطف الصبور والمعمَّم تجاهها، وهو إحساسٌ لطالما رفضه ماركو، الوحيد في الدنيا حقًّا، وما انفكّ يتفهَّمها ويبرّر لها وينحاز لصفّها *ويحبّها* بصرف النظر عن كلّ شيطناتها المتضاعفة. ومن بين تلك الشيطنات، إذا أردنا صوغ تصنيفٍ لها، كانت في ذلك الصباح، وذلك الضباب، قد اقترفت للتوّ الشيطنة رقم واحد.

بعد أعوامٍ طويلة على تلك الواقعة، وبعد كلّ المِحَن الأخرى التي سبَّبتها إرينه له ولوالديها، بما فيها موتها والحال هذه، بعد أعوامٍ طويلةٍ من موت والديها، وأيضًا - يصعب قوله - بعد أعوامٍ طويلةٍ من موت - يصعب قوله

حتّى إنَّ اللسان يعجز عن لفظه - موت ابنته - ها نحن قلناها؛ بعد أعوامٍ طويلةٍ من كلّ هذا، لنا أن نقول إنّ ماركو كارّيرا، وقد بات شبه عجوز، وشبه وحيد، وشبه موشكٍ على الموت هو أيضًا، سيظلِّل الكلمات التالية في روايةٍ كان يقرأها: «يحمل في داخله ظلامًا واضطرابًا». كان يفكّر بها، بإرينه، التي لم تمت في تلك المرّة في الضباب، ولا في مناسباتٍ كثيرةٍ أخرى كان من الممكن فيها أن تموت، لكنّها ماتت في النهاية بجميع الأحوال - شابّةً، مبكرةً، حقًّا.

كان يوم أحد، كان صباحًا باكرًا. «غوسپوديني»، باللغة الصربيّة الكرواتيّة، تعني «آهٍ يا ربّاه!».

الرسالة الثانية عن الطنّان (2005)

ماركو كارّيرا

شارع ديلّي فورناتشي 117/ ب

موقع فيلّا لي سابينه

57022 *كاستانييتو كاردوتشي (ل ي)*

إيطاليا

كاستيلوريزو، 8 أغسطس 2005

تخيَّلْ لو أنّي قلتُ صيف،

وأنّي كتبتُ كلمة «طنّان»،

وأنّي وضعتُها في ظرف،

وأنّي حملتُها معي وأنا أهبط المنحدر

حتّى صندوق البريد. عندما ستفتح

الرسالة، ستتبادر إلى ذهنك

تلك الأيامُ وكم،

آهٍ وكم، أحبّك.

~~*ريموند كارفر*~~

لويزا

خيط، وساحر، وثلاثة صدوع (1992-95)

من المفترض أنَّ جميعَنا على دراية - ولكنّنا لسنا كذلك - بأنّ مصير العلاقات بين الأشخاص يُحَدَّدُ منذ البداية، مرّةً واحدةً وإلى الأبد، وأنّه إذا أردنا أن نعرف مسبقًا كيف ستنتهي الأشياء يكفي أن ننظر إلى كيف بدأت. وبالفعل، عندما تنشأ علاقةٌ مّا، يكون فيها دائمًا لحظة إنارة، ومن الممكن في خلال هذه اللحظة أن نرى العلاقة تنمو، وتتمدّد في الزمن، وتصبح ما ستصبح عليه وتنتهي كما ستنتهي: كلُّ ذلك في لحظةٍ واحدة. نرى بوضوح لأنّ كلّ شيء في واقع الحال مُتَضمَّنٌ في البداية، تمامًا مثلما يكون شكلُ الشيء مُتَضمَّنًا في أوّل ظهورٍ له. إلّا أنّنا بصدد لحظة واحدة، بالضبط، ثمّ تتبدّد تلك الرؤية الملهمة، أو تُزال، وهذا فقط ما يفسِّر أنّ القصص بين الناس تولِّد مفاجآتٍ، وأضرارًا، وفرحًا أو ألمًا غير متوقّع. كنّا نعرف ذلك، عبْر لحظةٍ وجيزةٍ وجليّة، أو لقد عرفناه، منذ البداية، لكنّنا فقدناه طوال ما تبقّى من حياتنا. مثلما حين ننهض عن السرير، في الليل، ونجد أنّنا نتلمّس وجهتنا في ظلام الغرفة للذهاب إلى الحمّام، ونشعر أنّنا تائهون، فنشعل الضوء لنصف ثانية، ثمّ نطفئه على الفور، لتكشف لنا تلك الومضةُ الخاطفةُ الطريقَ، لما يَلزَمُنا من وقتٍ للذهاب للتبوُّل والعودة إلى السرير. في المرّة القادمة سنشعر أنّنا تائهون من جديد.

عندما ظهرت أولى أعراض الاضطراب الحسّيّ على ابنته آديلي، بعمر الثلاثة أعوام تقريبًا، حصل ماركو كارّيرا على تلك الومضة، رأى كلَّ شيء، لكنّ تلك الرؤية كانت لا تطاق - متعلِّقة بأخته إرينه - بحيث إنّه قد

أزالها، وأكمل حياته كما لو أنَّ الرؤية لم تكن. لعلَّهُ كان سيستطيع استردادها بوساطة التحليل النفسيّ، سوى أنّه ونظرًا لكونه محاصرًا بأشخاصٍ يلجؤون إلى التحليل، أضمر ماركو نفورًا لا يمكن تجاوزه تجاه التحليل النفسيّ. هذا بحسب أقواله هو على الأقلّ. أمّا المحلِّل النفسيّ، فقد يؤكّد أنّ ذلك النفور تمامًا هو الآليّة التي اعتمدها ماركو ليدافع عن إزالة الرؤية. والحال أنّ الإزالة كانت مباشرةً وعميقةً إلى حدٍّ بعيد، لدرجة أنّ تلك الرؤية لن تتجلّى بعدُ أبدًا، حتّى بعد أن آلت الأشياء إلى ما كان ينبغي أن تؤول إليه - أي مثلما عرف ماركو كارّيرا مآلها، خلال لحظةٍ واحدة، في البداية، ونسي ما عرفه طوال ما تبقّى من حياته.

ونظرًا إلى عمر الطفلة، لنا أن نقول إنَّ ظهور مرضها تصادَفَ مع بداية علاقتها بأبيها، التي كانت غامضة حتّى ذلك اليوم، وكانت الطفلة هي التي حدَّدت تلك المصادفة بنفسها، ومن الوارد أنّه كان أوّل قرارٍ مستقلّ تتّخذه في حياتها. حدث الأمر فعلًا في يوم أحد مشرق من شهر أغسطس، عندما كانا يتناولان الفطور في مطبخ المنزل في بولغيري وكانت الأمّ ما تزال راقدة في سريرها، حيث أخبرت آديلي كارّيرا أباها بأنّ لديها خيطًا موصولًا بظهرها. وعبَّرت عمّا يجول بخاطرها بوضوحٍ كبير على الرغم من صغر سنِّها: خيطٌ ينطلق من ظهرها لينتهي في أقرب حائط إليها، دائمًا. لا يراه أحد، لسببٍ مبهم، ما كان يرغمها على الالتصاق بالحائط دومًا، كي لا يتعثّر به الناس أو يتكبَّلون فيه. وفي حال لا تستطيعين الالتصاق بالحائط - سألها ماركو - ماذا تفعلين؟ فأجابته آديلي أنّها تبقى حذرة جدًّا في حالةٍ كتلك، وإذا ما مرَّ أحدهم خلف ظهرها وظلّ عالقًا، تضطرّ إلى الدوران حوله لتساعده على الإفلات - وأرته كيف تفعل ذلك. تابع ماركو طرح أسئلته عليها. هل لدى الجميع خيطٌ موصولٌ بظهورهم، أم هي حصرًا؟ هي حصرًا. ألا يبدو لها غريبًا؟ أجل، يبدو غريبًا. ما الذي يبدو لها غريبًا: أنّ لديها خيطًا أم أنَّ

الآخرين ليس لديهم خيط؟ يبدو لها غريبًا أنَّ الآخرين ليس لديهم خيط. وفي البيت - سألها - كيف تتدبَّر أمرها؟ كيف تتعاملين مع أمّكِ، معي؟ أنت لا تمرّ *أبدًا* خلف ظهري، قالت له. إذًا، هنا، في هذه اللحظة، وأمام هذا البوح المفاجئ - لم يكن يمرّ أبدًا خلف ظهر ابنته - أحسَّ ماركو كارّيرا بقشعريرة، وتشكَّلت بدايةُ علاقته بها. وكان في هذه اللحظة نفسها قد رأى، وعرف، وذُعِر، لذا تناسى بعد هذه اللحظة فورًا أنّه رأى، وعرف، وذُعِر.

وظلَّ ذلك الخيط سرَّهما طيلة الصيف. تحدَّث ماركو بشأنه فورًا مع مارينا في الحقيقة، لكنّه لم يخبر ابنته، طالما أنّها طلبت منه ألّا يبوح بالسرّ لأحد. وبذلت مارينا قصارى جهدها، خلال شهر أغسطس، كي لا تمرّ خلف ظهر ابنتها - على الشاطئ، داخل البيت، في الحديقة - من دون نتائج عظيمة، لأنّها كانت لا تتذكّر إلّا بعد فوات الأوان. وكانت في تلك المناسبات تلاحظ أنّ ابنتها تمرّ أمامها بحركةٍ معكوسة لتحلّ عقدة الخيط، بدقّةٍ وتأنٍّ، فتتأثّر. ثمّ تلاحظ أنَّ جدَّي الطفلة، اللذين ليسا على علمٍ بالأمر، يمرّان *دومًا* خلف ظهرها - كأنّهما يتقصَّدانها - فتكرِّر الصغيرة تلك الحركة المعكوسة معهما أيضًا، بالدقّة نفسها، والتأنّي نفسه، فتتأثّر. ثمّ تلاحظ العلاقة التي تفتَّحت بين الابنة وأبيها، وتقدِّرُ موهبته الفطريّة في عدم المرور أبدًا - حقًّا، من دون مبالغة - *أبدًا* خلف ظهرها، فتتأثّر. وكان ماركو يراها وهي تتأثّر، فيتأثّر. كان صيفًا مؤثّرًا لكليهما. ولم يتبادر انشغالُ البال إلى أيٍّ منهما.

تعيَّنَ على الطفلة في سبتمبر أن تباشر الذهاب إلى الروضة، فاغتنم ماركو الفرصة لإقناعها بإخبار والدتها أيضًا بشأن الخيط. فأعادت آديلي على مسمعها، في المطبخ ذاته، ما شرحتْهُ لأبيها قبل بضعة أسابيع. فتأثّرت مارينا. ثمّ طرحت هي الأخرى أسئلةً على الطفلة، لكنّها كانت مختلفةً عن أسئلة أبيها - أكثر عمليّةً، أقلّ رومانسيّةً، ولهذا السبب تلقَّتها الطفلة

بصعوبةٍ بالغة: متى انتبهت أنّ لديها خيطًا؟ ممّ كان مصنوعًا؟ هل يمكن أن ينقطع؟ ففهم ماركو ومارينا من أجوبة آديلي، المشوَّشة أيضًا، أنّ فكرة اتّصال خيطٍ بظهرها جاءتها حين شاهدت معهما مبارزات المسايفة في أولمبياد برشلونة: جوفانّا تريلّيني، الفريق النسائيّ لسيف الشيش، الخيط الموصول بخلفيّة البزّة البيضاء لينقل إلى الشاشة مدى قوّة الوخزة - ثمّ الفرحة العارمة بالميداليّات الذهبيّة، والأقنعة الروبوتيّة التي تنبثق منها فجأةً وجوهُ بنات، وضحكاتٌ، وشعرٌ طويل: أدركا أنّ كلَّ هذا أثار دهشتها. فلم يقلقا.

وقرّرا عدم إطلاع المعلّمات في روضة الأطفال على شيء، لحين وقوع حادثٍ مّا على الأقلّ. فلم يقع أيُّ حادث. كانت الروضة صغيرة، في مجالٍ ضيّقٍ من شقّة في لارغو كياريني، قرب هرم شيستيا، حيث من السهل الاحتماء بالحائط كي لا يراك أحد. وكانت مشكلات آديلي هي نفسها التي تواجه الأطفال الآخرين: الانفصال عن الأبوين، التأقلم، واكتساب العادات الجديدة. لم ينتبه أحدٌ إلى الخيط. ومن جهةٍ أخرى، حافظت آديلي على هدوئها وصبرها كلّما مرَّ أحدٌ من خلف ظهرها: صارت تقلِّد حركة الشخص الآخر لكي تحرِّره، من دون حتّى أن ينتبه، كبيرًا كان أم صغيرًا. في حين أنّ ماركو ومارينا، في البيت، كانا يلعبان بخيطها: ماركو يتظاهر أنّه يقفز فوقه، أو يتعثّر به، ومارينا تنشر الغسيل على الخيط. وطيلة ذلك العام - كان عامًا سعيدًا - لم يقلقا. بل وحتّى العام التالي جرت الأمور على ما يرام، باستثناء *حادث* واحد، عندما أخذت الروضةُ الأطفالَ لزيارة مزرعة في ماكّاريزي، ورفضت آديلي النزول من الباص. لم يكن للطفلة في العادة أيُّ مشكلة بالبقاء في الهواء الطلق، وكانت تجد حلولًا لتتدبَّرَ أمر خيطها على الدوام، لكنّها حرنت يومئذ واضطرّت إحدى المعلّمتين أن تبقى معها طوال الوقت في الباص. وعندما ذهبت أمّها لاستعادتها، بعد الظهر، وأُبلِغَت بما

وقع، استوعبت على الفور سبب ما كانت المعلّمات تسمّيه «نزوة»، لكنّها كانت مستعجلة ولم تجد من المناسب أن تحيطهنّ بموضوع الخيط. غير أنّها في السيّارة سألت آديلي إذا ما كان قرارها بعدم النزول من الباص متعلّقًا بالخيط فأجابت الطفلة نعم: هناك حيواناتٌ كثيرة في المكان، والخيط يغدو خطيرًا جدًّا إذا علقت به حيوانات. قالتها بكلّ وضوح، ورويّة، كما لو أنّها تستوحي من الحكمة، فتأثّرت مارينا بذلك. وفي المساء قصّت ما حدث على ماركو، فتأثَّرَ هو الآخَر. لعبا بالخيط معها. لم يقلقا.

انتقلا إلى بيتٍ جديد، وبعد الصيف سجّلا الطفلة في روضةٍ أخرى. ليس لأنّها أقرب، بل كانت ما وراء تور مارانتشا، في شارع تور كاربوني، ما بين آبيا وأردياتينا، في الريف عمليًّا، لكنّها كانت أحسن وأجمل، والهواء فيها نظيف، تقع في فيلّا كبيرة من أملاك الممثّلة آنّا مانياني - هذا وفقًا لرواية مارينا على الأقلّ: أمّا بالنسبة إلى ماركو فالأمر مجرّد تعقيدٍ لحياتهما ولا طائل منه (يقصد الإلحاح على وجوب التغيير، والتحسُّن، والتوسّع، والتنمية، دائمًا)، فالروضة الجديدة في آخِر الدُّنيا، والهواء فيها ملوّثٌ بكلّ الأحوال وتكاليفها باهظة. تغلَّبت رواية مارينا لا لشيءٍ سوى لأنّها تعهّدت باصطحاب الطفلة ذهابًا إيابًا - *دائمًا* - وكان هذا أوّل صدعٍ حقيقيّ بينهما، وأوّل ضررٍ سيبقى ماثلًا على سطح علاقتهما الذي ما زال سليمًا، إذ إنّ مارينا لم تكن تستطيع اصطحابها دائمًا بالطبع، لذا توجَّبَ على ماركو أيضًا أن يقوم بتلك الرحلة الممتدّة ثلاثة أرباع الساعة عالقًا في وسط الزحام الشديد لإيصال الطفلة إلى الروضة، أو لاستعادتها، ما أدّى إلى تراشق الاتّهامات: هي لأنّ ماركو يفعل أقلّ ما يتحتّم عليه ولا يساعدها بما فيه الكفاية، وهو لأنّ مارينا لم تحترم تعهُّداتها. زد على ذلك أنّ المشاكل سرعان ما تجلَّت في الروضة الجديدة. لم ترغب الطفلة في الذهاب إليها، ولطالما وجداها عند الانصراف وحيدةً، منزويةً، تبكي. فسَّرَ ماركو ذلك برهانًا على أنّه كان

مصيبًا، أنّ تغيير الروضة كان خطأ، والطفلة تعاني من اجتثاثها العبثيّ، وتشتاق إلى معلّماتها القديمات وصديقاتها القديمات إلخ، لكنّ مارينا سألتها، في حضوره، إن كانت تعاستها تلك متعلّقة بالخيط، فأجابت الصغيرة نعم، دون أن تضيف أقوالًا أخرى. ولم يسعفهما الوقت لطلب موعدٍ مع مديرة الروضة حتّى استدعتهما بنفسها. ولم يسعف الوقت مديرة الروضة للكشف عن سبب الاستدعاء حتّى صارحاها بأمر الخيط. لم تتقبّل المديرة كلامهما باستحسان. بدت مصدومةً من أنّ أمرًا بهذه الخطورة يُخفى عنها، وعندما حاول ماركو ومارينا طمأنتها، وشرحا بأنّه ليس خطيرًا إلى هذه الدرجة، مقدِّمين لها بذلك إثباتًا على حجم استخفافهما بالوضع، وبَّختهما أشدَّ توبيخ. هذا اضطراب، أعلنتْ، اضطرابٌ حسّيٌّ موصوف، من المرجَّح أن يكون ذات طبيعةٍ هوسيّةٍ هلاسيّة، ينبغي معالجته لا تمكينه. أوضحت أنّها خرّيجة علم نفس الطفل، وأنّها تعرف ما تقول، وزوَّدت الأبوين المغفّلين باسم أخصّائيٍّ يجب استشارته دون مضيعةٍ للوقت. وهكذا ظهر معالجٌ نفسانيٌّ للمرّة الأولى حتّى في حياة ابنة ماركو كارّيرا: الطبيب نوشيتّي. وكان هذا عبارةً عن الرجل - الطفل، يصعب تحديد عمره، كتفاه محدودبتان كالشيخ ونظرته متّقدة كالصبيّ، شعره رماديٌّ خفيفٌ ومتفاوت وبشرته خاليةٌ من التجاعيد بشكلٍ مذهل. ودائمًا ما تتدلّى على عنقه سلسلة النظّارة التي لم يره أحدٌ على أنفه قطّ. لم يتمكّن ماركو من العثور في طريقة تفكيره على ما يشبهه فيها، حتّى لو كان واضحًا أنّه يتعامل مع شخصٍ ذكيّ: كان يبدو أنّه عاش في عالمٍ آخر، تمامًا، وأنّه لم يقرأ إلّا الكتب التي لم يقرأها ماركو، وشاهد أفلامًا لم يشاهدها، واستمع إلى موسيقى لم يستمع إليها، والعكس بالعكس. كان من المستحيل في ظرفٍ مشابهٍ أن يعزِّز أيّ علاقةٍ معه إلّا تلك التي ينبغي تعزيزها، وهذا ما سهَّلَ الأمور. ونظرًا إلى نفوره من المعالجين النفسانيّين، اضطرّ ماركو بالتأكيد إلى بذل أقصى جهدٍ ليثق في ائتمانه على ابنته، وفي المديرة

التي أرسلتهم إلى هناك، وفي الشهادات المعلَّقة على حائط العيادة في شارع كولّي ديلّا فارنيزينا (رحلةٌ شاقةٌ أخرى بالسيّارة للوصول إليها) ولاسيّما في حدس مارينا، التي أكّدت منذ البدء على ارتياحها لهذا الرجل غريب الأطوار. لكنّ الأوضاع انفرجت بعد بذل مجهود الثقة: أخذا يصحبان آديلي إلى العيادة مرّتين في الأسبوع (مارينا دائمًا تقريبًا، وماركو إطلاقًا تقريبًا)، وأمّا الشعور الذي انقضَّ عليهما عند مديرة الروضة، بأنّهما والدان مغفَّلان ومستهتران، فقد أخذ يتبدَّد.

ومع هذا، لم تغيّر آديلي سلوكها تجاه الروضة في الشهرين الأوَّلين، وما زال اصطحابها إلى هناك كلَّ يومٍ يُعَدُّ مأساةً؛ بيد أنّها أبدت تقديرها الكبير للموعدين الأسبوعيّين مع الساحر مانفروتّو، مثلما كان مرضاه الصغار يسمّونه (وهنا أيضًا: أيُّ اسمٍ هذا؟ من أين نبشه؟)؛ وكلَّما سُئِلَت، بكلّ رقّة الدُّنيا، ما الذي تفعله مع الساحر مانفروتّو في تلك الغرفة خلال خمسين دقيقة، أجابت آديلي ببساطة: «نلعب». لم تضف شيئًا بهذا الخصوص أبدًا، ولا حدَّدت بماذا يلعبان. حتّى إذا أوشكت أعياد الميلاد، استُدعِيَ ماركو ومارينا إلى العيادة في شارع كولّي ديلّا فارنيزينا - كلاهما معًا، شدَّدَ على ذلك، من دون الطفلة. كان الطبيب نوشيتي جاهلًا كلّيًّا بنظريّتهما عن المسايفة الأولمبيّة، فأعلمهما دون أن يكشف عن المبادئ التي أسَّسَ عليها رأيه، أنّ ذلك الخيط بالنسبة إليه لا يصل الطفلة بالجدران كما كانت تقول، إنّما بوالدها: صلةٌ وثيقةٌ وحصريّةٌ تكوَّنت مع أبيها، لأنّها كانت بطبيعة الحال، وبصرف النظر عن الطريقة، تخشى أن تخسره.

ورغم فجائيّته، بدا ذلك التفسير لخيط آديلي معقولًا بما يكفي لإقناع كليهما، حتّى إنّ ماركو ومارينا وبدلًا من الاعتراض أو المطالبة بمزيدٍ من الشرح وجَّها إليه السؤال نفسه في الآن ذاته: وعليه؟ وعليه، قال الساحر مانفروتّو، من الجيّد أن تقضي آديلي وقتًا أطول مع والدها. كثيرًا من الوقت،

إن أمكن. وأضاف أنّ الحلَّ الأمثل هو أن تقضي وقتًا أطول مع أبيها أكثر ممّا قد تقضيه مع أمّها. كثيرًا من الوقت - كرَّرَ - إن أمكن. وكان ذلك ممكنًا، بالتأكيد كان ممكنًا - يُسَرُّ ماركو كثيرًا حينما يكون مع ابنته - لكنّ هذا يعني قلب الأدوار في داخل العائلة رأسًا على عقب، التي كانت أقرب إلى الطريقة القديمة، أي إنَّ حضور الأب أقلّ من حضور الأمّ في حياة الطفلة. وحتّى لو أنّنا نجزم على كلِّ شيء ما عدا أنَّ ماركو استمدّ هذا النموذج من عائلته التي ينحدر منها، فإنّه والحقّ يقال كان يناسبه جدًّا لأنّه الذَّكر: ففيه أعباءٌ شاقّة أقلّ، ووقتٌ أكثر يكرّسه لاهتماماته المتضاعفة، كما أنّ الأمور في هذا النموذج تجري على هذه الشاكلة دائمًا: مارينا هي التي تغسل الأطباق. إلّا أنّه مستعدٌّ لفعل أيّ شيء يصبّ في مصلحة الطفلة، وكيف لا.

قلبا حياتهما رأسًا على عقب إذًا. رضخ ماركو لخوض ثلاثة أرباع الساعة بالسيّارة مرّتين يوميًّا حتّى تور كاربوني - ولكن من دون مشاحنات، إذ غدت تلك المتاعب تصبّ في مصلحة الطفلة بالضبط - وراح يهب نفسه للمشاغل الاعتياديّة التي كانت موكلةً لزوجته حتّى ذلك الحين. صار يقضي في البيت وقتًا أطول، ويُجِدُّ بصرامةٍ من نشاطاته الثانويّة (تصوير، تنس، بوكر) ونشاطاته الأوّليّة أيضًا بوصفه طبيب عيون، فاعتذر عن المشاركة بمؤتمرات وعن دخول مسابقتين كذلك، لكنّه لم يشعر أنّه يعيش كلَّ هذا كتضحيةٍ واجبة، الأمر الذي فوجئ به هو نفسه، بل اكتشف أنّه أصبح أفضل حالًا من قبل. أمّا في حياة مارينا، التي انزاحت عن عاتقها تلك الأعباء، انفتحت هاويةٌ على حين غرّة، ينبغي أن نقول إنّها كانت أقلّ استعدادًا منه على مواجهة ذلك الانقلاب الجذريّ، لأنّها وللمرّة الأولى في حياتها وجدت أنّ لديها وقتًا فارغًا طويلًا، والوقت الفارغ وحشٌ كاسرٌ يفتك بالأشخاص المتقلّبين. وهذا، بالمناسبة، ما أدّى إلى الصدع الثاني بينهما، لأنّه صحيحٌ ما يقول المثل، إنّ الأيدي العاطلة تقوم بعمل الشيطان - صحيحٌ في هذه القصّة

على الأقلّ. غير أنَّ دمار علاقتهما كان ما يزال بعيدًا عن التمظهر: فما يهمّ هنا هو مآل الخيط - وقد حدث أنّ الخيط اختفى.

حدث أنّه بانتقاله من دور الوالد الذي يعود من عمله إلى البيت في الثامنة مساء، إلى دور الوالد الذي يرعى الطفلة - أي الذي يستمتع بزحمة السير عند إيصالها إلى المدرسة، والساحر مانفروتّو، والمعالج النفسانيّ إلخ، والذي يشتري لها الثياب، ويحمِّمها ويحضِّر لها الطعام - وجد ماركو نفسه يدير قراراته السلطويّة على نشاطاته أيضًا. فكان هو الذي قرَّرَ، على سبيل المثال، أن يسجِّلها في العام اللاحق بالمدرسة الابتدائيّة العموميّة المجاورة للبيت، فيتّورينو دا فلتري في الشارع الذي يحمل الاسم ذاته، في حيّ مونتي، وأُكرِهَت مارينا على تقبُّل قراره مع أنّها لم تكن موافقة (فهي مناصرة للمدرسة الخاصّة)، تمامًا مثلما أُكرِهَ ماركو في الماضي على تقبُّل الروضة التي تقع في دبر أردياتينا مع أنّه لم يكن موافقًا. الاعتناء بالطفلة يعزِّز السلطة، هذا اكتشافٌ حقيقيّ، وكان ماركو أثناء ممارسته تلك السلطة قد لمعت في رأسه فكرةٌ حاسمة، بتسجيل الطفلة في دورةٍ للمسايفة. فكَّرَ بذلك وفعل، في ظهيرة من يناير معتمة وقصيرة - حصّةُ اختبارٍ ثمّ هيّا، من دون مناقشة الموضوع مع زوجته: سجَّلها في دورة المسايفة وراح يرافقها مرّتين بالأسبوع، واضعًا مارينا أمام الأمر الواقع. ثمّ أين المشكلة؟ وحتّى لو ثَبَتَ أنّ فكرته خاطئة، ما الضرر الذي سينزل بالصغيرة إذا مارست قليلًا من النشاط الرياضيّ؟ لكنَّ فكرته لم تثبت أنّها خاطئة، بل أتت أُكُلُها، واختفى الخيط على الفور تقريبًا. وفي الواقع لا يلبس الأطفال بزّاتٍ مكهربة، وعليه فإنّ الخيط لم يختفِ لأنّ آديلي صار لديها خيطٌ بالفعل مثلما توقَّعَ ماركو؛ ولكنَّ القناع أجل، يضعه الأطفال، ومنذ الدروس الأولى وجدت آديلي نفسها تخوض في ذلك العالم المكوَّن من الأقنعة، والسيوف المرنة، بالضبط، والانقضاضات الخاطفة

وشحنات الأدرينالين التي ينحدر منها الخيط كما اتّضح في حينه. المسايفة إذًا، هي الرياضة التي لا يفقه ماركو فيها شيئًا، حلّت مشكلة الخيط الموصول بظهر ابنته، وحلَّتها بطريقةٍ صارمةٍ تُحَلُّ بها مشاكل الأطفال، إذا وُجِدَت حلولٌ لها - أي كأنّها لم تكن. كفّت آديلي عن الدوران حول الأشخاص الذي يمرّون خلف ظهرها، بين عشيّةٍ وضحاها، ومن دون أن تقول شيئًا لأحد. نقطة انتهى. وكفّت عن التحدّث بشأن الخيط في البيت. نقطة انتهى. وكفّت عن عنادها بعدم الذهاب إلى الروضة، وفي الروضة كفّت عن الانطواء على نفسها والبكاء. نقطة انتهى.

لكنَّ ماركو كارّيرا فوجئ بشدّة عندما لم يغيّر الساحر مانفروتّو حرفًا من نظريّته: بالنسبة إليه ليس للمسايفة أيُّ دور، الخيط اختفى لأنّه صار بلا فائدة جرّاء حضور الأب الراسخ في حياة الصغيرة. وحتّى مارينا التي كانت فيما مضى تصدِّق نظريّة المسايفة مثل ماركو، أعلنت أنّها من رأي الطبيب: أي إنَّ اختفاء الخيط بعد ارتياد الطفلة تلك الصالة الرياضيّة هو محض مصادفة. بكلّ حال، حُلَّت مشكلة الخيط الموصول بظهر ابنتهما في النهاية، أجل؛ حُلَّت في اللحظة المناسبة، أي قبل أن تباشر الدوام في المدرسة الابتدائيّة، حيث كان من المحتمل أن تزداد المسألة تعقيدًا؛ وهذا نجاحٌ بلا شكّ، دافعٌ للارتياح لدى الجميع، أجل - إلّا أنّ ثمنه المعنويّ، وهنا بيت القصيد، سيدفعه ماركو، طالما أنّ القضيّة أُغلِقَت على صيغةٍ واحدة، واحدة لا غير، والتي تقول إنّ الخيط ظهر لأنّه كان يقضي وقتًا ضئيلًا مع ابنته (أي بسببه)، ولم يختفِ لأنّه رافقها بطريقةٍ خياليّةٍ إلى المكان الذي نبَتَ منه الخيط (أي ليس بفضله)، إنّما بفضل حدس الطبيب نوشيتّي. أوكي، قال ماركو في نفسه، هذه ليست الحقيقة، إنّما صيغةٌ مقبولة. تضحيةٌ بإمكانه تأديتها. فالقضيّة في نهاية المطاف تخصُّ قلّةً من الأشخاص (زوجته، الدكتور نوشيتي، مديرة

الروضة، وهو)، ومن العبث إدامة التنازع حولها. فلم يعترض على شيء، بل شكر الساحر مانفروتّو. حبًّا بالسلام. ومن أجل مصلحة الطفلة. ومن دون مشاحنات.

وهذا ما سبَّبَ الصدعَ الثالث.

فعّالة (2008)

إلى: جاكومو - jackcarr62@yahoo.com

بريد مرسَل - Gmail - 12 ديسمبر 2008، 23:31

الموضوع: فعَّالة

من: ماركو كارّيرا

في إيميل اليوم، يا جاكومو العزيز، سأروي عليك كيف نسَّقتُ مجسَّمات السكك الكهربائيّة الثلاثة التي صمَّمها والدنا. لم تكن المهمّة سهلة، ثمّ اتّضح في النهاية أنّها أروع ما قمتُ به. لم تطرح المجسَّمات المعماريّة أيَّ مشكلة: وهبتُ كلّيّة الهندسة مجسَّمَ جسر الإنديانو، الذي أُهدِيَ له من قِبَلِ مخطِّطي المشروع بعد الفوز بالمسابقة، وسرعان ما نصبوه في القاعة الكبرى. أمّا مجسَّم فيلا مانسوتي في بونتا آلا فأعطيتُه لتيتّي، زوجة ألدينو مانسوتي، التي ما تزال حيّة وبكامل وعيها. لم أرها منذ، ما أدراني، ثلاثين أو أربعين عامًا، ومع أنّهم باعوا الفيلا منذ زمن قبلتِ الهديّةَ وتأثّرت بها أيضًا. وأمّا مجسّم قبّة برونيلّيسكي، الكبير، لا الصغير الذي أهداه والدنا لا أعلم لمن، الكبير، كنتُ أقول، الذي لا شكّ أنّك تذكره لأنّك تعرّضتَ للتوبيخ ذات يوم حيث أدخلتَ فيه الجنود الصغار لتلعب، أخذتُه إلى مقرّ مجلس المهندسين في مدينة فلورنسا وأهديتُه لهم وأدهشتُهم به. وبالمقابل طلبتُ منهم أن يكفّوا

عن إرسال البلاغات والمطالبات برسوم عضويّة والدنا السنويّة. وأمّا مجسَّم التوسيع المخالف والشهير للمنزل في بولغيري، فلقد احتفظتُ به لنفسي، مع أنّه الأقلّ جمالًا. وبالتأكيد، هناك بيت الدمية على الشلّال الذي صمّمه لإرينه نسخةً طبق الأصل عن بيت رايت، لم أمسَّه: تركتُه في غرفة إرينه، سنرى أمره عندما نبيع البيت. بالمحصّلة، كان تنسيق تلك المجسَّمات سهلًا.

لكنَّ المشكلة كانت في مجسَّمات السكك الثلاثة. أحدها لم تره أنت، لأنّ والدنا صمَّمه بعدما سافرتَ: من النمط التقليليّ، وفي منتهى العبقريّة، طوله ثلاثة أمتارٍ ونصف في حين أنّ عرضه لا يتجاوز الستّين مترًا، ويسمح بتسيير أحد عشر قطارًا دفعةً واحدة في الوقت نفسه، بطريقةٍ تبدو مذهلة. أمّا السرُّ في الواقع فهو تافه: المجسَّم مبنيٌّ على طابقين، أوّلهما مرئيّ وثانيهما، في الأسفل، لا يُرى، لأنّه مخفيٌّ في سماكة القاعدة، لذا فإنّ القطارات التي تصل إلى نهاية المجسَّم تلج في نفق، تعكس مسارها وتقترب من تحويلةٍ تُوجِّهها إلى الأسفل، حيث تعود إلى الخلف دون أن يراها أحد ثمّ تصعد ثانيةً من الجانب الآخر، تحت نفق آخر أيضًا، لتعكس مسارها من جديد وتظهر مجدّدًا مثل لوريل في الفيلم الكوميديّ عندما يظهر حاملًا سلّمًا خشبيًا على كتفه، ثمّ نرى السلَّمَ الطويل وهو يعبر ببطء شديد، وفي النهاية يظهر لوريل وهو يحمله من الطرف الآخر أيضًا. باختصار، المجسَّم جوهرةٌ لا يجوز التفريط بها أبدًا. والمجسَّمان الآخران كذلك، اللذان لا بدّ أنّك تذكرهما، أحدهما ضخمٌ وصُمِّمَ في الستّينات، والثاني النسخة عن المنعطف الصاعد في بيتيشو ديلّا بورّيتانا. جميلان بحيث لا يجوز التفريط بهما. سوى أنّه لا يمكننا أن نبيع البيت وفيه تلك التوابيت الهائلة التي تشغل غرفةً بأكملها. لذا هممتُ بالبحث عن وسيلةٍ لإهدائها لمن يقدِّرها. تذكّرتُ أنّ والدنا، في الأزمنة الأخيرة، قبل أن تتدهور صحّته، كان يتحدّث عن مجسَّمٍ عظيمٍ وعبقريّ صُمِّمَ في

سرداب ملتقى عمّال السكك الحديديّة، هل تعرف أين كان يقع نادي التنس، بجوار كاشينه؟ هناك تمامًا. فذهبتُ، بعد أكثر من أربعين عامًا من آخِر مرّة وطأت قدمي هناك يا جاكومو. لقد تغيَّرَ المكان كثيرًا، بالطبع، واستغرقتُ وقتًا طويلًا لمجّرد أن أعثر على أحدٍ يفهم عمّا أتحدّث. والحال أنّ مصمّمي المجسَّمات الذين يجتمعون في ذلك السرداب هم أشبَه بالأشباح، ليس لديهم أيامٌ محدّدة ومواعيد محدّدة، وعندما لا يتواجدون فيه يُغلَق السرداب، ولا أحد من غير المنتسبين إلى الملتقى يعرف عنه شيئًا. اضطررتُ إلى مراسلتهم عبر البريد طيلة أشهر، ولكن في النهاية، في صباح يوم سبت، استطعتُ أن أعثر على رئيس جمعيّة المصمِّمين، يدعى بيبي، كان يلعب الورق مع أعضاء آخرين. وما إن ذكرتُ اسم والدنا ترك المباراة وأخذني إلى السرداب مع أنّه مغلق، وعليّ أن أقول إنّ والدنا كان محقًّا، فالمجسَّم العملاق الذي شيَّدوه في تلك الصالة كان أعجوبة بالفعل. شغَّله بيبي من أجلي حصرًا، وأؤكّد لك أنّه خرافيّ لأنّه مجتزأ من السكك المدنيّة وكبيرٌ بجحم كلّ الصالة، وفيه أبنيةٌ مرتفعة، وطرقات، وسيّارات، وأناس، وكلّ شيء. بالمحصّلة، أطلعتُه على القضيّة فقال إنّه يوافق هو أيضًا على عدم جواز التفريط بتلك المجسَّمات – هكذا، من حيث المبدأ، طالما أنّه لم يرها قطّ. كان يتحدّث عن والدنا باحترامٍ كبير، أقُرّ بذلك، رغم أنّ والدنا بطبيعة الحال كان قد أدار العلاقة معه على طريقته، أي بتحفُّظٍ شديد، فنادرًا ما نوَّهَ إلى أعماله وما تكلَّمَ عنها إلّا من باب المسائل التقنيّة، وبالتالي لم يكن لدى بيبي هذا أدنى فكرة عمّا كنّا نتحدّث. حدّدنا موعدًا لكي يأتي ويلقي نظرة عليها في القريب الممكن – بعد شهر، لا تسألني لماذا. وعندما جاء انذهل بما رأى، لاسيّما بمجسَّم بورّيتانا، كما بالمجسَّمين الآخرين أيضًا، وقال إنّه ينبغي أن يأخذوها كلَّها لهم. المقصود بـ «لهم» جمعيّة المصمّمين التي كان يرأسها. قال عن أحد المجسَّمات، الذي

لم تره أنت، إنّه نموذجيٌّ من أجل المدرسة، إذ لديهم مدرسة لتعليم الشبّان كيفيّة بناء مجسّمات للسكك الحديديّة، لك أن تتخيّل. كان بيبي هذا متحمّسًا بالمحصّلة، ولم تكن المشكلة إلّا بإيجاد شاحنة كبيرة بما يكفي لنقل المجسّمات: أخذ رقمي، وأعطاني رقمه، واختفى، حرفيًا، طيلة شهرين آخرين. حاولتُ الاتّصال به مرّتين، لكنّ هاتفه كان مغلقًا. حتّى إنّي ذهبتُ إلى الملتقى لأسأل عنه، ولم يستطع أحدٌ أن يدلّني على شيء. إلى أن هاتفني منذ أسبوعين وقال لي إنّه وجد شاحنة أخيرًا. فحدّدنا موعدًا وجاء في الأسبوع الماضي برفقة «الشباب»، يسمّيهم هكذا (أعمارهم جميعًا تتجاوز الخمسين عامًا)، لنقل المجسّمات. ياه يا جاكومو، لا يمكنك أن تتخيّل مدى الاحترام الذي أظهره هؤلاء «الشباب» تجاه والدنا: كانوا ستّة، بمن فيهم بيبي، يحملون قبّعاتهم بأيديهم (كانوا جميعًا يعتمرون قبّعات، من طراز بورسالينو الذي ساد في فترةٍ مّا، لا تسألني لماذا)، مسحورين، بأعين متلألئة إزاء ما شيّده والدنا قبل خمسين عامًا. حاول أحدهم أن يدردش معي قائلًا إنّه لشرفٌ عظيمٌ له أن يكون هناك، لا بل أن يرث أعمال المهندس، كما كانوا يلقّبونه جميعًا؛ هو الصاحب السابق - متقاعد الآن - للمتجر الذي كان يقصده والدنا لشراء القُطُر الصغيرة ومناقشته بأمورٍ تقنيّة، وقد اعترف لي بأنّ رؤية مجسّمات والدنا كانت إحدى أعظم أمنياته دائمًا، لكنّه كان يهابه لذا لم يطلب منه ذلك يومًا. كنتُ أتبيّن مرّةً أخرى أنّ والدنا لم يعطِ ثقته لأحد، كما أنّ لا أحد فعل شيئًا لينالها، ولهذا السبب ومع أنّ الشغف ذاته كان يلتهمهما وعلى الرغم من التقدير المتبادل بينهما، عاشا طيلة عقود في عالمين متوازيين، ولم يتصادفا إلّا نادرًا. في فلورنسا، أتفهم، لا في طوكيو. ثمّ باشروا العمل بعد الانتهاء من المجاملات: ركّبوا مساند لا أعرف اسمها، ودعامات بمشابك على كلّ مجسّمٍ على حدة، بغية الحفاظ عليه (ما يشبه السقالات المضبوطة والمضغوطة، أقرب إلى الألواح الكرتونيّة التي يضعها معدّو الحلويات على

قوالب الحلوى كي لا تنهار)، ثمّ غلّفوه بأكياس الفقاعات الهوائيّة وحملوه على أكتافهم. لم يكن المجسَّم الأكبر يمرّ من الأبواب فاضطرّوا إلى إنزاله من النافذة الكبيرة بالحبال. استغرقوا ساعةً ونصف. وفي النهاية شكروني، كلّهم متأثّرين، وانصرفوا على متن شاحنتهم، بيبي يقودها وإلى جانبه اثنان، والثلاثة الآخرون على السطح ليمسكوا بالمجسَّم الكبير الناتئ بطول متر وإلّا انقلب. أنا واثقٌ من أنّني لن أراهم ثانية، وفاءً للتحفُّظ الذي لطالما عاملهم والدنا به. سوى أنّني، لأخبرك كيف أنّهم مثل جماعة سرّية حقيقيّة، ذهبتُ يوم أمس، الأحد، إلى مطعم المشاوي المعتاد لتناول الدجاجة المشويّة المعتادة، فدنا منّي أحد الطبّاخين، أكبرهم سنًّا، رجلٌ نحيلٌ نحيل ووجهه مدوَّرٌ كأنّه من مطّاط وأسنانه مكسَّرة، أعرفه منذ سنوات، دنا منّي وهمس في أذني: «عرفتُ أنّ الشباب كانوا عندك». لم أفهم إلام يلمح في البداية، فغمز لي بعينه وهمس، بصوتٍ أشدّ انخفاضًا، كما لو أنّه بصدد سرٍّ لا ينبغي للزبائن الآخرين أن يسمعوه حتّى لو عن طريق الخطأ: «مجسَّمات أبيك: يقولون إنّها ما تزال فعَّالة». قال هذه الكلمة بالضبط، «فعَّالة».

هل فهمتَ كيف تجري الأمور هنا؟

لا، ربّما لم تفهم. وهذه غلطتي، لا أنجح في تفسير الأمر. هذه غلطتي.

عيدَ ميلادٍ مجيدًا.

ماركو

Fatalities (1979)

لم ينجُ أحد. هذه كانت حصيلة ما سُمِّيَ بـ «كارثة لارنكا» - وهي تسميةٌ أقسى، من حيث التعبير اللغويّ تمامًا، من التسمية التي اعتُمِدَت من الإنكليزيّة (fatalities 94) / (94 ضحيّة) وظهرت في التقارير التي توثِّق الحادثَ من قِبَلِ سلطات مراقبة الطيران المدنيّ.

وبما أنّ الطائرة كانت قد أقلعت من مطار بيزا، فإنّ غالبيّة هؤلاء الـ fatalities كانوا من الجنسيّة الإيطاليّة، ما جعل الصحف ونشرات الأخبار تنجرف إلى الفاجعة بطبيعة الحال: إلّا أنَّ ضحايا جددًا، وهذه المرّة بالمعنى الآخر لكلمة fatality (قَدَريّة، مصادفة)، ظهروا بغتةً لخطف الأضواء من أولئك الذين كانوا يستحقّونه أيضًا. ففي المقام الأوّل حادثٌ جويٌّ جديد، بعد بضع ساعات، الأخطر في التاريخ الأمريكيّ (طائرة DC-10 من الخطوط الجويّة الأمريكيّة تتحطَّم على الأرض وهي في مرحلة الإقلاع من مطار شيكاغو، fatalities 271)، وينبغي التركيز عليه كذلك، وسرعان ما اختلطت الأمور، بالدفع نحو التوق الذي لا يقاوم - نظرًا إلى كيفيّة عمل الصحافة - لمزج الكارثتين معًا، وعجنهما في مضغة واحدة من الرعب مع أنّ لا صلة بينهما في الواقع ما عدا ماركة الطائرتين، اللتين كانتا من طرازين مختلفين في الحقيقة. وفي المقام الثاني، بعد ذلك بثلاثة أيّام، خُدِّرَتِ البلادُ بأكملها على نبأ إلقاء القبض على ڤاليريو موروتشي وأدريانا فاراندا، العضوين في الألوية الحمراء أكبر المطلوبين للعدالة في إيطاليا. وبعدها بخمسة أيّام أجريت الانتخابات السياسيّة المبكرة التي تمخَّضت عنها الولاية

التشريعيّة الجمهوريّة الثامنة، وبعدها بأسبوعٍ آخَر أجريت الانتخابات الأوروبيّة. وداعًا. وعلى هذا النحو تقلَّصَ الوقتُ الذي خصّصته الجرائد لكشط التفاصيل والشهادات عن قشرة كارثة لارنكا بشكلٍ كبير، ولم يتسنَّ لها التوصُّل إلى ماركو كارّيرا وشنيع الذكر اللذين نزلا عن الطائرة وهي على المدرج. توقّفَ الحديث قبل ذلك ببساطة. نالت «الأرواح المهشَّمة» النصيب الأعظم من الزخم الإعلاميّ، أولئك الكشّافة الذين في ريعان الشباب، المتّجهين نحو أكبر تجمُّعٍ دوليّ في قلعة ليوبليانا، ولم يسعِ الوقتُ الصحافةَ للتعمُّق أكثر؛ وفي الواقع لم يسعها الوقت حتّى للحديث كما ينبغي عن مراسم الدفن بعد إعادة الرفات إلى إيطاليا، ولا للإعلان عن العثور على الصندوق الأسود في قاع البحر، لأنّ كارثة لارنكا في غضون يومين غدت تتراجع في موجز الأنباء، حتّى سقطت إلى الدرك الأسفل حيث يضيق المجال بلا هوادة.

كيف كانت حياة ماركو كارّيرا ستغدو لو أسعف الوقتُ الصحافة لاكتشاف أنّه نجا من تلك الكارثة، لتحوِّله بذلك إلى شخصيّة عامّة؟ كيف كانت ستغدو لو اكتشفه رجال القضاء على الأقلّ؟ لكنَّ ما توقَّعه الفتى، المصعوق، منذ الصباح الذي ورده فيه نبأ الكارثة - صحفيّون تحت البيت، استدعاءات إلى النائب العامّ - لم يقع مطلقًا. فإذا كانت الأسبابُ التي ما لبثت أن حرفت انتباهَ الصحافة واضحةً، فإنَّ تلك التي لم توصل إليهما القضاءَ والإدارةَ العامّة للطيران المدنيّ التابعة لوزارة النقل ليست واضحةً أبدًا. بالمحصّلة، إنَّ هروبَ شابّين عشرينيّين من طائرة قبل أن يبتلعها البحر بساعتين، خلال حقبةٍ يسودها الإرهابُ كتلك، هو دليلٌ لا بدّ أن يؤخذ بعين الاعتبار، على الأقلّ ريثما يقرّ فحص الصندوق الأسود بأنّ الحادث ناجمٌ عن عطلٍ بنيويّ. ولكنْ لا. لم يحدث شيء. واحدٌ من الألغاز الإيطاليّة العديدة، صغيرٌ بمقارنته بغيره، لكنّه بالغ الأهميّة في مستقبل كلٍّ من الشابّين.

ولكونهما مستبعدَين بشكلٍ غير متوقَّع عن أمرٍ افترضا أنّهما متورِّطان فيه (لأنّهما كانا متورّطين في الواقع)، حدث أنّ لا أحد منهما قال شيئًا لأحد. وحدث أنّه بعد أن التزما الصمت يومين، ثلاثة، أربعة خمسة أيّام، بدا لهما أنّه من المستحيل أن يخرجا عن صمتهما فجأةً ليحكيا أنّهما نزلا من تلك الطائرة في اللحظة الأخيرة. قد لا يصدِّقهما أحد.

ولكن، في الحقيقة، كان هنالك سببٌ آخر أبقاهما ساكتين ومرتاعين في الأيّام التي انتظرا فيها أن ينصبَّ الانتباه عليهما: ما مآل شنيع الذكر إذا عُرِفَ عنه ما وقع على تلك الطائرة؟ حتّى لو أخفيا أمر اللعنة العجيبة التي أنزلها على أولئك الأبرياء المساكين، حتّى لو صرَّحا بأنّهما نزلا من الطائرة لسببٍ تافه، كيف كان لدوتشو كيلّيري أن يتقرَّب من كائنٍ بشريٍّ آخر في تلك المدينة دون أن يفرّ الأخيرُ وهو يعوي من الفزع؟ سيكون ذلك بمثابة التأكيد الحاسم على كلّ الأقاويل التي صدرت بحقّه، وسيكون مجرّد بقاء ماركو كارّيرا على قيد الحياة بمثابة البرهان العلميّ على نظريّة عين الإعصار. والنتيجة، ما عادا قادرين حتّى على فتح الموضوع سرًّا بينهما: وفي المرّات الثلاثة التي حاولا فعلها خيَّمَ عليهما حجابٌ من العبوس والحيرة. فالباطن يهيمن على الظاهر.

والحقّ يقال، سنحت الفرصة لماركو لكي يتحدّث بالأمر، لأنّ ما يعدّه حدسًا غير بشريّ تتفرّد به أخته إرينه اقتادها لإدراك كلّ شيء. قل الحقيقة: هل الطائرة التي كنتَ وصديقك ستركبانها هي التي تحطَّمت؟ سألته بلا مقدّمات بعد عدّة أيّام، إذ دخلت غرفته من دون استئذان بينما كان مستلقيًا على السرير يستمع إلى «Laughing» لديفيد كروسبي. شكَّلت استطاعتها على فهم الموضوع لغزًا آخر بالنسبة إليه، فماركو لم يخبر مَن في البيت أنّه ذاهبٌ إلى ليوبليانا، عبْر لارنكا، للعب القمار، إنّما إلى برشلونة بهدف السياحة. لم

يخطر في باله البتّة أن تكون قد تلصّصت عليه، مثلما كانت تفعل بكلّ أفراد العائلة دائمًا، أو أن تكون قد تنصَّتت على مكالماته أو أن تكون قد اخترقتها دفعةً واحدة من خلال سمّاعة هاتف المطبخ بينما كان يخاطب صديقه من الهاتف الذي في غرفته، فهي تعلم منذ البداية وجهته وغايته. ولأنّه كان مصعوقًا، فكَّرَ بتأكيدٍ على قدرات أخته الاستبصاريّة وذُعِرَ أكثر فأكثر. ذُعِرَ فأنكر. ألحَّت إرينه: لماذا لا تعترف؟ ستتحسَّن. أنكر ماركو ثانيةً، لكنّه قرّر أن يفرِّغ السلّة بدءًا بالسؤال التالي، سوى أنّ إرينه - يا للقَدَريّة - لم تطرح أيّ سؤالٍ تالي: انصرفت فجائيًّا مثلما جاءت وتركته هناك كقطعة النقانق، عاجزًا حتّى عن النهوض عن السرير لتدوير القرص على الطبق، حيث أنّ الأغنية انتهت، وكانت الأخيرة على الوجه آ من الأسطوانة (If I Could Only Remember My Name)، والإبرة تكزُّ بعنفٍ على الأخدود النهائيّ.

تششش. تششش. تششش.

كيف كانت حياته ستغدو لو أنّه أجاب على أسئلة إرينه، أو لو أنّها أتبعتْها بسؤالٍ آخر؟ وبالأخصّ، كيف كانت ستغدو حياة دوتشو كيليّري؟

ربّما لأنّه، *ربّما*، لو تحدّث مع إرينه بالأمر العجيب الذي وقع له كان سيسمح له بعدم فعلها ثانيةً، بالتالي، مع أحدٍ غيرها؛ لو اعترف لإرينه، خارقة الذكاء، كان سيسمح له بوأد الشكوك التي أخذت تؤرِّقه بوجود كونٍ تسبح فيه قوىً خفيّة، تلبَّست صديقَ طفولته حقًّا. انتظر ماركو أن تعود شقيقته إلى الموضوع، في الأيّام اللاحقة، ولكنْ عبثًا - إرينه لم تفعل. انتظر أن يكشفوا أمره، أن يستدعوه، أن تستجوبه الصحافة والسلطات، بحيث تصبح القضيّة رهينة رأيٍ عامّ بمعزلٍ عن إرادته، ولكنْ لم يأتِ أحد. حاول إيجاد الكلمات لكي يتحدّث في المسألة مع صديقه على الأقلّ، لكنّ الكلمات لم

توجد وصديقه ما عاد صديقه. وفي النهاية، جرَّبَ أن يكتم كلَّ ذلك العذاب في صدره، لكنّه أخفق حتّى في هذا. فتحدَّث، على نحوٍ سيّئ، وبطريقة مخادعة، قبل يومٍ من العطلة، مع صديقين قديمين لم يقابلهما منذ زمن وقد خطّطَ لملاقاتهما صدفةً - لكنّها لم تكن صدفة. بل ذهب عمدًا، بعد العشاء، إلى الحانة في ساحة كارميني حيث كان يعلم أنّهما يقضيان معظم الوقت فيها. أقدم على ذلك بما يشبه الحماسة الحولاء، كحماسة الناجي من الإدمان إذا استأنف تعاطي المخدّرات. صديقان قديمان لا يصله بهما سوى الحديث عن الأزمنة القديمة، والأمجاد القديمة، والمغازلات القديمة، ومغامرات شنيع الذكر القديمة... فبما أنّه لم يفلح في فعل الأشياء الصحيحة، فعل الشيء الخاطئ - الأسوأ.

وماذا فعل؟

صدمهما، لا بل صعقهما، إذ روى عليهما ما لم يروِهِ على أحدٍ طيلة شهرين، وفعلها كما لو أنّه كان واحدًا منهما وعلى وفاقٍ معهما، كما لو أنّه لم يكافح جاهدًا وعلى الدوام ضدَّ ذلك الخليط من الاستهزاء والإيمان بالخرافة الذي مُهِرَ به دوتشو كيلّيري في خانة المنحوسين. أورد الكلمات المريعة التي تلفَّظَ بها شنيع الذكر حرفيًّا بحقّ العباد المساكين (أنتم موتى! أنتم موتى أصلًا وتريدونني أن أموت أنا أيضًا!)؛ وصف بتعاطفٍ كبيرٍ الارتياحَ القاتلَ الذي اتّسمت به المضيفات الغافلات وهنَّ ينزلنهما عن الطائرة؛ ووصف نفسه باعتباره شخصًا يقاسي توبةً عميقةً ومثيرة: مثل-ذاك-الذي-تلقّى-إشارةً-إلهيّة. هذا ليس من شيمه، وليس من أجل هذا اتّجه إلى هناك حقًّا، لكنّه في ذلك المساء إذ تحدّثَ مع هذين الصديقين القديمين، وأفرغ عليهما ما يستعر في صدره، فأدهشهما مثلما لم يدهش أحدًا من قبل، فعل ما فعل. وبفعلته هذه، سلَّمَ صديقه الذي أنقذ حياته إلى المصير المحتوم الذي صارعه وأنكره

لسنوات - مصيرٌ لن يتمّكن دوتشو كيلّيري من تلك اللحظة فصاعدًا أن يفلت منه على امتداد حياته أبدًا.

وفي اليوم التالي، انطلق إلى البحر، قذرًا وخفيفًا مثلما لم يكن قطّ، وأُغرِمَ بلويزا لاتيس.

رجاءٌ خاطئ (2010)

الخميس 20 أيار

مساء الخير. أرغب في معرفة ما إذا كان هذا الرقم ما يزال للطبيب ماركو كارّيرا، من فضلك. أعتذر عن الإزعاج. 20.44
أجل، ما يزال رقمي. وحضرتك، مَن تكون؟ 20.44
مرحبًا، أيّها الطبيب كارّيرا. أنا كارّادوري، المحلّل النفسيّ السابق لزوجتك، السابقة على ما أظنّ. أتمنّى ألّا أسبّب لك إزعاجًا بالتواصل معك بعد كلّ هذه المدّة، وإذا كان الأمر كذلك فحبّذا أن تصارحني، وأن تتصرّف كما لو أنّي لم أتواصل معك نهائيًّا. أمّا في حال أنّني لا أزعجك، فإنّني أبتغي أن تحدّد لي ساعةً من وقتك لكي أتّصل بك، في الغد أو متى تَسَنَّ لك، لأنّني في حاجةٍ إلى التحدّث مع حضرتك. 20.45
بإمكانك الاتّصال بي في الغد حوالي الساعة 09,30، ولكنْ بشرط. 20.49

ما هو؟ 20.49
أن تستخدم «أرجو» عوضًا عن «أتمنّى» في هذا السياق. 20.50
أطالبك بهذا من باب المودّة، ها؟ فلا تؤاخذني. 20.50
المعذرة. كنت أقصد «آمل». إلى الغد. شكرًا. 20.54
إلى الغد. 20.54

كيف جرت (2010)

- ألو؟

- صباح الخير، دكتور. أنا كارّادوري.

- صباح الخير.

- هل الوقت مناسب؟

- أجل، الوقت مناسب.

- لستُ أزعجك، أليس كذلك؟

- نعم، لا تزعجني. كيف حالك؟

- بخير. وحضرتك؟

- وأنا بخير أيضًا، أجل.

- ممتاز. أسعدتَني بذلك.

- هل لي أن أسألك، دكتور كارّادوري: لم تنزعج في الأمس من مسألة «أتمنّى» و«أرجو»، أليس كذلك؟ لأنّني كنتُ أمزح، ولكنْ من الصعب أن يُفهَمَ المزاح في هذه الرسائل النصّيّة.

- إطلاقًا. لقد شعرتُ بالخزي، هذا صحيح، لأنّني في العادة لا أرتكب أخطاءً من هذا النوع، لكن في الأمس حصل ذلك، ولستُ أدري لماذا.

- هذه الأمور تحصل، بالتأكيد. أعدتُ النظر في إجابتي، وتبيَّنتُ أنّها

سمجة قليلًا، بما أنّنا بالكاد نعرف بعضنا.

- كن مطمئنًّا، لم أحلم حتّى في الانزعاج ممّا قلتَ. وقد أوضحتَ أنّك تمزح.

- هذا أفضل. ما الذي يمكنني فعله من أجل حضرتك؟

- حسنًا، باختصار، هلّا رويتَ عليَّ كيف جرت، إن كنتَ لا تعارض بطبيعة الحال.

- كيف جرت ماذا؟

- حياتك. حياتكما. خلال هذه السنوات.

- لا أقلَّ من ذلك!

- أجل. ربّما ينبغي لي أن أروي عليك أوّلًا كيف جرت حياتي. هل يطيب لك؟

- أجل، بالتأكيد.

- لأنّني بعد بضعة أشهر من... من اللقاء بك، عشرة أعوام مضت، اعتزلتُ المهنة. نهاية. بتّ. باللغة التقنيّة يسمّى burnout. فلنقل، من باب التبسيط، إنّني لم أعد قادرًا على العودة إلى منظومة القواعد التي خرجتُ عنها بالمجيء إليك.

- بسببي إذًا.

- بل بفضلك. هل تعلم أنّي لم أعد حتّى أطيق أن أتخيَّلَ أداء دور المحلّل النفسيّ؟ لم أكن حرًّا. التحليل النفسيُّ ورطة.

- لا تذكِّرْني بذلك! وماذا تفعل الآن؟

- أعمل في علم نفس الأزمات. أشارك في برنامجٍ لمنظّمة الصحّة العالميّة يُعنى بتقديم الإغاثة النفسيّة للشعوب التي تعرّضت لأحداثٍ كارثيّة.

- تبًّا. هذا مثيرٌ للاهتمام.

- أمضيتُ قليلًا من الوقت في إيطاليا، خلال هذه السنوات.

- لحسن الحظّ.

- لقد عدتُ توًّا من هايتي، على سبيل المثال. وسأعود هناك بعد أسبوعين.

- كم كان مروِّعًا، ذلك الزلزال.

- أسوأ كارثة طبيعيّة في التاريخ الحديث، صدّقني. لا يمكننا حتّى أن نتخيّل ذلك.

- أتخيّل ذلك. بل لا...

- إنّه عملٌ حقيقيّ، دكتور كارّيرا، مفيدٌ حقًّا. أشخاصٌ خسروا كلَّ شيء، أطفالٌ، شيوخٌ، أمسوا وحيدين في هذا العالم: وعليهم أن يعيشوا، لأنّ هذا ما تقرِّره أقدارهم. فالمشكلة ليست مادّيّةً فحسب. أن تساعدهم على استيعاب حياتهم، هو أجدى عملٍ أقدِّمه لهم، صدّقني.

- أصدّقك.

- ولكن، أعترف لك، في كثيرٍ من الأحيان، خلال هذه السنوات، وعلى الرغم من هول العمل الذي ينبغي إنجازه، والمصاعب، والفقدان، والخيبات، غالبًا، لأنّ المحلِّل النفسيّ في أماكن كثيرة من العالم يُواجَهُ بالرفض، خصوصًا من أولئك الذين هم في أمسّ الحاجة إليه، باختصار، على الرغم من المشاغل الكثيرة، فلنقل، في كثيرٍ من الأحيان، أقسِمُ لك، خلال هذه السنوات، أجد نفسي أفكّر فيك.

- حقًّا؟ ولماذا؟

- لأنّك على وجه الخصوص، كما أسلفتُ، مرتبطٌ بالسبب الذي أبعدني عن مهنتي. باختصار، لو لم آتِ إليك، يومئذ، لو لم أقرّر انتهاك القواعد التي لطالما احترمتُها حتّى تلك اللحظة، لما تغيّرت حياتي. والله وحدَه يعلم كم كنتُ في حاجةٍ إلى أن تتغيّر. لاسيّما أنّني فكّرتُ مرّاتٍ كثيرة أنّني لم أعد أعرف شيئًا عن حضرتك، عن ابنتك، عن زوجتك... أو زوجتك السابقة، صحيح؟ هل انفصلتما؟ لا أعرف حتّى هذا.

- أجل، أجل. نحن في منتهى الانفصال.

- أرأيت، دكتور: إنَّ فراغًا من هذا النوع لا يمكن احتماله بعد أن أصبحتُ خارج القواعد المفروضة من قِبَلِ المهنة التي كنتُ أزاولها. لديّ حاجةٌ في معرفة كيف جرت حياتكم، ما دمتُ قد تدخّلتُ فيها بدلًا من البقاء في حدود المراقبة مثلما كان يجدر بي أن أفعل. فما كان مصيركم؟

- هي لم تقتلني، كما ترى.

- وهذا شيءٌ جيّد.

- ولم أقتلها.

- جيّد. وما الذي حدث؟

- إيه، ما الذي حدث، أشياءٌ كثيرة حدثت... حدث أنّ ما كان خافيًا عنّي وليس عنك طفا على السطح، فانفصلنا. أن ننفصل متأخّرًا خيرٌ من ألّا ننفصل أبدًا. حدث أنّها وجّهت إليَّ اتّهاماتٍ مشينة لكي تغطّي فرارها، وانتقلت إلى ألمانيا، مع الرجل الذي لا بدّ أنّك تعرف عنه أكثر منّي.

- والطفلة؟

- الطفلة، بالمناسبة بات عمرها الآن واحدًا وعشرين عامًا، أخذتها معها. لكنّ الأمر لم يصلح، فلنصفه كذلك، فعادت إلى إيطاليا بعد عام لتسكن معي.

- حمدًا لله. فلتعلم، كان هذا هو الحلّ الذي لطالما اقترحتُه عليها، عندما كانت، بالمحصّلة، تخطِّط لتلك الغايات التي جئتك أحدِّثك عنها. كنت ألحُّ على أن تترك الطفلة عند حضرتك وتذهب لتعيش حياتها مع ذلك الرجل دون أن تجرف الطفلة إليها. وماذا عن الطفل الآخر؟ الذي كانت تنتظره عندما كفَّت هي عن المجيء إليّ، ما الذي حلَّ به؟

- لقد وُلِد، فوق، في ميونخ. بل وُلِدَت، نظرًا إلى أنّها أنثى هي الأخرى. غريتا. وكانت هي التي عقَّدت عليها المسائل. إضافةً إلى أنّ آديلي، أيضًا، لم تكن أقلّ...

- يعني؟

- يعني أنّ عقدة الخيط قد عاودتها. هل تذكر الخيط الموصول بظهرها، عندما كانت صغيرة؟ ألم تحدِّثك مارينا بشأنه؟

- بلى، طبعًا.

- كنّا قد محونا أثره، بمساعدة زميلٍ لك، قبل أن تدخل المدرسة الابتدائيّة. لكنّه عاودها في ألمانيا، فلم تعد تخرج من المنزل. فأعدتُها إلى إيطاليا، لتعيش معي.

- واختفى الخيط من جديد.

- تمامًا. ظننتُ لأعوامٍ أنّه اختفاءه مشروطٌ برياضة المسايفة، لكنّ زميلك كان على حقّ، لا صلة للمسايفة. الأمر متعلّقٌ بي.

- أفهم ذلك. والآن كيف حالها؟
- آديلي؟
- أجل.
- بخير. لا بأس. أجل.
- وزوجتك السابقة؟
- ليست بخير. بقيت في ميونخ لكنّها انفصلت عن والد الطفلة الأخرى أيضًا. لم يعد بوسعها العمل، لأنّها داخلة خارجة من المستوصفات. وهي تتّبع علاجًا جادًّا حاليًّا.
- جادٌّ إلى أيّ حدّ؟
- لا أعرف بصراحة. جادّ. ما أعرفه أنّها أصبحت منذ لحظةٍ معيّنة تلتقي بآديلي مرّةً واحدة كلَّ عام، في الصيف، تمضي معها أسبوعين فيما يشبه المصحّة، في النمسا. ثمّ منذ عدّة أعوام لم تعد تلتقي بها حتّى.
- وقع الأسوأ إذًا.
- أعتقد ذلك. غدت مثل يرقة. انظر، رغم كلّ الأذى الذي ألحقتْه بي لا أُكِنَّ لها الضغينة، لأنّها تحطَّمت حرفيًّا.
- وحضرتك، كيف استطعتَ أن تتدبّر الطفلة بمفردك؟ هل بقيتَ في روما؟ هل انتقلتَ؟
- دكتور كارّادوري، كيف لي أن أروي عليك عشرة أعوامٍ على الهاتف؟
- معك حقّ. أخبِرْني بشيءٍ واحدٍ إذًا: هل كان مؤلمًا جدًّا؟
- أجل برأيي. مؤلمٌ إلى حدٍّ بعيد، أجل.

- وهل انقضى الألم الآن؟ الألم العميقَ على الأقلّ؟ بالنسبة إليكما على الأقلّ، إذ أخشى أنّ آلام زوجتك السابقة لن تنقضي أبدًا؟

- دكتور كارّادوري...

- أخبِرْني فقط أنّكما تعيشان حياةً طبيعيّة، أنتما الاثنان على الأقلّ. أخبِرْني بهذا على الأقلّ.

- حسنًا، أجل. نعيش حياةً طبيعيّة تقريبًا.

- تخطّيتُما المحنة.

- لا يمكنني أن أؤكّد ذلك، ولكن أجل، إن كنتُ قد فهمتُ قصدك: لم يُقضَ علينا.

- شكرًا، دكتور كارّيرا.

- علامَ تشكرني؟

- شكرًا لأنّك أخبرتني بهذه الأشياء. حقًّا. واعذرني عن التطفُّل.

- أيُّ تطفُّل! سررتُ بسماعك. سوى أنّه من المستحيل أن أروي كلّ تلك الأعوام هكذا، على الهاتف.

- فعلًا، وأعدك بألّا أسألك عن شيءٍ بعد. إنّما أردتُ أن أخبرك بأنّني كنت أتألّم بالأحرى عليك وعلى ابنتك، لأنّي بما يخصّ زوجتك السابقة كنت أعلم أنّه لا مجال للتوهُّم. مع الأسف.

- حقًّا.

- هل لي أن أطرح عليك السؤال الأخير، دكتور كارّيرا؟ سؤالٌ لا شأن له بالمسألة، لكنّه يلهج في رأسي منذ أن التقينا، عشرة أعوام مضت.

- تفضَّل.

- هو من الترّهات ولكن...

- تفضَّل.

- حضرتك تدعى ماركو، صحيح؟ ماركو كارّيرا. من مواليد العام 1959، مثلي، صحيح؟

- أجل.

- من فلورنسا.

- أجل.

- وكنتَ تلعب التنس، في شبابك.

- أجل.

- هل شاركتَ ببطولات؟

- أجل.

- في روفيريتو؟ هل شاركتَ ببطولة روفيرتو يا تُرى؟ أتحدّث عن العام 1973، 74.

- بالتأكيد. كانت بطولةً مهمّة.

- فهذا أنت إذًا. روفيريتو، 1973، أو 74، لا أذكر العام بالضبط. الجولة الأولى. كارّيرا ماركو يسحق كارّادوري دانييلي، 0-6 1-6.

- ياه...

- ولطالما فكّرتُ أنّك جعلتني أفوز تلك المباراة الوحيدة عمدًا، كي لا تهزمني 0-6 0-6. لستَ تذكر، صحيح؟

- بصراحة لا.

- بالتأكيد. كان هنالك فرقٌ كبيرٌ بيننا. وهل تعلم؟ لقد كنتَ أنت مَن جعلني أعتزل التنس أيضًا.

- كيف ذلك؟ أهذا صحيح؟

- أجل. فبعد تلك الهزيمة النكراء، في الجولة الأولى، لم أفز فيها سوى مباراة واحدة لمجرّد أنّ الخصم تركني أفوز، أدركتُ أنّ التنس لا يناسبني. بتلك المستويات على الأقلّ. فكففتُ عن الإجهاد، والتمرين، وخوض البطولات. كان في ذلك خلاصي أيضًا.

- أفهمك.

- حضرتك مَن تخلّصني من الورطات، على ما يبدو.

- سأكون فخورًا بهذا إلى الأبد. بطولات التنس ورطةٌ خانقة حقًّا. خرجتُ منها بعد عامين، بالطريقة نفسها، إذ خسرتُ 0-6 0-6 في الجولة الأولى من بطولة آڤينيري. لم يمنحني خصمي حتّى مباراة شرف.

- اللعنة.

- وهل تعلم مَن هو؟ هل تعلم مَن خلَّصني أنا أيضًا؟

- مَن؟

- إيڤان ليندل.

- لا أصدِّق.

- وهو أصغر منّي بعام. هزيلٌ كمسمار، ولم يكن يرتدي إلّا بزّة واحدة، تلك التي لعب بها ضدّي. أعتقد أنّ نادي أمبروزيانو هو الذي أمدَّهُ ببزّة

التبديل. وقد فاز بالبطولة.

- يا لها من حكاية. هل أنت تمازحني؟

- أقسِم لك.

- حسنًا، فهذا يسلّط ضوء المجد حتّى على مسيرتي الرياضيّة. إذ كانت تفصلني مرتبة واحدة عن ليندل. شكرًا لأنّك أخبرتني بهذا.

- هي هكذا دومًا. المشكلة تكمن في التوصُّل إلى معرفة الأشياء.

- بالضبط. أشكرك.

- وهكذا ستعود إلى هايتي.

- بعد أسبوعين، أجل. بعض الأعمال لا يمكن أن تتوقَّف أكثر من أسبوعين.

- آمل لك التوفيق في عملك إذًا.

- ولك أيضًا. وأشكرك مجدّدًا.

- العفو. اتّصل بي حين تعود.

- إن طالبتَني فعلتُ.

- ها أنا أطالبك.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

لم تكوني (2005)

لويزا لاتيس

21، شارع بيروز

75016 باريس

فرنسا

فلورنسا، 13 أبريل 2005

لويزا العزيزة،

استيقظتُ للتوّ من حلمٍ مهيبٍ كنتِ فيه البطلة، والأمر الوحيد الذي يسعني فعله هو أن أرويه.

كنّا شبّانًا، في مكانٍ مثل بولغيري، لكنّه ليس بولغيري، لا يشبهه البتّة، مع أنّنا نحن جميعًا كنّا نشعر أنّنا في دارنا. وأقول «نحن جميعًا» لأنّ في الحلم يظهر بعض الناس، لكنّي سأبقى وحيدًا دائمًا، من البداية وحتّى النهاية. كان مكانًا بحريًّا، ولكن، من جديد، لا وجود للبحر: إنّما منظرٌ من الخريف الأمريكيّ، طريقٌ طويلٌ بشكلٍ لا يُصدَّق ينحدر تحت الشجر ذي الأوراق البرتقاليّة، وعلى الأرض بساطٌ سميكٌ من بتلات الأزهار. وكنت أهبط على

هذا الطريق، بمفردي، راكضًا ولكنْ بزيٍّ مدنيّ، ومعطفٍ من الشامواه: على يمناي مدنٌ وحدائق، وعلى يسراي الأشجارُ وما وراءها البحر - لكنّه لا يُرى، ولا يُحَسُّ بوجوده كذلك، في الحقيقة، لذا فهو غير موجود. وفي آخِرِ الطريق، عند منتهى المنحدر، كان هناك بيتكِ، وشبّانٌ كثُرٌ مدعوّون إلى بيتكِ، للهو في مسبح بيتكِ، مع أنّ المسبح غير موجود.. الشبّان هم الذين كنتِ ترافقينهم عندما تعارفنا، سلالة البرجوازيّة الفلورنسيّة، فتية الحفلات، عشرينيّون، ولكنْ ليسوا هم أنفسهم. وأنا بالتأكيد لم أكن مدعوًّا. أمّا أخي جاكومو فكان مدعوًّا، نعم، وكان يدخل البوّابة ومنشفته على كتفه ينظر إليّ بإشفاق. لكنّكِ بالأخصّ أنتِ، يا لويزا، كنتِ لأنّكِ في كلّ مكان، لأنّ كلّ ذلك المكان كان أنتِ، وأنتِ كنتِ كلَّ شيء، حتّى من بداية الطريق، في الأعلى، حتّى من الأشجار البرتقاليّة ووشاح البتلات الجنونيّة التي يُمشى عليها، وكان صوتكِ يحدِّد لي موعدًا في آخِرِ الظهيرة، بعد الحفلة التي لم أكن مدعوًّا إليها، «في الثامنة إلّا ربعًا»؛ ورغم هذا يا لويزا، مثل بوولغيري، مثل البحر، مثل المسبح، لم تكوني. وأنا كنتُ منقسمًا، مشطورًا نصفين: فمن جهةٍ هناك خيبتي لأنّني لستُ مدعوًّا إلى الحفلة في المسبح، ومن الأخرى ارتياحي بمعرفة أنّه لا وجود لأيّ مسبح، ومن المحتمل ألّا وجود لأيّ حفلة؛ من جهةٍ هناك عشقي لكِ، وأنّكِ في كلّ مكان وتجعلين ذلك المكان رائعًا؛ ومن الأخرى خيبتي من غيابكِ، لأنّكِ لم تكوني. من جهةٍ هناك أملي العابث بأنّي سأمتلك حصّتي منكِ في ذلك الموعد على الثامنة إلّا ربعًا، ومن الأخرى حزني لأنّي أرى جاكومو والآخرين يدخلون حديقتكِ دون أن أستطيع اللحاق بهم. صوتكِ يا لويزا، كان يجمع الكلّ معًا، بما فيه أنا، بما فيه حياتي، ما يشبه صوتًا خارج الإطار يرسم كلَّ ذلك الجمال، لكنّكِ لم تكوني. لم تكوني. لم تكوني.

استيقظتُ جفلًا، قبل خمس دقائق، وهممتُ بالكتابة إليكِ على الفور، لأنّه ما من طريقةٍ غير الكتابة لأخبركِ كيف حالي. وما زلتُ منقسمًا، يا لويزا، حتّى وأنا مستيقظ، ما زلتُ مشطورًا: فمن جهةٍ سعيدٌ لأنّكِ في مكانٍ مّا من العالم حيث ستستلمين هذه الرسالة، ومن الأخرى حزينٌ لأنّ هذا المكان ليس هنا، حيث استيقظتُ للتوّ، حيث ها أنا أكتب إليكِ، حيث كلّ يومٍ أحيا وسوف أحيا.

أعانقكِ

ماركو

سوى أنَّه (1988-99)

كيف من الممكن أن نروي اندلاع حبٍّ عظيم إذا كنّا نعرف سلفًا أنَّه انتهى بعراكٍ مشين؟ وكيف من الممكن أن نرسم ملامح أحد المخدوعَين – لأنَّ هناك خدعةً منذ البداية – من دون أن نُظهِرَهُ غبيًّا؟ ينبغي أن نرويها رغم ذلك، أن نروي كيف تعارف ماركو ومارينا، وكيف أُغرِم أحدهما بالآخر، وارتبطا، وتزوَّجا – سوى أنَّه من الأفضل ألّا تتأثّروا بالحكاية، لأنَّها ستتغيَّر جذريًّا بدءًا بلحظةٍ معيّنة. إذًا هذا ما حدث. مثلما ظنَّ الجميع – الجميع ما عدا واحد، بل *واحدة* – أنَّ هذا ما حدث.

بدأ كلُّ شيء بمشاركة مضيفة سابقة كانت تعمل في شركة الطيران اليوغوسلافيّة المفلسة كوبر أڤيوبروميت في البرنامج التلفزيونيّ *هذا الصباح* على قناة راي أونو، في ربيع العام 1988. وخلال اللقاء روت المرأة الشابّة، التي تُدعى مارينا موليتور (سلوفينيّة الأصل، وحاصلة على الجنسيّة الإيطاليّة، وقد انتقلت في تلك الأثناء إلى لوفتهانزا إثر تسريحها من العمل بالخدمات الأرضيّة لدى مطار ليوناردو دافنشي بروما)، روت حكايةً مؤلمة. إذ كانت هي في الواقع – لا زميلتها تينا دولينك – مَن يتعيَّن عليها أن تعمل على متن الطائرة DC-9-30 التي تحطَّمت في البحر قبل تسعة أعوام في كارثة لارنكا، إلّا أنَّها استُبدِلَت بدولينك في اللحظة الأخيرة للسماح لها بالذهاب للتبرُّع بنخاعها لشقيقتها الكبرى ماتيجا، مريضة اللوكيميا، في مستشفى فورلانيني بروما. وإنَّ هذه اللفتة الكريمة (فالتبرُّع بالنخاع ليس نزهة، ولم يكن كذلك البتّة في ذلك الزمان)، التي كان القصد منها إنقاذ حياة شقيقتها،

أنقذت حياتها بالأحرى، وكلّفَت حياتين عوضًا عن واحدة: حياة زميلتها التي ماتت محلّها في الكارثة الجوّيّة، وحياة شقيقتها نفسها التي انطفأت بعد أشهر قليلة بكلّ الأحوال، حيث لم يستجب الجهازُ المناعيُّ للتطعيم، ما أدّى إلى فشل عمليّة زراعة النخاع. بكت المرأة الشابّة وهي تروي حكايتها. سوى أنّه...

سوى أنَّ القدر شاء أنَّ ماركو كارّيرا، اللامتفرِّج للتلفزيون والمعادي الشرس له، بلغت حرارته في ذلك الصباح ثماني وثلاثين درجة ونصف، وعوضًا عن الذهاب مثلما كان يفعل يوميًّا إلى مستشفى العينيّة في ساحة الأبطال حيث توظَّفَ منذ أن فاز بالمسابقة حالما أنهى تخصُّصه في العام السابق؛ انسدَحَ على الأريكة في شقّته ذات الغرفتين في ساحة جان لورنزو برنيني، في حيّ سان سابا، مسطولًا بالمضادات الحيويّة، ليغفو قبالة التلفاز. وشاء القدر مرَّةً أخرى أن يكون تلفازه، المطفأ دومًا أو يكاد، خصوصًا في الصباح، مولَّفًا على قناة الراي أونو. وشاء القدر مرَّةً أخرى أن يصحو ماركو كارّيرا من هموده الذي سقط فيه، في اللحظة ذاتها التي شرعت فيها مارينا موليتور بسرد حكايتها. حسنًا، لا يمكن لاستحالةٍ أغرَبَ من هذه أن تجعلك حتميًّا في حياة شخصٍ آخر. فهاتان المصادفتان الرهيبتان (أنَّ كليهما فقَدَ شقيقةً كبرى، وأنَّ كليهما نجيا من الكارثة الجوّيّة نفسها) جعلتا ماركو يقع على الفور في غرام تلك المرأة الشابّة الباكية (لا شكَّ أنَّ جمالها الأخّاذ ساعَدَ في ذلك أيضًا).

وفي اليوم التالي، محشوًّا بالباراسيتامول، عثر عليها بسهولة في المطار، عند شبّاك تذاكر اللوفتهانزا حيث قالت إنّها موظَّفة (لم تكذب بما يخصُّ عملها)، ليشهد بعينيه المشدوهتين على بداية البوكر الذي خدمه به القَدَر. والنتيجة: زلزلةٌ مباشرة في حياتهما المتزلزلتين، وبروزٌ لتشابهات عجيبة أخرى اكتُشِفَت

في غضون ظهيرةٍ واحدة، إضافةً إلى انجذابٍ جسمانيٍّ لا يُقاوم بطبيعة الحال: ابتلعهما الوقت منذئذٍ، وصار العيشُ معًا والحبَلُ بطفلة وإنجابُها والزواجُ كتلةً واحدة، في ظرف اثني عشر شهرًا. سوى أنَّه...

بيته الصغير في ساحة بيرنيني، عشُّ حبّهما، ثمّ بيتهما في ساحة نيكولوزو دا ريكو، بالترّاس المطلّ على روما، التشارك، التقاسم، الحميميّة التي تزداد عمقًا، أيّام الأحد الشتويّة المنقضية في الفراش، للعب مع الطفلة، وممارسة الحبّ حينما تغفو الطفلة، وأيّام الأحد الربيعيّة بالرحلات إلى كاستيلي وبحيرة براتشانو وفريجيني وبومارتزو، أو حتّى النزهات إلى فيلا بامفيلي، فيلا آدا، فيلا بورغيزي، وحتّى الأسفار القصيرة في أوروبا باستغلال البطاقات الزهيدة الثمن التي من استحقاقات مارينا، براغ، فيينا، برلين، حياتهما البسيطة، راتبهما الذي كان يسمح لهما برفاهٍ من نوع البيبي سيتر أو زوجة الناطور التي تنظِّف وتحضِّر الطعام، أعياد الميلاد في فلورنسا في أنقاض عائلته، التي توهَّمَ ماركو أنَّه يحييها قليلًا بسعادته، والأسابيع المنقضية في كابوديستريا عند أمّها، أرملة شرطيّ، التي كانت تعامل ماركو على أنَّه المنقذ، البطل، المخلِّص، هبة السماء، وكان لهذا الأمر أن ينمِّي فيه بعض الشكوك، لكنَّه لم ينمِّها، والطفلة التي تكبر وتتبدّى ملامحها الشبيهة بكليهما، فورثت عن مارينا لون البشرة وقطعة العينين، وعن ماركو الشعر المجعَّد وشكل الأنف، ثمّ بدأت تتكلَّم، ثمَّ مشت، ثمَّ فاجأتهما بوجود خيطٍ موصولٍ بظهرها - وما ترتَّبَ على ذلك من مشكلاتٍ أولى، تصدَّيا لها بصفاء نفس وقوّة روح وثقة بالمستقبل واستعداد للتضحية، بهدف أن يخرج ارتباطهما من المحنة أقوى، لأنَّ بالارتباط تحلُّ كلّ المشاكل، ولا شيء أفضل من حلّ المشاكل معًا لتقوية العائلات.

سوى أنَّه...

سوى أنَّ كلَّ شيء كان مبنيًّا على باطل، منذ البداية، كلُّ شيء كان محض تخييل. وهذا ما يحصل غالبًا عند تشكيل الأُسَر - سوى أنَّ التخييل في هذه الحالة كان مبالغًا فيه، ومَرَضيًّا كثيرًا، فالكارثة قادمة لا محالة. لم يكن أيٌّ منهما بريئًا، ينبغي قول هذا. كان الخيط الموصول بظهر آديلي كارّيرا، والمسار المتَّخذ تحت عناية الدكتور نوتشيتّي بغية إزالة الخيط، هو ما مزَّقَ الفقاعة التي كانت تصونهما حتّى تلك الآونة. فتبادل الأدوار الذي شفى الطفلة - الأب يهتمّ بها والأمّ تهتمّ بنفسها - هو الذي ولَّدَ الصدوع التي هدمت كلَّ شيء - ولكن لو لم يكن ذاك السبب لكان هنالك سببٌ آخر بالتأكيد، لأنَّ ذلك الارتباط كان يفتقر إلى القواعد حقًّا، وما من مستقبلٍ هناك حيث توهَّمَ ماركو أنَّه يوجِّهُ مستقبله.

لم يكن أيٌّ منهما بريئًا. لا ماركو، الذي في رغبته بالسعادة استخفَّ بكلّ شيء طيلة أعوام، بكلّ إشارة، بكلّ فعل، بشكلٍ ممنهج. ولم يكن الأمر متعلّقًا فقط بعدم قدرته على تبيُّن الهاوية التي كان يعدو نحوها: امتدَّت مسؤوليّته لتشمل اليقين التافه بأنَّ بعض تصرُّفاته المدمِّرة - التي بدأت ذات يوم، بباريس، بمكالمةٍ ما كان يجدر به إجراؤها، بشخصٍ ما كان يجدر به لقاؤه - لم تكن لتُحدِثَ تداعيات. لكنَّها أحدثت، وكيف لا. حدث أنَّ ماركو كارّيرا، إذ كان في باريس لحضور مؤتمر، ألفى نفسه يفكِّر بلويزا. هذا لا يعني أنَّه لم يفكِّر بها خلال تلك السنوات، بل فكَّر بها وكيف لا، كلَّ يومٍ فعليًّا، لكنَّها كانت دومًا مجرَّد أفكارٍ مبهمةٍ تُسَلِّمُ بما كان يمكن أن يكون ولم يكن، تذبل بسبب البعاد، وتخمد أكثر في كلّ صيف، في شهر أغسطس، عندما تظهر لويزا أمامه مجدَّدًا، في بولغيري، على الشاطئ، صحبة زوجها وابنيها الصغيرين - واحدٌ في البداية، ثمَّ اثنان - تبتعد، أكثر فأكثر، تبتعد في كلّ عام عن البنت التي عشقها ماركو في أشدّ فترات حياته مأساويّةً. إلّا أنّه في تلك الظهيرة ذات

السماء العالية فكَّر بها كما لو أنَّها شيءٌ قريب، وممكن، واتَّصل بها من فندق لوتيتيا حيث نزل، خلال استراحة من المؤتمر. حلف بأحد أيمانه الرومانسيّة، التي لم تنجح يومًا: إن كانت قد غيَّرت رقمها، أو إن لم تجبني، أو إن أجابت لكنَّها لا تستطيع ملاقاتي، فلن أتَّصل بها أبدًا. لم ينجح، لأنَّ الرقم ما زال على حاله، وقد أجابته لويزا عند الرنّة الثانية وكانت بعد نصف ساعة تدخل إلى مقهى لوتيتيا حيث اقترح عليها أن تأتي إليه - متحمِّسةً وسليمةً كأنَّها آتيةٌ من الماضي مباشرةً. لم يكن ماركو قد رآها منذ أغسطس الفائت، لكنَّه لم يحدِّثها حقًّا منذ أن توقَّفا عن المراسلة، قبل أن تدخل مارينا إلى المشهد، منذ حادِثَتِهِ مع الجمهوريّة الإيطاليّة، أثناء إحدى محاولاته للذهاب إلى باريس لملاقاتها (وقد فشلت لأنَّ ماركو كارّيرا اشتُبِه به بسبب تشابه أسماء بينه وبين إرهابيٍّ مطارَد منخرط في منظّمة «البروليتاريا المسلَّحة من أجل الشيوعيّة»، فأُنزِلَ من البالاتينو في الواحدة ليلًا عند الحدود الإيطاليّة الفرنسيّة، واحتُجِزَ مدّة يوم كامل في ثكنة الحرس العسكريّ في باردونيكيا، ونُقِلَ إلى روما بعربة مصفَّحة وأربعة حرّاس، وسُجِنَ في ريجينا كويلي، واستُجوِبَ في غياب محامي الدفاع من قِبَلِ مدَّعيَين عامّيَن، يبدوان مثل الفأرين في حكاية زن - أحدهما طويل والثاني قصير، أحدهما من الشمال والثاني من الجنوب، أحدهما عجوز والثاني شابّ، أحدهما أشقر والثاني أسمر - وفي النهاية أُخلِيَ سراحه بهمجيّة، هكذا، هيّا، انقلع، بركلات على قفاه، من دون أيّ كلمة اعتذار)، عندما أقنعت تلك الحادثة كليهما أنَّ قدرًا ضاريًا لطالما استكلب على كلّ محاولاتهما في البقاء معًا، ومنذئذٍ تخلَّيا عن الموضوع. ولكنْ، صحيحٌ أنَّه إذا لم تنتهِ قصّة الحبّ، أو كما في هذه الحالة لم تبدأ بعد، فإنَّها تظلُّ تطارد حياة بطليها بتلك الأشياء التي لم تُقَل، والأفعال التي تُقَم، والقبلات التي لم تُعْطَ: صحيحٌ دائمًا لكنَّه كان صحيحًا من أجلهما على وجه الخصوص، لأنَّ ماركو ولويزا، بعد تلك

الظهيرة، وتلك النزهة على امتداد شارع داسا وتلك المحادثة البريئة، استأنفا العلاقة، التي تعني بحالتهما العودة إلى المراسلة، بكثافة، بحرارة، على طراز القرن التاسع عشر، مثلما حدث لغاية عشرة أعوام مضت ولا شيء بعد. لكنَّ هذه الفعلة ليست بريئة، على الإطلاق، لأنَّ كلًّا منهما في تلك الفترة كان متزوِّجًا، ولدى كلٍّ منهما أطفال، وكان على كلٍّ منهما أن يكذب. ولا يهمُّ إذا كان التصعيد الذي بدأ بتلك الظهيرة توقَّفَ خطوةً قبل أن يصدر عنه الإشباع الذي كان سيقلب حياتهما رأسًا على عقب: فهذا كان مجرّد مازوشيّة. كلّا، البراءة في لقاءاتهما لم تعد موجودة، هذا إن وُجِدَت أصلًا. استأنفا التلاقي حتّى خلال العام، لأنَّ ماركو عمل على المشاركة حصرًا في المؤتمرات المقامة بقُطر أربعمئة كيلومتر عن باريس (بروجْ، سانت إتيين، ليون، لويفن)، حيث باستطاعة لويزا بلوغه – لم تقل كيف كانت تفعل، وما الحجج التي تختلقها على زوجها. كانا ينتقلان من النوم في فندقين مختلفين إلى اتّخاذ غرفتين مختلفتين في الفندق نفسه، ثمَّ صارا حتميًّا يقضيان الليل في الغرفة نفسها، في ليون، 24 يونيو 1998: وبينما كان المنتخب الفرنسيّ يفوز على نظيره الدنماركيّ في دوري المجموعات بالمونديال، في الملعب المحلّيّ المسمّى إستاد جيرلان، كان هما في الغرفة رقم 554 في كوليج هوتيل، 5 ساحة سان بول، يتناولان كلوب ساندويتش قاعدين على السرير يشاهدان على قناة آرتي فيلمًا قديمًا لجان رونوار؛ وحين انتهى الفيلم، وكان الفرنسيّون تحت النافذة يحتفلون بالنصر بمسيرات سيّاراتهم، كانا يختمان حبَّهما المستحيل بحركةٍ مازوشيّة سامية، *نذر العفّة*، المعقود بحماسةٍ مَرَضيّة، فيما كانا يصغيان من جهاز الووكمان، سمّاعةٌ لكلّ منهما، يصغيان إلى النسخة المحزنة لأغنية Sacrifice/*تضحية* بأداء سينيد أوكونور – «and it's no sacrifice/ just a simple word/ it's two hearts living/ in two separate worlds»/ *«وهي ليست تضحية/ إنّها كلمة بسيطة/ إنّهما قلبان يعيشان/ في*

عالمين منفصلين» - متوهِّمين أنَّهما بتضحيةٍ كهذه، لن يضرّا بشيء، لن يخونا أحدًا، لن يهدما أيَّ شيء. لم يمارسا الحبَّ مطلقًا، وأقسما على عدم ممارسته أبدًا. تبادلا القُبَل لمرّة واحدة فقط - في *تلك* الليلة، قبل سبعة عشر عامًا، بينما كانت إرينه تغرق في المولينيلّي - وأقسما على عدم تكرارها أبدًا. تسعة وثلاثون عامًا هو، اثنان وثلاثون هي، كانا قادرين على النوم في السرير ذاته من دون الانصياع لما كان كلٌّ منهما يرغب فيه منذ سنوات، بلا قُبَل، بلا مداعبات، بلا ملامسات، بلا أيّ فعل. معتوهان. ولكن إذا كانت لويزا تدرك أنَّ زواجها كان منهكًا، وأنَّ أيَّ فعلة تقترفها بحقّه، فليكن مجرَّد استرجاع الوله القديم بماركو كارّيرا وتغذيته بهذا الورع الإنشائيّ الصبيانيّ، كان يوجِّهها نحو حياة جديدة، فإنَّ ماركو كان يؤمن حقًّا بقدرته على الحفاظ على قصَّتي حبّه العظيمتين، كان يؤمن حقًّا أنَّهما متناغمتان. كان يؤمن حقًّا أنَّه يكفيه *ألّا يباشر* حبّه للويزا كي لا يضرَّ حبّه لمارينا، وهذه هي سذاجته المهولة، مهولة لدرجة أنَّها أصبحت ذنبًا. فإيمانه بأنَّ هولًا مشابهًا، يخلِّفُ آثارًا ملموسة - رسائل مخفيّة لا تطالب إلّا بأن يُعثَرَ عليها، كشوف مصرفيّة من بطاقة الائتمان لا تنتظر إلّا أن تخضع لمراقبة، ولاحقًا إيميلات مؤرشفة في ملفّ «مجلس الأطبّاء» ورسائل نصّيّة متبادلة لا تُمحَى كلّيًّا وتظهر ثانيةً مثل جثثٍ من قعر مستنقع إثر نقرةٍ بالغلط - إيمانه بأنَّ هذا الحجم من الوثائق سيمرُّ مرور الكرام على عيني امرأة مثل مارينا موليتور كان خطأً فادحًا بالفعل. وقد اقترف ماركو كارّيرا هذا الخطأ، ومضى قُدُمًا كلَّ يوم حتّى اصطدم باقتناعه بأنَّ الخطر الوحيد الذي يدهم عائلته متمثِّل بولهه بلويزا لاتّيس، وأنَّ الخطر تحت السيطرة. وإن كان صحيحًا أنَّ لا أحد يستحقُّ ما حصل له، فمن الصحيح أيضًا أنَّه كاد يستحقّه تقريبًا.

أمّا بخصوص مارينا، فالحكاية تغدو أسهل. يكفي وضع «لم» قبل كلّ

ما قالته وأظهرته عن نفسها، وينتهي الأمر: *لم* تكن قد استُبدِلَت بأيّ زميلة على الطائرة التي هوت - ببساطة كانت في إجازةٍ يومئذ؛ *لم* تتبرَّع بنخاعها لشقيقتها - لم يكن متناسبًا؛ *لم* تُغرَم بماركو كارّيرا - كانت مصدومة فقط بتداعيات ابتكاراته هو؛ *لم* تكن البتّة سعيدة بحملها - كانت فخورًا فقط بإنجاب حفيدة لأمِّها المحبوبة؛ *لم* تكن البتّة سعيدة مع ماركو، إطلاقًا، طيلة تلك الأعوام، بل على العكس أضمرت بحقّه كراهيةً صمّاء بكماء؛ *لم* تكن مخلصةً له، حتّى قبل العلاقة الحتميّة؛ وهكذا دواليك. ببساطة، *لم* تكن الشخص التي اجتهدت لتكون عليه، بخوض معركة قاسية يوميّة. ففي كلّ صباح كانت تستيقظ من النوم، مارينا، وتبدأ القتال. في كلّ يوم، مع نفسها. مع دوافعها. كلّ يوم، كلّ يوم. طيلة أعوامٍ وأعوام. فالفقاعة التي كانت تهدي وهم السعادة لزوجها، كانت تضمن لها الحماية من الغول الذي لطالما أراد افتراسها. وخلال الوقت تغيَّرت كثيرٌ من المفاهيم الدالّة على هذا الغول وتلك الفقاعة، بحسب تفسير المحلِّل النفسيّ الذي يتولّى علاجها. وإذا أردنا تبنّي المفاهيم المستخدمة من قِبَلِ معالجها النفسيّ الإيطاليّ الأخير، الدكتور كارّادوري، فالفقاعة اسمها *السياق* والغول اسمه *خارج السياق*. حسنًا، كان كلا الأمرين يسيطران عليها، منذ صغرها حين كانت تعلن لمعلِّمتها، ووالدة صديقتها، وأستاذة الدين، أنَّ أمَّها وشقيقتها ميّتتان وأنَّها بقيت وحيدةً في هذا العالم. الحِداد كان سياقها. أمّا اليأس، وجلد الذات، والعدوانيّة والإدمان (على الموادّ الكيميائيّة، والجنس)، فكانت تُمثِّل الخروج عن السياق. لذا، وبعد مراهقةٍ مضنية، لم تمنعها والحال هذه من إحراز لقب ملكة جمال مدينة كوبر عام 1977، ولا أن تصبح في العام اللاحق أصغر مضيفة في شركة الطيران الصغيرة في بلدها، فإنَّ فترة السكينة الوحيدة التي عرفتها مارينا في حياتها كلّها نشأت على إثر الوفاة الحقيقيّة لشقيقتها الكبرى

- لأنَّ اللوكيميا قد أصابتها حقًّا، وحملتها بعيدًا حقًّا. تبعت تلك المأساة أعوامُ حِدادٍ حقيقيّ، وبما أنَّ الحِداد كان بالنسبة إلى مارينا هو السياق، كانت تلك أجمل السنوات في حياتها. أجمل سنواتها هي أعوام الحِداد - تصوَّروا! لكنَّ الحِداد يندثر من تلقاء نفسه، حتّى عندما نبذل جهدنا لإبقائه حيًّا، وما هي إلّا بضعة أعوام وعاد الغول ليحكم قبضته على حياتها. مخدِّرات من جديد. جنس من جديد. تسريح من العمل لأغراض تأديبيّة - في لوفتهانزا حيث كانت قد عُيِّنَت. ينبغي فعل شيء ما. تمخَّضَت الفرصة حين تعرَّفت عن طريق الصدفة على إحدى مقدِّمات برنامج *هذا الصباح*: الحكاية التي ردَّدتها أمام الكاميرات كانت مؤثِّرة، معقولة؛ والحِداد المزدوج الباكي في ظهورها التلفزيونيّ أمسى سياقها الجديد. لم تكن تريد سوى ذلك، مارينا، لم تكن تريد سوى حِدادٍ تؤوي إليه، لكنَّ تلك الحكاية قذفت بها إلى سياق جديد، أمتن هذه المرّة، وأكثر تماسكًا، ومباغتٍ أيضًا، لأنَّها لم تفكِّر به من قبل إطلاقًا: الزواج. نظرًا إلى أنَّنا قلنا إنَّ لا أحد كان بريئًا، وجب التنويه إلى أنَّ أمَّها كانت على دراية تامّة باضطراباتها، ولكنْ لكونها نائبةً قديرةً عن البرجوازيّة الصغيرة السلوفينيّة، التي ككلّ البرجوازيّات الصغيرة في العالم، تعُدُّ تزويجَ ابنتها بطبيبٍ شفاءً من كلّ الأمراض، لم تقل شيئًا لماركو كارّيرا. ولم يخطر حتّى في ذهنها أن تفعل ذلك. لأنَّها ببساطة رأت النجاة في هذا الرجل، فاحترمته. وإذ رأت مارينا أمَّها تحترم ماركو كارّيرا، تملَّكتها الشجاعة للنهوض كلّ يوم لتناضل لإسعادها. سوى أنَّه...

سوى أنَّ أمَّ مارينا في أحد الأيّام توفّيت - مبكِّرًا، في الستّة والستّين عامًا، بسرطان الكبد. عظيم، هذا يعني: حِدادٌ جديد لمارينا، حقيقيّ، واقعيّ، سيرافقها طويلًا، وربّما العمر بأكمله. ولكنْ لا: مزَّقت قلبَها وفاةُ الشخص الوحيد الذي أحبَّته يومًا. لم يكن هنالك حِداد، إنّما غضب. كيف يُعقَل ذلك؟

بدت لها كلُّ التضحيات التي قدَّمتها لوالدتها محتقَرة بهروبها بتلك الطريقة الجبانة. كيف سوَّلت لها نفسها أن تموت؟ وكيف كانت مارينا لتتعايش مع رضوخها، الآن، بما أنَّ السياق الذي جاهدت للبقاء فيه كلَّ يوم - أي زواجها الحزين الذي تحمَّلته إسعادًا للآخرين - بدا لمارينا إيعازًا من أمّها، لا أكثر ولا أقلّ؟ كانت مارينا، نظرًا إلى جمالها الشديد، ما تزال عرضةً للتغزُّل من كثيرٍ من الفرسان – في العمل، خصوصًا، أو أمام مدرسة آديلي طوال فترة رعايتها لها، أو في النادي الذي سجَّلت فيه، عقب ظهور الخيط حيث تولّى ماركو أمر الطفلة. فما معنى أن تكون عفيفةً الآن وقد استحالت أمُّها تحت التراب وجبةً للدود؟ فعادت إلى ممارسة الجنس هنا وهناك. وكانت تلك الممارسات سريعة في مكاتب عدليّين مقفرة أو في غرف فنادق، أو – لأنَّ توجُّهها الجنسيّ مغايرٌ في السياق، ومزدوجٌ خارجه – خلال استراحات الغداء مع خبيرة تجميلها التي اسمها بياجا، القادمة من حثالة ضاحية ماندريوني، نحيلة ومتمادية بوشومها، ومدبِّرة ماهرة لهزّات الجماع. كانت مارينا تستعيد فرحتها بالعيش الحقيقيّ، والمخاطرة، والانحلال، خارج الفقاعات اللعينة: إلّا أنَّ كونها أمًّا كان يكبح جماحها، وترعبها فكرةُ خلط تلك الفوضى الباهرة بالقبلات على جبين ابنتها الموصولة بخيطٍ كدمى العرائس. لذا بذلت قصارى الجهود لإيجاد سياقٍ جديد، للعودة إلى المأمن، لعدم فقدان السيطرة. علاقة. علاقة مستقرّة، نعم، مع أعلى الفرسان مرتبةً، مثلما كانت أمّها ستنصحها: رائدٌ في اللوفتهانزا أجرى 25.000 ساعة طيران، مسمرُّ البشرة وواخط الشيب، له زوجة وابنتان مراهقتان في ميونخ، وبيتٌ في روما وآخر على جبال الألب النمساويّة، وأهواءٌ مُعدية بالتربيط. كانا يتلاقيان مرّةً أو اثنتين في الأسبوع حدًّا أقصى، بالتوافق مع أجندة رحلاته الجوّيّة ذات المدّة المتوسِّطة، والمتركِّزة على روما، أثناء الظهيرة، في بيته في شارع دل بوسكيتّو – وكانا يستمتعان، آهٍ

نعم، يستمتعان كثيرًا. وكانت مارينا تروي كلَّ مغامراتها على مسمع الدكتور كارّادوري بصراحةٍ فضائحيّة، وبسبب تلك الصراحة ظنَّ حقًّا أنّه بوسعه صدَّ الموجة التي كانت تهدِّدها. كان يوبِّخها أحيانًا، وأحيانًا يفاجئها بالتزامه ضبط النفس إزاء الأهوال التي تحكيها له، غير أنّه كان دائمًا يصدِّقها بلا شكّ: كان مقتنعًا بأنّه وطَّدَ قناةً ثمينةً من الحقيقة مع هذه المرأة التي صنعت من الوهم لغةً، وأنَّ هذه القناة هي السياق الحقيقيّ الوحيد الذي تستطيع مارينا فيه أن تسترشد طريقها بما تبقَّى لها من أمل. ومن جهةٍ أخرى بدا أنَّ هذا الوضع الهشّ يصمد: سنة، سنتان، سنتان ونصف. سوى أنَّ...

سوى أنَّ ماركو لم يكن ينتبه لشيء، ولا يشكّ بشيء، ينصاع للخديعة بسهولةٍ كبرى، وعندما كانت امرأةٌ مثل مارينا تتساءل عن السبب، لا تجد مشقّةً في العثور على الجواب. فما لبث أن همَّت بالبحث حتّى وجدت الرسائل: كان المعتوه قد خبَّأها تحت غطاء العلبة التي تحتوي على رماد شقيقتها (الذي استطاع ماركو الحصول عليه من محفظة الموتى في مقبرة تريسبيانو، بفلورنسا، حيث رشا بخمسين ألف ليرة خادمًا اسمه أديلينو معروفًا باستعداده لخرق القانون، وفتح الصندوق المختوم القادم من المحرقة وإعطاء الرماد بصورةٍ غير شرعيّة للأقارب في حال طلبوه). أي لا وجود لمحاولة فاشلة، إصابةٌ من أوّل تسديدة - وتلا ذلك اطلاعها على الإيميلات، والكشوفات المصرفيّة، وفواتير الفنادق، وكلّ شيء. لهذا السبب لم يكن ينتبه لشيء: كان الوغد يصاحب تلك العاهرة على مرأى من مارينا. منذ أعوام، تبًّا. منذ أعوام. كانا يستخدمان بريدًا محفوظًا، على غرار القرن التاسع عشر. وفي الصيف في بولغيري يتصرَّفان كالجرذان، بالكاد يتجاذبان أطراف الحديث، كي لا يُفضَح أمرهما، لكنَّهما خلال العام يتلاقيان مرارًا. كانا يفكِّران ببعضهما بعضًا، ويحلمان ببعضهما بعضًا، ويستشهدان بأغنياتٍ وقصائد، ويتهامسان،

نيانيانيانيانيا - كانا يتحابّان منذ تسعة عشر عامًا، فعليًّا، ويظنّان أنّهما سينجيان بفعلتهما لا لشيء سوى لأنّهما لا يمارسان الجنس. حقير. حقيرة. حقيران. وهي التي كانت تشعر أنّها مذنبة...

الآن، من المخجل مجرَّد المقارنة بين ما كانت مارينا تخفيه عن ماركو وما كان ماركو يخفيه عن مارينا: الأمر لا يشابه حتّى لقاء رجلٍ مسلَّحٍ ببندقيّة برجلٍ مسلَّحٍ بمسدَّس - نحن هنا بصدد قنبلة ضدّ مقلاع. ورغم هذا فإنَّ اكتشاف تلك الخيانة - لا يهمُّ إذا كان هذان اللعينان لا يتناكحان، فهذه خيانة، كانا بالرسائل يتقاولان أشياء مقرفة - شَحَنَ مارينا بخبثٍ لم تمتلكه من قبل، وجعل منها شخصًا خطيرًا بالفعل. انحرفت خارج السياق مجدّدًا، بحيث ما عادت الشبكة التي رماها الدكتور كارّادوري قادرةً على احتوائها: امتزج جلد الذات بالعدوانيّة، والذكاء بالفجور، والحساسيّة بالخبث، ففعلت مارينا ما فعلت، وكان ما فعلته أقلَّ شناعةً ممّا كان يفصلها عن فعله شعرة واحدة. إنّها مخلوقٌ وحشيّ، مارينا، وحشيٌّ عصيُّ اللجم: فالخروج النهائيّ من أيّ سياق يساوي عندها العودة إلى الديار بعد حياةٍ عيشَتْ بأكملها في المنفى، وإنَّ الموجة الصادمة الناجمة عن تلك العودة لم توفِّر أحدًا من الأشخاص الذين تواجدوا في قُطر دائرة ألمها. فهنالك أمرٌ مؤكَّد: مارينا عانت. عانت بشدّة بوفاة أمّها، وعانت باكتشاف خيانة ماركو لها. وعانت كثيرًا بفعل ما فعلته لاحقًا، وعانت أكثر بعدم قدرتها على فعله بالشكل الذي رغبت فيه، وفي النهاية عانت بعد فعلاتها، المريعة، المخزية، التي لا مهرب منها، عندما وجدت نفسها وحيدةً في قلب فوّهة البركان الناجم عن غضبها.

سوى أنَّ ماركو، من جديد، لم يفهم ذلك إلّا بعد مضيّ سنواتٍ طويلة، عندما أصبح كلُّ شيء واضحًا لديه ولكن دون أيّ فائدة. كان سيفهم أنَّ الذنب ذنبه. مارينا إنّما ابتكرت لنفسها حِدادًا، أمّا هو فقد انقضَّ عليها

واجتاحها بخرافة أنّهما خُلِقَ كلٌّ منهما للآخَر. لم يُخْلَقْ كلٌّ منهما للآخَر. والحقّ يقال: لا أحد في العالم قد خُلِقَ لأحد. ثمّ إنَّ أشخاصًا مثل مارينا موليتور لم يُخلَقوا حتّى لأنفسهم. فهي كانت تبحث عن مأمنٍ فقط، عن سياقٍ تستمرُّ فيه قليلًا؛ بينما كان هو يبحث عن السعادة - لا أقلّ من ذلك. كانت تكذب عليه دومًا، صحيح، وهذا سيّئ، سيّئٌ جدًّا، لأنَّ الكذب سرطانٌ ويتفشّى، ويتجذّر، ويختلط بالمادّة الكيميائيّة التي تفسده - لكنَّ ماركو أقدم على ما هو أسوأ: صدَّقَها.

توقَّفي قبل ذلك (2001)

لويزا لاتّيس

21، شارع بيروز

75016 باريس

فرنسا

فلورنسا، 7 سبتمبر 2001

أخبريني يا لويزا

هل غيَّرتِ فكرتكِ لأنَّهم عرضوا عليكِ عقدًا بالسوربون أم لأنَّني صارمٌ وشموليّ؟ بأيّ كلماتٍ في الفم ينبغي أن أذكِّركِ: «أحبّك لكنّي لا أقوى على ذلك» أم «كلُّ رجلٍ يحاول أن يهيّئ الظروف لتتلاقى امرأته بمرضه»؟ لا أعرف إن كنتِ تنتبهين، لكنَّكِ تركتِنِي، هذا إن افترضنا أنَّنا كنّا معًا، تركتِنِي باستعمال لغتين، وسببين، وقوّة ناريّة مزدوجة. تركتِنِي مرَّتين عمليًّا، وهذا يبدو لي ثقيلًا.

لِمَ لا نقول إنَّنا بعد هذا العام الوحشيّ الذي كنّا فيه معًا، وخرقنا كلّ القواعد التي فرضناها على أنفسنا، واتَّجهنا مباشرةً إلى قلب المسألة، وقلب

المسألة كان نحن الاثنين، لويزا، أنتِ وأنا معًا، أنتِ وأنا سعيدين، عندما حان وقت العودة إلى السياج، إن صحّ التعبير، ضعنا؟ ضعنا حين برزت تلك الأسباب العمليّة التي لم يتوجَّب علينا أنا وأنتِ، خلال عشرين عامًا، أن نواجهها. نجحنا نجاحًا باهرًا في عدم الارتباط: عندما استطعنا أخيرًا أن نكون معًا لم ننجح. لِمَ لا نقول كذلك؟

أنا يا لويزا، كنتُ يائسًا، في العام الماضي، ناجيًا؛ أتسكَّع في أرجاء أوروبا كاليهوديّ الشريد لمجرَّد أن يتسنّى لي قضاء ويك إند مع ابنتي. روما، فلورنسا، ميونخ، باريس، كلُّها سواء، بالنسبة إليّ، لأنَّه ما عاد لديَّ شيءٌ أخسره. كانت قوّتي هي قوّة اليأس الصرفة والبسيطة: قوّةٌ هائلة ووحشيّة، مثلما تبيَّنَ لكِ، طالما أنَّ هذه القوّة لم تتوجَّه إلّا إليكِ.

وأنتِ، كنتِ في القفص ولا تستطيعين الخروج. لم تستطيعي إلّا الكذب، على نفسكِ، على زوجكِ، على أولادكِ، وكان الكذب يبقيكِ في القفص. لكنَّكِ أنقذتِ حياتي، طيلة عامٍ بأكمله: فأيّام الاثنين التي قضيناها معًا في باريس، وشهر أغسطس ذاك في بولغيري، أنقذتِ حياتي حرفيًّا، وعندما كنتِ تنقذينني كففتِ عن الكذب، تركتِ زوجكِ، وفعلتِ كلَّ ما لم تجدي القوّة يومًا لفعله. خرجتِ من القفص.

وأنا لم أكن سعيدًا في حياتي بقدر ما كنتُ بجانبكِ في أيّام يأسي: ليتكِ قلتِ لي حينها ما قلتِهِ لي مساء أمس لكنتُ ذهبتُ مباشرةً إلى المولينيلّي مثل إرينه، أقسم بذلك. لكنَّكِ لم تفكّري مطلقًا بإسماعي تلك الأشياء، إنّما قلتِ لي أجمل الكلمات التي قيلت لي في حياتي، وكنتِ تدركين جيّدًا أنَّ لا أحد قد أحبَّكِ ولا أحد سيحبُّكِ مثلما أحببتُكِ في زماني اليائس ذاك. لأنَّه كان زمانًا يائسًا، لويزا، عجيبًا ويائسًا. وقد انتهى. لِمَ لا نقول كذلك؟

ما زلتُ أحبّكِ يا لويزا، ولطالما أحببتُكِ، ويتمزّق قلبي حرفيًّا إذا فكَّرتُ

أنّني سأخسركِ من جديد: لكنّي أستوعب ما حصل، وما الذي يحصل، أستوعبه ولا يمكنني الاعتراض عليه. بوسعي تقبُّل قراركِ، أجل: فابنتي لديَّ من جديد، الآن، ولزامٌ عليَّ أن أتقبَّلَ كلَّ شيء. ولكن، أرجوكِ، فلنتوقَّف عند هذا الحدّ. لا تقولي لي إنَّ السبب الذي يدفعكِ لهجراني متعلّقٌ بي، مثلما حاولتِ أن تفعلي مساء أمس بينما لذتُ بالفرار: حتّى لو كان صحيحًا، أرجوكِ يا لويزا، لا تكوني صريحةً إلى هذه الدرجة، توقَّفي قبل ذلك. لا تدمّري كلَّ شيء لمجرَّد أنّكِ ما عدتِ تودّين اقتسام حياتكِ معي. كنّا تحدَّثنا بالأمر فقط، في تلك الساعات السعيدة، عندما كنّا سعيدين: لكنَّكِ لم تعديني بشيء، فلا يجدر بكِ أن تشعري بالذنب. أنتِ حرّة الآن وبإمكانكِ فتح أيَّ بابٍ ترغبين، الذهاب أو البقاء، وأن تغيّري فكرتكِ قدر ما طاب لكِ، دون أن تدمّري شيئًا. العقد الذي عرضوه عليكِ، يكفي؛ أولادكِ الذين يعانون في فلورنسا، يكفون. استحالة انتقالي إلى باريس، تكفي. لا داعي لتدمّريني.

الكلمات التي همستِ لي بها حتّى أوّل أمس هي أجمل شيء راودني: دعيها لي.

وتذكَّري أنّكِ طيّبة، يا لويزا. توقَّفي قبل أن تصبحي شرّيرة.

عزيزكِ

ماركو

عن النموّ والشكل (1973-74)

ذات مساء، في البيت بساحة سافونارولا، سمع ماركو وإرينه وجاكومو شجارًا بين أبيهم وأمّهم. لم يحدث من قبل أن علت أصوات شجارهما: كانا بالعادة يتشاحنان خفيةً، همسًا، كي لا يسمعهم الأولاد، والنتيجة أنَّ أحدًا لم يسمعهما باستثناء إرينه لأنَّها كانت تتجسّس عليهما. أمّا ماركو وجاكومو، فكانت تلك هي المرّة الأولى. موضوع النزاع كان ماركو لكنَّه وشقيقه لم ينتبها إلى ذلك: إرينه وحدها التي تعلم، لأنَّها كانت تتابع العركة من بدايتها، بينما لم يصل الشقيقان إلى خلف باب غرفة أمّهم إلّا عندما بدأ الصياح. والحال أنَّ ماركو لم يكن يشبُّ بصورةٍ منتظمة: فمنذ أن كان في سنّه الأولى توقَّفَ نموّه الجسمانيّ عند السنتمترات الأدنى، وبعد عامه الثالث فصاعدًا خرج من الرسوم البيانيّة تمامًا. ورغم هذا كان وسيمًا ومتناسق الجسم، الأمر الذي كان يؤشّر بحسب ليتيتزيا إلى غايةٍ في نفس الطبيعة ليكون على تلك الصورة - لانتزاعه من الحشد، وتمييزه، لتوضيح أنَّ الطبيعة وهبته هباتٍ كثيرة ونادرة. فبالنسبة إليها، كان الانسجام الذي يجسّده هذا الولد - ضامر، صحيح، لكنَّه مشرقٌ، وجذّاب، و... *فحل* رغم صعوبة إطلاق الصفة على طفلٍ صغير - متطابعًا بشكلٍ جليٍّ مع إيقاع نموٍّ مختلف كلّيًّا، وبالفعل حتّى أسنانه سقطت بوقتٍ متأخّرٍ جدًّا. لا داعي للقلق. وبالمحصّلة، ما إن ظهر هذا القُصُور بوضوح، ابتكرت لابنها أكثر الألقاب طمأنينةً، «*الطنّان*»، للتشديد على أنَّ ماركو لا يتشارك مع ذلك الطير الجميل الصِّغَرَ فقط إنّما السرعة أيضًا: السرعة الجسديّة - مشهودٌ له بها في الواقع - التي كانت تفيده في الرياضة؛

والذهنيّة - المؤكَّدة أكثر من أيّ شيء آخر - في المدرسة والحياة الاجتماعيّة. لذا ما فتئت تردِّد المانترا/ التعويذة نفسها، عامًا بعد عام: لا داعي للقلق، لا داعي للقلق، لا داعي للقلق.

لكنَّ بروبو سرعان ما استبدَّ به القلق. فحين كان ماركو طفلًا ظلَّ يعزِّي نفسه بكلام زوجته المطمئن، أمّا عندما تبدَّت معالم المراهقة من دون أن يُظهِرَ جسمُ ابنه أيَّ نيّة على رغبته في التطوُّر بحسب المعتاد، فشعر بالذنب. كيف من المعقول أنَّهما تركا الواجب للطبيعة بمفردها؟ هذا مرض، دع عنك الطنَّان والرنَّان، كيف من المعقول أنَّهما كانا مجنونين لدرجة أنّهما لم يقلقا البتّة؟ ما الخلل في ماركو؟ راح أبوه يستجوب العلم، في العموم بدايةً، دون إقحام الفتى، ولكن ما إن أتمَّ عامه الرابع عشر لم يعد بروبو يطيق رؤيته رابضًا على درّاجته الصغيرة كالبدويّ على سنم الجمل، فأقحمه. والنتيجة سلسلةٌ من الاستشارات، والفحوص، والإثباتات التشخيصيّة، أُقِرَّ في ختامها أنَّ ماركو يعاني أحد أشكال اللاتطوُّر الطوليّ (شكرًا جزيلًا، هذا واضح)، المعتدل وغير الخطير (لحسن الحظّ، لكنَّ هذا واضحٌ أيضًا)، والعائد إلى عدم الكفاية في إنتاج هرمون النموّ. المشكلة أنَّه في ذلك الزمن لم يكن هنالك علاج: كان ثمّة تدابير تجريبيّة، لكنَّها منحصرة بالعموم في حالات اللاتطوُّر الخطيرة، أي القزامة. ومن بين كثيرين ممّن استشيروا، لم يعلن إلّا أخصّائيٌّ واحد، طبيب الغدد الصمّاء عند الأطفال من ميلانو، واسمه فافاسوري، عن قدرته على مساعدتهم بفضل برنامجٍ كان يعمل على تطويره منذ سنوات، وقد أعطى نتائج مشجِّعة جدًّا بحسب مزاعمه. وهذا ما سبَّبَ المشاجرة. أبلغ بروبو زوجته نيَّته تسجيل ماركو في ذلك البرنامج، ردَّت ليتيتزيا إنَّ هذا محض جنون، ردَّ بروبو إنَّ الجنون هو أنَّهما تركا الأمور تجري على عواهنها طوال تلك الفترة، أصرَّت ليتيتزيا على خرافة الانسجام والطنَّان – وكانا

حتّى تلك اللحظة يتناقشان بصوتٍ منخفض، كالعادة، ولم يسمعهما أحدٌ عدا إرينه. دخلت المشاجرة مرحلةً جديدةً كلّيًّا عندما أرادت ليتيتزيا تعزيز أطروحتها حول ضرورة عدم التدخُّل بشؤون الطبيعة، فأشارت إلى كتاب، لا ليس إلى كتاب، بل إلى *الكتاب*، معبود جيلها من المعماريّين، أو على الأقلّ من الذين تزاملهم في الشلّة، ما يعني أذكى الأذكياء المشهورين دوليًّا، بما أنَّ الكتاب ينبغي أن يُقرَأ بالإنكليزيّة لأنَّه لم يُترَجَم يومًا إلى الإيطاليّة: «On Growth and Form»/ «*عن النموّ والشكل*» لعالم الأحياء دارسي ونتورث ثومبسون. عندئذٍ هزَّت صيحةٌ حيوانيّةٌ أركانَ ذلك البيت الكبير، الذي عادةً ما اتَّسم بالهدوء، لتصل بكامل نقائها وعدم لياقتها إلى مسامع الشقيقين اللذين كانا يشاهدان التلفاز: «***ضعي ثومبسون هذا في دبركِ، أفهمتِ؟!!؟***»

تحوَّلَ الشجار فيما بعد إلى مجادلة أكاديميّة، سوى أنَّ طبقة الصوت كانت عالية جدًّا وتضجُّ بالشتائم: لم يكن الشقيقان يفهمان، في حين أنَّ إرينه كانت عابسة ولا توضِّح شيئًا. نعتت ليتيتزيا بروبو بالوغد الوضيع، ردَّ بروبو قائلًا إنَّها لطالما أشارت إلى ذلك الكتاب اللعين لكنَّها لم تقرأه حتّى، مثلما لم يقرأه أيٌّ من الأساتذة القذرين الذين يشيرون إليه بين الفينة والفينة؛ فوجدت ليتيتزيا نفسها مضطرة آنذاك إلى إجراء تلخيص بعباراتٍ يستوعبها حتّى المختلّون للفصل المعنون *ضخامة*، الذي يبيِّنُ بالضبط كيف أنَّ الشكل والنموّ في الطبيعة مرتبطان *رياضيًّا* بقانونٍ انسجاميٍّ جوهريٍّ وثابت، فوصفها بروبو بالدجّالة، لأنَّها لا تقتبس إلّا من ذلك الفصل، أي الأوَّل، حيث أنَّها لم تقرأ غيره، وهلمَّ جرًّا. استمرَّت المشاجرة طويلًا، وانطفأت بعيدًا جدًّا عن شرارتها ألتي أشعلتها - فمن جهتها استثمرت في مفاهيم لا يحلم مهندسٌ فاشلٌ مثله أن يفهمها، من قبيل الماندالا اليونغيّة والعلاج بالفنّ الشتاينريّ؛ ومن جهته

جدَّدَ الدعوة نفسها، أي بوضع الماندالا والعلاج بالفنّ ويونغ وشتاينر في ذات الثقب الذي استقرَّ فيه كتاب ثومبسون. بل أبعد من ذلك: كانت ليتيتزيا ضجرة، ضجرة بما لا يطاق، لم تعد تحتمل. وممَّ كانت ضجرة؟ من الجهد الذي كان عليها بذله لاحتواء دنيء مثله. وليتها تعلم إذًا كم تصدَّعَت خصيتاه بهرائها السخيف! اذهبي إلى الجحيم. بل اذهب أنت إلى الجحيم. قلق الفتيان: بدا أنَّ والديهما يوشكان على الانفصال. إلّا أنَّ إرينه، عوضًا عن إضاعة الوقت بالقلق، تدخَّلت: «ماذا دهاكما؟» صاحت وهي تطرق الباب، «هلّا أنهيتُما هذه العركة؟». هرب شقيقاها إلى الصالون مباشرةً، لكنَّ إرينه أخذت على عاتقها الأمر وظلَّت هناك، عند الباب، تواجههما. باتت راشدة: فمن حيث رؤيتها للأشياء، ما كان لأحدٍ أن يهجر البيت قبلها - لا انفصال إذًا. التفتت أمُّها إلى الباب، واعتذرت، فتبعها أبوها واعتذر بدوره. نظرت إليهما إرينه باحتقار، واقتصرت على القول إنَّه لحسن الحظّ أنَّ ماركو لم يفهم سبب المشاجرة، الأمر الذي كان كافيًا لتحديد مصير (هذا ما يقال بعد فوات الأوان، لكنَّه يقال) ثلاثة أفراد من الأسرة على الأقلّ، إن لم يكن أربعة، إن لم يكن الخمسة جميعًا: مصير والديها ومصير ماركو بلا شكّ.

حدث بالفعل أنَّ بروبو وليتيتزيا، بعد صدمة التوبيخ الذي تلقَّياه من ابنتهما، شعرا أنَّهما مذنبان ومهانان وأنانيّان بحيث سارعا إلى رتق ما مزَّقته تلك المشاجرة في القماشة التي نسجاها بمشقّةٍ ونفاق حول عشِّهما. كان هنالك شيءٌ صلدٌ ويصعب اختراقه في علاقتهما، حتّى إنّهما يعجزان عن توضيحه: لا ليتيتزيا لمحلِّلتها النفسيّة، أثناء الجلسات المؤرِّقة والمركَّزة منذ أعوام على عجزها عن الانفصال عن بروبو؛ ولا بروبو نفسه، خلال أيّام عمله الطويلة والانعزاليّة على اللوح الهندسيّ، بيدٍ جامدة وعينٍ مشحوذة، وأنفاس المدخِّن التي تصدر من أنفه، وذهنٍ سارحٍ بعيدًا إلى حدّ معانقةٍ

غامرة لكامل تعاسته التي لا حدود لها. لماذا كانا يبقيان معًا؟ لماذا، إذا كانا في الاستفتاء الذي جرى قبل بضعة أشهر صوَّتَ كلاهما بيقينٍ تامٍّ لمصلحة الطلاق؟ لماذا، إذا كان أحدهما ما عدا يطيق الآخر؟ *لماذا*؟ بسبب الخوف، قد يُظَنُّ - ولكنْ ممَّ الخوف؟ لا شكَّ أنَّ الخوف موجود، ولكنَّهما لا يتشاركان الخوف نفسه - حتّى في هذه ينفصلان. كان هنالك شيءٌ آخر، شيءٌ مجهول ومريع، يبقيهما معًا - نقطة تواصل وحيدة وغامضة تصون سريان العهد الذي قطعاه قبل عشرين عامًا تقريبًا، *أوان تفتُّح البنفسج*، كما تقول أغنية فابريتسيو دي أندريه التي صدرت مؤخّرًا - مؤخّرًا عن المشاجرة، لا عن العهد، الذي كان سابقًا لها بكثير وما زال على حاله: «لن يتخلّى أحدنا عن الآخر أبدًا، أبدًا، وأبدًا». وبالمحصِّلة، حتّى تلك الأغنية التي كانت تتحدّث عنهما كانت تفصل بينهما، مثل كلّ شيء، ومثل كلّ شيء، بانفصالهما تتفكَّك الأسرة برمَّتها، لأنَّ ليتيتزيا وماركو كانا يستمعان إليهما (كلٌّ بمفرده، من أقراص ومدوِّرات أقراص منفصلة، ودون أن يعرف أحدهما بالآخر)؛ جاكومو وإرينه لا (الأوَّل لأنَّه ما يزال صغيرًا، والثانية لأنَّها تعتبرها مملّة)؛ أمّا بروبو فكان يجهل وجودها تمامًا. ولكنّ لا شيء: كان الاثنان يبقيان معًا، والأسرة لا تتفكَّك، والرباط يزداد بطئًا فلا يتعرَّض للانحلال. الأغنية بعنوان *الحبُّ الضائع*، في حين أنَّ حبَّهما لم يكن يضيع إطلاقًا؛ وكانت الأغنية تنتهي بعبارة «من أجل حبٍّ جديد»، في حين أنَّه لا وجود لحبٍّ جديد لأيٍّ منهما.

ولا شكَّ أنَّ تدخُّل إرينه في المشاجرة أعاد والديها بعضهما إلى بعض. لا شكَّ، كما قلنا، أنَّه حدَّدَ مصيرهما ومصير ماركو. لأنَّه منذ تلك اللحظة فصاعدًا صارت الغلبة للتعقُّل حتمًا، صارت الغلبة للشفقة، والإجهاد في التضحية بالمصلحة الذاتيّة من أجل ما تُسمَّى وما يُفتَرَض أنَّها مصلحة

الأبناء. وما كان لهذا أن ينجح، ليتيتزيا وبروبو لا ينقصهما الذكاء لإدراك الأمر: التعاسة بقيت على حالها حتّى لو غدت خيارًا، وإن صارت ذات يوم النتاجَ الوحيدَ للزواج، فإنَّها تنتقل كذلك إلى الأبناء. ولكنَّ الذكاء نفسه هو الذي أنقذهما من التوهُّم بأنَّ التعاسة مجرّد حادثٍ طارئ ومفاجئ، فالنظر إلى الماضي بحدٍّ أدنى من الصراحة يجبر كليهما على الاعتراف بأنَّ السعادة لم تكن حاضرة على الإطلاق: لطالما كانا تعيسين، حتّى قبل أن يتعارفا، ولطالما كانا ينتجان التعاسة إنتاجًا، باستقلاليّة، مثلما تنتج بعض الأجساد الكوليسترول؛ وكان الفاصل الوجيز للسعادة الذي عرفاه في حياتهما قد عاشاه معًا، في بداية علاقتهما، عندما وقعا بالغرام وتزوَّجا وأنجبا أولادًا. كفّا عن التشاجر فجأةً، في ذلك المساء، وبقيا معًا لا يطيق أحدهما الآخر، ويجرح أحدهما الآخر، ويتشاجران خفيةً وهمسًا لما تبقّى من أيّامهما.

أمّا بخصوص ماركو، فقد عملا ما بوسعهما للتفاهم. بذلت ليتيتزيا جهودًا لتتخلّى عمّا سمَّته محلِّلتها *أسطورة الطنّان* (الابن الذكر الذي يظلُّ صغيرًا، وسامته وفضيلته اللتان تظلّان بعيدتي المنال على أيّ امرأةٍ سواها إلخ)، ولتتقبَّل وجهة نظر بروبو، التي ينبغي بموجبها فعل كلّ ما يمكن فعله علميًّا لمساعدته على النموّ - بالتضحية على المذبح بقناعاتها البرّاقة بمادّة النموّ والشكل التي أنضجتْها بالقراءة (الكاملة، فليقل بروبو ما يشاء) لكتاب دارسي وينتورث ثومبسون. واعتبر بروبو هذا التنازل لا كانتصارٍ شخصيّ، الذي من شأنه أن يعزله أكثر، إنّما كفرصة غير متوقَّعة لتقاسم شيء جديد ومهمّ مع زوجته، التي ما زال يحبُّها رغمًا عن أنفه. لذا اقتادها إلى ميلانو لدى الطبيب فافاسّوري، لكي تتعرَّف عليه وتكوِّن فكرةً عن جدّيّته، وفوَّضها بالتحقُّق بشكلٍ مستقلّ من صلابة خطّته العلاجيّة التي عرضها، وعزم على أخذ حكمها بالحسبان لإنضاج القرار النهائيّ. أعادت

ليتيتزيا بمفردها كلَّ البحوث التي أجراها بروبو - بمفرده أيضًا - في الأشهر السابقة، واستنتجت أنَّ التدابير التي اقترحها الأخصّائيّ الميلانيّ كانت فعليًّا هي الإمكانيّة الوحيدة الجادّة التي بوسع المجمع الطبّيّ في ذلك الزمان أن يقدِّمها لمساعدة ماركو على النموّ. لم يفعلاها معًا، ولكن على الأقل، ولمرّةٍ واحدة بعد وقتٍ طويل، كانا يسيران على الخطى نفسها.

مكتبة سُر مَن قرأ

الرسالة الأولى عن الطنَّان (2005)

ماركو كارّيرا

شارع فولكو بورتيناري 44

50122 فلورنسا

باريس، 21 يناير 2005

ماركو، كيف حالك؟

لا تعتبرني مجنونة، أرجوك، أو منافقة أو ما هو أسوأ، إن كنتُ أظهر هكذا، من العدم، كما لو أنَّ شيئًا لم يكن. الحال أنني اشتقتُ إليك. اشتقتُ إليك. كان صيفٌ واحدٌ لا آتي فيه إلى بولغيري كافيًا لكي أختنق. اكتشفتُ أنَّه لا بدَّ لي من رؤيتك حتّى لو بنظرة خاطفة، مثلما حدث على الدوام، كلّ عام، في أغسطس، منذ خمسة وعشرين عامًا، حتّى لو لتبادل كلمتين على الشاطئ. لا بدَّ لي من مراسلتك. صمدتُ ثلاثة أعوام، لم أعد أحتمل: قرِّرْ أنت إن أردتَ أن تجيب أم لا. واعلَمْ أنني سأتفهَّمك إن كنتَ لا تنوي، لأنَّني أنا التي ابتعدت. لستُ أنسى هذا. ولكن ليس من أجل هذا أراسلك يا ماركو. أكتب إليك لأنني في الأسبوع الماضي استضفتُ صديقةً لي وبقيت هنا

يومين قبل أن تتابع رحلتها إلى نيويورك، وقد جلبت معها عددًا من جريدة المانفيستو صادرًا قبل أسبوعين لأنَّ فيه تقريرًا عن معرضٍ عن امبراطوريّة الأزتك الذي تودُّ زيارته في متحف غوغنهايم. التقرير رائع، يتحدّث عن الحيوانات المقدَّسة والقرابين البشريّة وعن إيمان الأزتك بأنَّ الكون برمَّته وشيك الزوال ولا يمكن منع ذلك، سوى أنّه يمكن تأجيله بتقديم الدماء البشريّة للآلهة. وفي النهاية، ومن حيث لا أدري، فوجئتُ وكاد قلبي ينفطر: تحدَّث التقرير عنك.

«خلافًا للهندوسيّة، والإسلام، والمسيحيّة، التي يتعلَّق فيها المصير بعد الموت (البعث، الفردوس، الجحيم) بكيفيّة الحياة التي عاشها المرء من قبل؛ يتعلَّق المصير ما بعد الحياة عند الأزتك بكيفيّة وفاة كلّ شخص ومتى، باستثناء الملوك لأنّهم كانوا آلهة. المصير الأتعس كان لمن يموت في الشيخوخة أو بسبب المرض: تسقط روحه إلى المستوى التاسع والأخفض في الجحيم، في الميكتلان المظلم والمغبرّ، حيث تبقى إلى نهاية الزمان. أمّا من يموت غرقًا أو بصاعقة فيذهب إلى التلالوكان، مملكة إله المطر تلالوك، حيث يعيش بين طعامٍ وفير ورفاهٍ غزير. النساء اللواتي يتوفَّين أثناء الإنجاب، أي اللواتي يلدن مقاتلين مستقبليّين، يتَّحدن بالشمس أربع سنوات، ثمّ يصبحن أرواحًا مرعبة لطالما جالت في الدنيا. وأخيرًا، المقاتلون الذين يسقطون في المعارك، وضحايا القرابين يتّحدون بمساعدي الشمس في معركتها اليوميّة ضدّ الظلمات. ولكن بعد أربع سنوات يتحوّلون إلى طيور الطنّان أو إلى فراشات.

واليوم وقد اندثرت حضارة الأزتك بأسرها في الميكتلان، ما زلنا نتساءل

أيُّ شعبٍ هذا الذي يبلغ أقصى درجات الرضا بأن يصبح بعد موتٍ بطوليٍّ طنّانًا!»

آسفة يا ماركو. لقد دمّرتُ كلَّ شيء.

آسفة.

لويزا

未来人 (2012)

ميرايجيين، التي باللغة اليابانيّة تعني «*رجل المستقبل*»، وُلِدَت في 20 أكتوبر 2010. وهذا يعني، لمن تهمُّه هذه الأمور - وكانت والدته، آديلي كارّيرا، تهتمُّ بهذه الأمور - أنَّها وُلِدَت في 20.10.2010. كان هذا الاسم وهذا التاريخ جاهزين منذ أبلغت آديلي والدها بأنَّها حامل. «سيكون الإنسانَ الجديد يا بابا» قالت له آديلي بلكنةٍ رومانيّة لأنَّها نشأت في روما، «سيكون «رجلَ المستقبل». وسيولد في يومٍ مميَّز». «فهمتُ» ردَّ ماركو كارّيرا «ولكنْ، مَن أبوه؟»». لم تجب آديلي. ولكنْ كيف، ولكنْ لماذا، ما هذا الأسلوب الفظيع، لا أفهم كيف تفكّرين... لا شيء. لم تقل مَن أبوه. كانت آديلي فتاةً صريحة، واضحة - وهذا ما يُعتَبر معجزةً، قياسًا بما عانته - لكنَّها كانت عنيدةً أيضًا، وإذا اتّخذت قرارًا ما تراجعت عنه. وكانت في هذه الحالة قد اتّخذت القرار: أبو الولد ليس موجودًا، نقطة انتهى. أدرك ماركو كارّيرا أنَّ الإلحاح، والصدام، والإكراه لن يفضي إلى نتيجة: فهذه ليست المرّة الأولى ولا الأخيرة التي يجد فيها نفسه في مواجهة الفجاءة، وكان قد تعلَّمَ أنَّه ملزَمٌ بتقبُّل الفجاءة. لكنَّ الأمر لم يكن سهلًا. لقد ربّى ابنته بشقّ الأنفس كي يُشعِرَها بأنَّها حرّة، وكي تطوِّرَ دومًا وجهة نظرها الخاصّة بها، لذا قد تصوَّرَ دومًا أنَّها ستطير باكرًا - وكان قد تهيّأ لذاك. إلّا أنَّه اكتشف أنَّها ليس لديها أيّ نيّة بالطيران، بل كانت عازمة على البقاء معه. وأخبرته نيّتها بوضوحٍ جليّ، وبراءةٍ محرِجة: ليس لديَّ أيُّ نيّةٍ بالابتعاد عنك يا بابا، لقد كنتَ أبًا رائعًا، وما زلتَ كذلك، وإن كنتَ رائعًا معي فسوف تكون كذلك حتمًا مع ميرايجيين،

«رجل المستقبل». ولكنْ كيف، ما شأن هذا بذاك، ما الذي تتفوَّهين به، شتّان بين هذا وذاك... لا نتيجة.

كان لماركو شعورٌ معقّدٌ جدًّا تجاه ابنته: كان يحبّها طبعًا، أكثر من أيّ شيء آخر - وصحيحٌ أنَّه منذ أن استعادها إليه كرَّسَ نفسه لها مضحّيًا بكلّ شيء عمليًّا؛ لكنَّه كان يشعر تجاهها بالشفقة، إذ يفكّر بطباع أمّها الغريبة، ويشعر بالذنب لأنَّه لم يستطع منحها تلك الحياة الطبيعيّة التي تحقّ لأيّ طفل؛ وكان منشغل البال عليها أيضًا، وعلى استقرارها، على الرغم من أنَّ الخيط الذي ظهر ثانية في ميونخ خلال ذلك *العام الرهيب* اختفى نهائيًّا حالما انتقلت إلى فلورنسا، وأنَّ آديلي في السنوات التسع اللاحقة لم تعد تبدي أيَّ إشارة عن انفصالها عن الواقع. عاش ماركو تلك السنوات التسع كلّها بنَفَسٍ واحد، وهذا لا يُصدَّق إن تمعَّنا فيه، لما انبثق عنها من تفاؤلٍ وإحساسٍ بالخفّة، لاسيّما أنّها كانت السنوات ذاتها التي فقد فيها لويزا، وأحجم عن مسيرته الأكاديميّة، ومرض والداه وتوفّيا واحدًا تلو الآخر، وأعاد علاقته بلويزا، وقطع نهائيًّا مع أخيه، وفقد لويزا من جديد. كانت تلك السنوات كتلةً زمنيّةً واحدة وعجيبة، عاشها بشكلٍ مستمرٍّ تحت الجسر، إن صحَّ التعبير، يستيقظ منذ الفجر، ليعمل كالمجنون، ويشتري الأغراض، ويطبخ، ويقوم بملايين من الأشياء اليوميّة الصغيرة، ويعتني بابنته، وأمّه، وأبيه وما لا يُحصى من الأشياء التي تحيط به. كان ماركو قد *حافظ* على عالمٍ هشٍّ صغيرٍ يكاد يتلاشى من نفخةٍ واحدة لولاه، وهذا ما منحه قوّةً وفخرًا لم يعرفهما في الماضي؛ وكان في الأثناء يتهيّأ لرؤيته يتلاشى بكلّ الأحوال، ذلك العالم، لأنَّ لكلّ شيء نهاية وهو يعلم ذلك جيّدًا، ستغرق فينيسيا في الماء كلّيًّا بظرف ألف عام، كلُّ شيء يتغيَّر، كان يعلم هذا أيضًا، وبظرف ثلاثة عشر ألف عام ستتسبَّب الظاهرة المسمّاة «المبادرة المحوريّة»، بأنَّ القطب الشماليّ لن يشار إليه في القبّة

السماويّة بالنجم القطبيّ إنّما بالنسر الواقع: ولكنّ هنالك أشكالًا مختلفة من الانتهاء والتغيُّر، وكان ماركو قد أوجب على نفسه مهمّة الراعي الذي يرافق الأشخاص والأشياء نحو النهاية الكريمة، نحو التغيُّر الأنسب. وهكذا، طوال تسعة أعوام.

ما ضاع يومٌ واحد من تلك الأعوام التسعة هدرًا، ولا حتّى يورو واحد، ولا حتّى تضحية واحدة. فعلى الرغم من كثافة الواجبات، وجد ماركو في تلك الكتلة الزمنيّة الوسيلةَ لتطعيمها بلحظاتٍ من السلام الصرف، والتسلية الصرفة، بحيث أنّه نقل إلى ابنته على سبيل المثال ولعه بالبحر - في بولغيري، رغم الذكريات الأليمة، حيث بقي كلُّ شيء على حاله منذ أربعين عامًا - والجبل - للتزلُّج، في الشتاء، لا مثلما كان يفعل في صباه بالمسابقات وخسارة المسابقات، إنّما لتذوُّق متعة الاستسلام لقوّة الجاذبيّة وسط الغابات بإتقانٍ ينجّيه من المخاطر؛ وللتنزُّه، في الصيف، داخل تلك الغابات، مثلما لم يفعل ذلك في صباه إطلاقًا، باحثًا عن الحيوانات البرّيّة ليلتقط لها صورة، بأن يباغتها إن أمكن في تلك اللحظة الوجيزة التي تتكرَّم فيها تلك الحيوانات لتبادل النظرات مع الإنسان قبل أن تصنِّفه في خانة الأشياء غير المهمّة، لتعود لتركِّز فضولها على تمثُّلات الخليقة الأهمّ بالتأكيد: الصخور المكسوّة بالطحالب، الحفر التي في الأرض، الأوراق المتساقطة من على الأغصان. وقد كافأته آديلي بأنّها كبرت سليمةً وممتلئة بالحياة، وأنّها درست في المدارس نفسها التي تردَّدَ إليها، وأنّها نأت بنفسها عن الأهوال التي تكتظّ حول أقرانها وأنّها زاولت الرياضة كثيرًا. لكنّها لم تزاول رياضاتٍ اعتياديّة. فبعد أن هجرت المسايفة، انغمست في رياضةٍ نقيّة وغير تنافسيّة، إذ وجَّهت ولع أبيها المبدئيّ بالبحر والجبل نحو تطبيقاتٍ تتمخَّض عنها فلسفةٌ دقيقةٌ للحياة: ركوب الأمواج والتسلُّق الحرّ، اللذان اتّضح أنّها موهوبة فيهما.

وهذا ما أدخلها وهي في أوج الصبا إلى تلك المجتمعات التي لا يخرج المرء منها أبدًا، لأنَّها مجتمعات ذهنيّة، تحشُدُ غير المنتظمين في العالم بأسره - آديلي ظلَّت غير منتظمة، هذا صحيح - بمجموعةٍ تواظب على البحث عن شطآنٍ وجدرانٍ وأمواجٍ وقفزاتٍ خالدة، والبحث بالأخصّ عن مسافة تفصلهم عن الأحزان البرجوازيّة لاسيّما أنَّ هذه المسافة تجعل مَن يجدها أقلّ ميولًا إلى التعاسة. وكان ماركو يرافقها برصانةٍ، ما دامت قاصرًا، إلى أماكن قصيّة وخارقة الجمال - كابو مانو، لاغرافيير، لو غورج دو فردون - ويبقى طوال النهار في حاله يصوِّر الحيوانات أو يراقب تلك الصحبة الرائعة التي تشكِّل ابنته جزءًا منها بركوب الموج أو تسلُّق المنحدرات، وأحيانًا ينضمُّ إليهم على العشاء، وغالبًا ما يتعشّى بمفرده في أحد الأماكن التي يقترحها عليه كتاب الدليل السياحيّ بانتظار عودة ابنته إلى الـB&B حيث ينزلان - وكانت آديلي تعود دومًا، عفويًّا، بلا إكراه، قنوعًا ومدركةً دومًا للحذر الذي يحثّ على ربط أعوامها الستّة عشر بالتمتُّع بالحرّيّة. ثمّ أصبحت آديلي راشدةً وبدأت تتردّد إلى القبيلة بمفردها، وتعلَّمَ ماركو أن يبقى في حيرةٍ وقلقٍ أثناء غياباتها، والشعور بالوحدة، والتمتُّع بامتنانها عندما تعود لمجابهة أشهر طويلة من الدراسة والعمل. لأنَّ آديلي كانت تدرس وتعمل. سجّلَت في كلّيّة العلوم الرياضيّة، التي للمصادفة كانت تقع في الرواق المقابل للمستوصف العينيّ في مستشفى كاريجّي حيث يعمل ماركو، وبفضل هذا غالبًا ما كانا يلتقيان ويتغدّيان معًا في أغلب الأحيان؛ وبدأت تعمل بدوامٍ جزئيّ في الصالة الرياضيّة التي تتدرَّب فيها، حيث استلمت دورات الجُمباز الآيروبيكس الذي تتردّد إليه سيّدات من عمر ماركو، وحالما صُمِّمَت الجدران المجهَّزة للتسلُّق في الصالة استلمت آديلي دورات التسلُّق للأطفال والمبتدئين. كانت تتقاضى أجرًا زهيدًا، صحيح، لكنَّه يفوق ما كان يحصل عليه ماركو

في عمرها بلعب القمار صحبة شنيع الذكر، وهو مبلغٌ جيّدٌ عمومًا لتؤمّن لنفسها الألبسة والوقود لسيّارتها توينغو وتكاليف الـ... - لا مفرّ منه، وعلى الأرجح أنَّه كان ضروريًّا في حالتها - ...ـمحلِّل النفسيّ. كانت شابّة شاطرة، حقًّا، أشطر ممّا كان والدها يأمل، وكانت جميلة جدًّا أيضًا - ذات جمالٍ مباشرٍ ومؤثّرٍ مثل جمال أمّها، لكنَّه ملطَّفٌ ببعض النقائص المستحسنة. وبناء على كلّ ما سبق، إذًا، كان ماركو قد تهيّأ لرؤيتها تطير عنه. بل وصل به الأمر إلى تخطيط فراقهما: تهيّأ لاستمرار إعانتها لسنوات طويلة - ادَّخر بعض المال - لتتسنّى لها الراحة والوقت لتعزيز مهاراتها ودراساتها دون الوقوع في التفكير بالضرورات الاقتصاديّة؛ وتهيّأ أيضًا لرؤيتها تغادر فلورنسا، ذات يوم، أو إيطاليا، أو أوروبا، لتستقرّ في جنّةٍ في آخر الدنيا، ولطالما أغرته فكرة هجران كلّ شيء للحاق بها ذات يوم إلى ذلك المكان البعيد؛ وتهيّأ كذلك لرؤيتها حاملًا وهي في عزّ شبابها، مثلما حدث بالفعل، ليبدي تعبيرًا لا يوحي بالاستياء عندما تخبره بذلك، ولعلَّها تكون في أحضان أحد أولئك الشبّان ذوي الجسد المثاليّ المنتمين إلى قبيلتها. وعلى الرغم من هذا، ومثلما يقع دائمًا عندما نتهيّأ للأحداث المستقبليّة مسبقًا، ونظنّ أنّنا لم نُغفِل أيّ احتمال، باغتته آديلي على غفلةٍ من أمره. «سيكون رجلَ المستقبل يا بابا». «فهمتُ. ولكنْ مَن أبوه؟» لا شيء. سيولد رجلُ المستقبل بلا أب، وستكون آديلي هي الفتاة - الأمّ الراضية والمفعمة بحبّ الحياة، دون أدنى إحساسٍ بالندم، أو القلق. أمّا *الوظيفة الأبويّة* فكانت ستوكلها إليه، طالما أنّه أثبت جدارته بتولّيها.

كان ذلك الإقرار بالمحبّة هو أقوى إحساسٍ راود ماركو كارّيرا في حياته، وقد أشعره بمتعةٍ عميقة، ارتعشت منها ساقاه. هذا من جهة، ولكن من الجهة الأخرى كان من الواضح أنَّ في هذا المشروع أمرًا مقلقًا. لا حاجة حتّى لإزعاج الخيط الموصول بظهرها ليدرك ذلك: تبيَّنَ أنَّ العلاقة بينه وبين آديلي

متشابكة، ومشحونة، وأنَّ عسر هضم التحليل النفسيّ الذي ابتلي به ماركو مذ كان صغيرًا، رغم أنَّه لطالما تصدّى له، سبَّبَ تجشُّؤًا. أليس هذا مرضًا؟ ألا يتّصف بسوء الصحّة؟ وماذا لو أنَّ رفض آديلي تأمين أبٍ لابنها راجعٌ إلى ما لحق بها من أذى عقب الكارثة التي اقترفها هو ومارينا؟ أو ربّما كارثة شخصيّة مسكوت عنها، مثلما حدث لإرينه التي لم ينتبه إليها أحد – هجرانٌ موجع، أو ببساطة رفضٌ لتحمُّل المسؤوليّة من جانب الوالد الطبيعيّ، المتسترِّ خلف إعلانها الجسور بالاكتفاء الذاتيّ؟ وماذا لو أنَّ آديلي قد ورثت عن أمّها النزوع إلى إنكار الواقع واللجوء إلى فقاعة الوهم؟ وماذا لو توجَّبَ على ماركو مرَّةً أخرى أن يُسألَ بخصوص استدامة تلك الفقاعة؟ وماذا لو فشل مرّةً أخرى؟ وبكلّ الأحوال، كيف سينشأ هذا الإنسان الجديد، إذا رعته أمٌّ ذات إحدى وعشرين سنة، وجدٌّ ذو إحدى وخمسين؟ وإن كانت تلك فقاعة، فكم ستدوم؟

كان القدر منذئذٍ وحتّى أعوامٍ قليلة قادمة سيعطي إجابةً واحدة وقاسية لكلّ تلك التساؤلات، إلّا أنَّه في تلك اللحظة يتعيَّن على ماركو كارّيرا أن يتجاوب مع توقُّعات ابنته، ولا ينبغي للإجابة أن تكون محيِّرة. اتَّبع قلبه وتقبَّلَ كلَّ شيء، ليجد نفسه مصدِّقًا مسألة رجل المستقبل هو أيضًا. ولِمَ لا – قال في نفسه – بعد كلّ ما حصل؟ سيأتي هذا الإنسان الجديد إلى الدنيا لا محالة، عاجلًا أم آجلًا. تذكَّرَ مقولةً ليوحنّا الصليب اقتبستها لويزا في رسالة وداع قديمة (واحدة من بين كثر، بينهما): «إن أردتَ الذهاب إلى حيث لا تدري، فعليك أن تمرَّ بحيث لا تدري». لم يكن ماركو كارّيرا يدري إلى أين يذهب، ولم تكن لديه أدنى فكرة بماذا سيمرّ، لكنَّه حبًّا بابنته قرّر أن يمرّ في ذلك، وأن يذهب إلى هناك. ومن ثَمَّ غدا الأمر أسهل: فالوتيرة والأشواط تكفَّلَت بهما البيولوجيا، أسبوعًا بعد أسبوع، وما كان على ماركو

كارّيرا إلّا أن يجد المسافة المناسبة ليضعها بينه وبين ما كان يحدث في جسم ابنته. لم يكن قد خَبِرَ الحمل إلّا مرّةً واحدة، مع مارينا، فاتّخذ تلك التجربة بأكملها أنموذجًا يستوحي منها دوره مع آديلي. اصطحابها إلى الفحوصات: نعم. إلى دورة ما قبل الولادة: لا. وضع يده على بطنها لتحسُّس ركلات الجنين: نعم. منعها من مزاولةِ ركوب الأمواج أو التسلُّق: نعم. تخليصها من كلّ الضغوطات العمليّة: نعم. إرضاء الوحام: لا. بزل السلى: لا (آديلي تعارض القيام به أيضًا). معرفة جنس الجنين عبر جلسات الإيكو: لا (وآديلي كذلك). إعداد قائمة تصفيات لاعتماد الاسم: لا (اختير اسم آديلي بهذه الطريقة، بخوض النهائيّ مع اسم لارا الذي كان ماركو يفضِّلُه في الحقيقة، بما أنَّه اختار التخصُّص العينيّ بفضل الدكتور جيفاكو، مع أنَّه لم يعترف بهذا لأحد)، ذلك أنَّ الاسم اختير سلفًا منذ البداية. بالمقابل، نعم مطلقٌ للتوليد في الماء، مع قابلة تدعى نورما، وفريق مرجعيّ – مستشفى سانتا ماريّا أنونتسياتا - وقد أقرَّت آديلي تلك الخيارات من جانبها أيضًا: وبالتالي لا لمستشفى كاريجو، حيث من الممكن التوليد في الماء كذلك، وحيث كان لماركو القدرة على تأمين بعض الامتيازات لابنته؛ ونعم للتسجيل في الثبوتيّات أنَّ ميراجيين كارّيرا، رجل المستقبل، ووفقًا لدرجة الدقّة الجغرافيّة «وُلِدَ في بونتي نيكّيري»، أو «وُلِدَ في بونتي إيما»، أو لمزيدٍ من البيروقراطيّة «وُلِدَ في حوض ريبولي»، هناك حيث تقع المستشفى المختارة.

وبالمقابل، نعم لتفريغ وقتٍ واهتمامٍ لذاك الاسم، ميراجيين، وأصوله، حيث استطاعت آديلي إشباع كلّ فضول أبيها. الاسم مكوَّنٌ من ثلاثة مقاطع كانجي: 未来 (تُهجَّأ بنظام هيبورن «ميراي» أي «مستقبل، حياة مستقبليّة»، والمركَّبة بدورها من 未 «ليس بعد» و来 «قادم»)، و人 («جين» أي «رجل، شخص»). رجل المستقبل، بالضبط. تُقرَأ المقاطع الكانجيّة الثلاث بالصينيّة

المندرينيّة: «وييلاي رين»، وبالكانتونيّة: «ميي لاي جان»، وبالكوريّة: «ميرايي إن»، لكنَّها تحافظ على المعنى نفسه. التقطت آديلي هذا الاسم من ملحمة مانغا يابانيّة بعنوان «Miraijin Chaos»، لمؤلِّفها القدير أوسامو تيزوكا - أي الذي عرفه ماركو كارّيرا على أنَّه «إله المانغا». كان معبودَ ابنته، هذا الرجل، ولا يعرف ماركو من يكون - رُدِمَت هذه الفجوة بفضل الحكاية المؤثِّرة التي قصَّتها آديلي على أبيها عن سيرة ذلك الفنّان الباسل. (*وها هي، لمن يهمُّه الأمر*: 手塚 治虫: *أوسامو تيزوكا، ولد في طويوناكا سيتي، مدينة صغيرة في مقاطعة أوساكا، عام 1928، السليل المباشر للساموراي الأسطوريّ من حقبة سينغوكو هاتوري هانزو - 1541-1596 - وكان متيَّما منذ طفولته الباكرة بأفلام ديزني، التي شاهدها وأعاد مشاهدتها عشرات المرّات - «بامبي» هو الأكثر مشاهدة، حوالي ثمانين مرّة. ومنذ أن كان في الصفّ الثاني الابتدائيّ بدأ برسم القصص المصوَّرة، والإمضاء عليها باسمِ مستعار «أوساموشي»، وهو نوعٌ من الخنافس المفترسة التي كان يرى نفسه بها بسبب تشابه اسمها مع اسمه الأوّل - وكانت شخصيّاته منذئذ تتّسم بملمحٍ سيغيِّر نمط المانغا جذريًّا، ألا وهو «الأعين الضخمة». وفي طفولته أيضًا يُعدى بمرضٍ نادرٍ ومؤلم انتفخت على إثره ذراعاه، وسيُشفى منه بفضل علاج طبيبٍ ينقل إليه الطموح بأن يصبح طبيبًا بدوره. وفي السادسة عشر عامًا، في العام 1944، يعمل في مصنع لمؤازرة الجهود الاقتصاديّة لبلده أثناء الحرب العالميّة الثانية. وفي السابعة عشر، عندما عذَّبت النظائر المشعّة الناجين في هيروشيما وناغازاكي، تصدر بواكير أعماله، ويبدأ أيضًا بالدراسة في كلّيّة الطبّ في أوساكا، حيث قُبِلَ طلب تسجيله. وفي الثامنة عشر يحصد أولى نجاحاته في النشر، وبالأخصّ مع عمله المعنون «شين تاكاراجيما» أي «جزيرة الكنز الجديدة»، مستلهمًا من رواية روبرت لويس ستيفنسون، ويتابع في الأثناء دراساته في الطبّ. وفي العشرين - عام 1949- يصدر أولى روائعه*

منقطعة النظير، ثلاثيّة الخيال العلميّ بعنوان «زينسييكي» [Lost World]، «ميتوروبوريسو» [Metropolis]، «كيتاروبيكي سيكاي» [Next World]؛ وفي الثالثة والعشرين يتخرَّج من جامعة أوساكا في الفترة التي يصدر فيها عمله «Ambassador Atom» ويسجِّل فيها أسترو بوي ظهوره الأوّل، وهو الطفل - الروبوت الذي سيُقدَّرُ له أن يصبح أشهر شخصيّة من شخصيّاته. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا يبدأ بجعل ملاحمه مسلسلةً، خطوةً أولى نحو الرسوّ الحتميّ في سينما الكرتون، بينما يتابع دراساته بالماجستير ثمّ الدكتوراه. وفي الحادي والثلاثين عامًا، عام 1959، يتزوَّج إتسوكو أوكادا، فتاة منحدرة من مقاطعته، لكنّه يصل متأخّرًا جدًّا عن حفل الزفاف لالتزامه بإنجاز بعض اللوحات المطلوبة من قِبَلِ الناشر بشكلٍ طارئ. في الثانية والثلاثين، ينتقل مع زوجته إلى إحدى ضواحي طوكيو، حيث يشيّد دارًا كبيرةً مزوَّدة بمرسمٍ يتيح له لمَّ شمل أسرته، ويستقبل فيه أبويه العجوزين أيضًا. في الثالثة والثلاثين - عام 1961 - يناقش رسالة الدكتوراه عن تكوُّن النطاف ويحصل على لقب الفيلسوف الدكتور من كلّيّة الطبّ في نارا، العاصمة القديمة الواقعة في جزيرة هونسو، ويشهد على ولادة نجله ماكوتو، ويباشر العمل لإلحاق النواة الأولى لدراساته عن الكرتون، موشي برودكشن، في داره. وما بين الخامسة والثلاثين والأربعين عامًا، وبالوسائل التي تؤمِّنها داره المستقلّة، يبدع ملحمة المانغا الكرتونيّة الأولى التي ستُعرَض على التلفزيون: أسترو بوي، بالأبيض والأسود، ويتلو بيانًا سيصبح شهيرًا بقدر قائله: «قد تنقذ القصّةُ الجيّدةُ رسومًا متحرِّكةً ضعيفةً، إلّا أنَّ قصّةً ضعيفةً لا يمكن للرسوم المتحرِّكة الجيّدة إنقاذها». وبعدها سيحمله عمله العظيم إلى الشهرة حتّى في الغرب، حيث يستثمر الأمر بالتردُّد إلى قاماتٍ كبرى من سويّة والت ديزني، الذي يلتقيه على هامش معرض نيويورك الدوليّ عام 1964، ويشجِّعه على إنجاز مشروع من الخيال العلميّ، لكنَّه لا يكمله؛

وستانلي كوبريك عام 1965، الذي يعرض عليه العمل مديرًا فنيًا في فيلم «2001: أوديسة في الفضاء»، ويرفض العرض متأسِّفًا لاستحالة ترك موشي برودكشن والانتقال إلى بريطانيا مدّة سنة كاملة؛ ولاحقًا، خلال مهرجان في فرنسا، يفتتن موبيوس بعمله ويوافق على المجيء إليه في اليابان العام اللاحق، وبالأخصّ رسّام القصص المصوّرة البرازيليّ ماوريسيو دي سوسا الذي سيصبح صديقًا ودودًا له ويتأثّر كثيرًا بأسلوبه في السنوات اللاحقة، ليدرج في ملحمته الأشهر «عصابة مونيكا» بعضًا من شخصيّاته مثل أسترو بوي، الأميرة ياقوت وكيمبا. يصدر تيزوكا ملحمة ميراجيين عام 1978، بثلاثة مجلّدات، مستبقًا بكلّ وضوح فيلم «Face Off» الذي سيخرجه جون وو بعد عشرين عامًا تقريبًا. وهي حكاية شابٍّ يُقتَل على يد صديقه ليأخذ محلّه في برنامجٍ فضائيّ لم يكن قد قُبِلَ فيه، لكنّ القتيل يُبعَث من جديد عن طريق فتاة غامضة؛ ورغم هذا يصبح المجرم في الأثناء عاتيًا وينجح في اعتقاله قبل أن يستعيد المحلّ الذي يستحقّه، وينفيه إلى كوكب فوضى المشؤوم. وبعد مواجهات بطوليّة وعذابات رهيبة ينجح الفتى في العودة من هناك، ليقضي على الصديق الشرير ويصبح رجلَ المستقبل. أوسامو تيزوكا مولع بتجميع الخنافس، وعاشق لعلم الحشرات، والسوبرمان، والبيسبول والموسيقى الكلاسيكيّة، يكرّس أعماله الأخيرة لشخصيات مثل بيتهوفن وموزارت وتشايكوفسكي. يتوفّى بعد ثلاثة أشهر من إتمامه أعوامه الستّين، في فبراير 1989، بسرطان المعدة. كانت آخر كلماته، بحسب شهادة المقرَّبين، موجَّهةً إلى الممرّضة وهي تنزع من بين يديه كرّاسة مسوَّداته: «أرجوكِ، دعيني أعمل»).

أعجب ماركو كارّيرا بهذه الشخصيّة، مثلما أعجب بصورته التي تحتفظ بها آديلي في الأجندة، بوجهه الجميل المبتسم، ونظّارته السوداء ذات الإطار

الثقيل التي يسمّيها ماركو «النظّارة الصعبة» وقبّعته السوداء. واطمأنَّ إلى أنَّ لرجلٍ من هذا النوع صلةً بخيار ابنته بالإنجاب - وكذلك لأنَّه بدا له ذا صلة مباشرة بأبيه، من حيث الجيل والخيال، بروبو العجوز وتجميعه المتحمِّس لسلسلة أورانيا: ورغم هذا لم يكن إعجابه بالشخص كافيًا لقراءة قصصه المصوَّرة، مثلما أوصته آديلي - لأنَّها كانت بالإنكليزيّة، هذا أوّلًا، وثانيًا لأنَّه لم يحبّ المانغا في حياته ولم تكن لديه نيّةٌ لتغيير فكرته حيال هذا.

كانت لليابان بشكل عامّ صلةٌ كبيرة بهذا الإنسان الجديد القادم قريبًا. أدرك ماركو الأمر عندما بدأ أصدقاء آديلي، رفاقها في ركوب الموج والتسلُّق، بزيارتها في البيت، والبقاء على العشاء أيضًا، نظرًا إلى أنَّها لم تعد تستطيع الالتحاق بهم في غزواتهم. لم يحدث ذلك من قبل، لذا لم يرهم ماركو من قبل قطّ بلباسٍ مدنيّ، كامل - وقد اطمأنَّ لهذه المستجدّات أيضًا، في النهاية، لأنّهم كانوا يبدون أناسًا عاديّين وعاقلين: أي كانت لديهم قدرة للتعامل مع العالم المملّ الذي يعيش به أطبّاء العيون، والباستا بالفرن، بمعنى أنَّهم لا يتحدّثون دائمًا عن الشجاعة البدنيّة وتحدّي الطبيعة. كانوا مؤدَّبين، محترمين. ويودُّون آديلي كثيرًا بالفعل. ويحبّون اليابان جميعًا. أحدهم، على وجه الخصوص، يتميَّز عن البقيّة بجاذبيّته وكفاءته، يدعى جيجو ديتمار دي شميدفايلر، ويُلَقَّب «فتفوت»: شابٌّ أشقر ووسيمٌ للغاية، نبيل الطباع بقدر ما تشي كنيته، وماهرٌ في التسلُّق (أقلّ مهارة في ركوب الموج)، لكنّه قصير القامة فعليًّا، نحيلٌ وخفيف يستحقّ ذلك اللقب الذي يوحي بالتعيير والذي لم يستطع ماركو إلّا أن يربطه بلقبه، الطنّان، إذ ما زال بعض أصدقاء الطفولة يستخدمونه رغم علاج الهرمونات الذي جعله ينمو بضربةٍ واحدة.

كان هذا الفتفوت يتحدّث على السواء عن الساموراي، والشوغون، وكتب موراكامي، وأفلام كوروساوا، والفنون القتاليّة، والمانغا، والروبوتيّات،

والشنتو، والسوشي، وطقوس الشاي، بملامح مَن يبدو أنّه يعرف أشياء تزيد كثيرًا عن التي يتحدّث بها؛ وكان له صوتٌ جميل ولغة ثريّة، ينجذب إليه السامعون مسرورين. كان طالب هندسة، لا أدب يابانيّ، وهذا دليلٌ على أنَّ كلَّ اطلاعه على اليابان تحصَّلَ عليه بمفرده، على سبيل الهواية - هوايةٌ كغيرها تسبِّب العدوى كما يبدو. ذات مرّة ذكر عادةً اعتبرها ماركو في منتهى الأهمّيّة لاستيعاب خيار ابنته: في الغرب، لإيلاج الخيط في ثقب الإبرة، يدفعون الخيط من الصدر نحو الخارج، في حين أنّ اليابانيّين يفعلون العكس، يدفعون الخيط من الخارج نحو الصدر. الفرق، يقول فتفوت، يكمن كلّه في هذا: الغرب = داخل - خارج، اليابان = خارج - داخل. لا شكّ أنَّ هذا الفتفوت كان مصدر الشغف باليابان الذي تشترك به الشلّة بأكملها - لذا فإنَّ عيني ماركو اللتين بقيتا متعطِّشتين لمزيدٍ من الدلائل حتّى بعد قبوله خيار ابنته، رأتا أنَّ الشاب يبدو *عرّابًا* آخر، إن جاز التعبير، ذكرًا مرجعيًّا آخر، إضافة إليه وإلى أوسامو تيزوكا، لحفيده الذي سيولد بلا أب. والحقّ أنَّ ماركو للوهلة الأولى ظنَّ أنَّ الجنين ما هو إلّا ثمرةٌ من أعمال فتفوت، نظرًا لكونه مرتبطًا بالفتاة المتزعِّمة للمجموعة، واسمها ميريام، أكبر من آديلي سنًّا وتتّخذها صديقة مقرَّبة، السبب الذي قد يفسِّر جيّدًا كتمانَ السرّ إلى هذه الدرجة: لكنَّه تيقَّنَ من عدم جواز هذا الافتراض، بسبب العفويّة والخفّة اللتين يبديهما فتفوت لحمل آديلي. تساءل ماركو أيضًا ما إذا كان الوالد واحدًا من الشبّان الآخرين، إيفان ذي القرط اللامع، ربّما، أو الآخر باحتماليّةٍ أقلّ، الذي يدعى جوفانّي، الجميل كالشمَس، عامل الإكسسوار في السينما - وسرعان ما انطفأت هذه الظنون، كذلك بسبب سلوك الشبّان - جميعهم، ذكورًا وإناثًا - مع ابنته. كلا، الوالد ليس واحدًا منهم. ولكن من غير المعقول أنّهم لا يعرفون شيئًا، طالما أنَّ *الخطيئة*، كما كان

سيسمّيها بروبو كارّيرا، قد ارتُكِبَتْ في إحدى رحلات المجازفة في يناير الماضي، بين فارو وساغريس، في آلغارفي، جنوبي البرتغال، حيث تتداعى قبائل من أوروبا قاطبة في كلّ صيف، إذ تغريهم الشروط المثاليّة الناجمة عن تضافر الأمواج العملاقة المتأثّرة بعواصف الأطلسيّ مع التغطية التي يؤمّنها رأس سان فيسنته لتلك الشواطئ. وحتّى لو كانوا على دراية بما جرى، فهم لا يختلفون عنها باعتبار هويّة الوالد أمرًا تافهًا حقًّا، ولم يكونوا يتحدّثون بهذا الشأن، فبالنسبة إليهم، كما بالنسبة إليها، من المنطقيّ جدًّا أن تنجب فتاة بعامها الحادي والعشرين ابنًا بتلك الطريقة. بذل ماركو كارّيرا جهدًا في تأييد هذه الفلسفة مع أنّها تتعارض مع رأيه بالأشياء. وكرَّرَ على نفسه مقولة يوحنّا الصليب مرارًا، بل حتّى إنّه ذكرها ذات مساء، على العشاء، في وجود كلّ أولئك الشبّان، بخصوص ذلك المستقبل الذي لا يعرف أحدٌ كيف يجعله أفضل: «إن أردتَ الذهاب إلى حيث لا تدري، فعليك أن تمرَّ بحيث لا تدري». أبداه الاقتباس بصورةٍ حسنة، لأنَّه يتطابق تمامًا مع فلسفة حياة كلٍّ منهم، لكنَّ ماركو كارّيرا ما انفكّ يرى المسألة أشدَ تعقيدًا.

مرّت الأشهر سريعًا، وتبقّى في النهاية قرارٌ لا بدّ من اتّخاذه: أن يجلس، هو، وساقاه في الماء داخل الحوض، شابكًا آديلي أثناء طلقها ومخاضها، في المكان الذي كان يتعيَّن على والد الطفل لا والد أمّه - نعم أم لا؟ لا شكوك تطرحها آديلي: نعم. تحدّثت في الأمر بطبيعة الحال مع محلِّلتها النفسيّة، لتُثبِتَ بذلك أنَّها عاينت من وجهة نظرها الخاصّة الأسبابَ التي قد يعتبرها هو حرجة من وجهة نظره. وكالعادة في كلّ اللحظات الحاسمة من علاقته بالنساء، شعر ماركو بأنَّه محاطٌ من تلك الساعات - ومن يدري كم - التي نوقِشَ فيها عنه من دونه للتوصُّل إلى نتائج تخصُّهُ. لكنَّه، مرّةً أخرى، تنازل: نعم، قال - باذلًا جهدًا لعدم إظهار محيط التردُّد الذي قُدِّرَ لإجابته أن تقطعه.

وهكذا، في الحادية عشرة صباحًا من 20 أكتوبر ذاك، اليوم الذي لم يمنح حتّى تلك اللحظة الشرفَ لولادة الكثير من عظماء التاريخ - باستثناء آرتور رامبو وأندريا ديلّا روبيا، وفقًا لما استطاع ماركو اكتشافه على ويكيبيديا – سوى أنّه في عام 2010 ذاك، وليقين آديلي التامّ، أصبح صادًّا للشرور بشكلٍ جليّ، كما تبيَّنَ صدقُ التنبؤ الذي لم يوضع موضع شكّ بخصوص انتهاء المهلة؛ فوجد ماركو كارّيرا نفسه في ذلك الحوض الدافئ مع ابنته والقابلة التي اسمها نورما. كان الأمر برمّته أسرع ممّا توقَّع، وهو الذي لا ينسى مخاض مارينا الطويل، قبل واحدٍ وعشرين عامًا. وكان أقلّ إيلامًا أيضًا، نظرًا إلى آهات آديلي القليلة وأنّاتها الطفيفة، وتغيير الوضعيّة بسلاسة للتغلُّب على التشنُّجات. لم يشعر بالحرج في شبكها إطلاقًا وفي إسنادها من إبطيها، ولم يشعر – وهذه كانت مفاجأة حقيقيّة – بذلك الإحساس من العجز الذي لازم حضوره في غرفة التوليد بينما كانت آديلي تأتي إلى الدنيا ما بين صرخات مارينا وضرطاتها. على العكس، شعر ماركو أنّه جزءٌ من ذلك الحدث، شعر أنّه مفيد، واقشعرَّ لأنّه فكَّرَ مجرّد تفكيرٍ بعدم الحضور. فمثلما كانت ابنته تريد وتعتقد، كان كلُّ شيء *طبيعيًّا* بالفعل، بالمعنى الحرفيّ للكلمة، واشتقاقها من «ما يتَّصل بقدرة التوالد». وعندما تمَّت عمليّة الدفع، وأبقت القابلةُ المولودَ تحت الماء عشر ثوان، عشرين، ثلاثين ثانية، لم يشعر بأيّ قلق، ولا نفاد صبر: ليس لأنّه كان يعلم أنَّ السائل هو الموطن الذي ينحدر منه المولود، وأنَّ التنفُّس ما هو إلّا ردّ فعل يتنشَّط حالما يهجر موطنه، بل لأنّه كان مغمورًا هو نفسه في ذلك السائل، وكان يشعر بالارتياح ذاته الذي راود جسد ابنته المتين والعضليّ وجسم ميرايجيين الرقيق والجديد. كانت المياه هي التي تبقيهم معًا، وتتحدَّث، وتواسي، وتعلم. لم ير ماركو في حياته كلّها ألمَعَ من نصف الدقيقة ذاك. كان هذا الحساء العكر الذي يحتويهم، يمثِّل تجربته الوحيدة بعائلةٍ سعيدة.

وبينما كان المولود يُستَخرَج من الماء ويُسلَّم إلى والدته، فوجئ ماركو كارّيرا بأنَّه يعيد قياس حياته بمسطرة التجربة الرائعة التي كان يعيشها آنذاك، مذهولًا من الهناء الذي أدركه حيث لا يذكر إلّا الكدح والصراخ والقذارة، وتساءل لماذا ما تزال الولادة بالماء محدودة إلى هذه الدرجة، لماذا لا تُقدِمُ عليها جميعهنّ. ظلَّ صامتًا يطبع في ذاكرته إقبالَ ميرايجيين على استنشاق نَفَسِهِ الأوّل والهادئ، وإصدار أولى صيحاته، وفتح عينيه (اللوزيّتين) للمرّة الأولى، ولم ينتبه حتّى إلى أنَّ المولود أنثى. علم ذلك بعد قليل من صوت آديلي، من الكلمات الأولى التي نطقتها، وكانوا جميعًا ما يزالون في الحوض، والطفلة على صدرها، يغمرها تعبيرٌ عن الانشراح لا بدّ لكلّ الآباء أن يروه على وجوه بناتهم لمرّة واحدة على الأقلّ: «أرأيتَ يا بابا؟ بدايةٌ موفَّقة. رجل المستقبل امرأة».

حياةٌ بأكملها (1998)

ماركو كاآريرا

بريد محفوظ – روما أوستيينسه

شارع مارموراتا 4 – 00153

باريس، 22 أكتوبر 1998

ماركو العزيز،

انتهبتُ للتوّ أنّني لن أخرج أبدًا من جورجو مانغانيلّي.

كنتُ أنسّق الكتب ودفاتر الملاحظات وكلّ الموادّ التي احتفظتُ بها في المكتب طيلة سنوات بعد أن أنجزتُ الأطروحة. ومَن يدري لماذا رحتُ أقرأ نسخًا كنتُ قد وضعتُها في «المئويّة»، كتابه الذي اطّلعتُ عليه وقرأتُه عشرات المرّات عندما كنت أعمل على الدكتوراه. كانت ثلاثَ أوراق، ثلاث قصائد منسوخة، ولم أستخدمها للأطروحة طبعًا لأنَّ لا شأن لها بالموضوع، احتفظتُ بها هناك، بكلّ بساطة، ونسيتُها، وعثرتُ عليها البارحة حينما قرّرتُ تنحية مانغانيلّي من مكتبي. وعندئذٍ تذكّرتُ مباشرةً اليومَ الذي قرأتُها في أحد كتب أستاذي، والضرورة الماسّة والملحّة لنسخها: لا غيرها،

تلك القصائد الثلاث فقط. ربّما كان ذلك، لا أدري، في العام 1991، أو 1992، كنّا قد قطعنا التواصل وما عدنا نتراسل منذ مدّة. وكنتُ عائدةً للتوّ إلى باريس من بولغيري، في شهر سبتمبر، ومثل أيّ سبتمبر كنتُ تحت وطأة تأثيرك، والأيام العبثيّة المنقضية للتوّ في ذلك المكان الملعون، أيّام ممتلئة بك وفارغة منك في الآن معًا. قرأتُ تلك القصائد وأردتُها، لأنّها تتحدّث عنّا. نسختُها ووضعتُها داخل الكتاب الذي ظننتُ حينها أنّني لن أنفصل عنه أبدًا. ثمّ نسيتُ أمرها، وما عدتُ أطّلع على الكتاب، مع أنّه ما زال هناك يشغل حيّزًا من مكتبي بلا أيّ سببٍ واضح. وفي النهاية، أمس، جاء اليوم الذي قرّرتُ فيه الانفصال عن الكتاب، وإدراجه في المكتبة مع كتبٍ أخرى، بنيّة التخلُّص من هوسي بمانغانيلّي، هوسي الذي يجعل كلّ أملٍ بالتقدُّم الأكاديميّ هنا في السوربون ضعيفًا. وفي لحظة الانفصال الأخير بالضبط، عاودت تلك القصائد الثلاث ظهورها، وبدأ كلُّ شيء من جديد مرّةً ثانية.

ها هي القصائد:

1

لدينا حياةٌ بأكملها

لكي لا نعيشها معًا.

على رفوف الربّ

يطغى الغبار على الإشارات الممكنة:

الذباب الملائكيّ يلطِّخ

ملامساتنا؛

رابضةٌ كالبوم

أحاسيسُنا المحشوَّة.

«بضاعةٌ كاسدة» - يصيح الملاك النحاسيّ -

عشرة صناديق من حيواتٍ، من ممكنات.

وسيكون لنا ميْتةٌ لنموتَها:

ميْتةٌ فجائيّة، غير ضرَوريّة

شاردة، من دونك.

2

كنتُ أرغب في رؤيتك:

أرغب شعرك الخياليّ

لإطلاق صرخات

الحرّيّة في ساعاتٍ بطيئةٍ للغاية؛ تمرُّد

معصميك الأرضيّين

اللذين يلوِّحان بأوائل الرايات،

ويتَّهمان التأخير، اليأس

الحذر، والزمن.

تلزمني صرخة النظرة

وما بعد عنف وجودك

أطالب بضحكتك.

3

سأنجو منك

بالتفاهم مع حضورك:

بكلماتٍ ودّيّة، لبقة،

أُلزِمُك بألّا تكون.

لا أخشى وجهك

إن عرفتُ أنّه مجتَرَحٌ من العدم

ومضةٌ عشوائيّةٌ منّي أنا

لا شيء أنثويّ:

هكذا فقط سأنجو من دمك؛

لأنّك تخيفينني دومًا

إذا دنوت من اللاشيء إلى شيءٍ مّا.

هذه القصّة تبدو مختَلَقة، أعلم. لكنَّك تعرفني، وتعرف أنّني لا أختلق القصص، لأنّه ليس لديَّ مخيّلة. إنّها حقيقيّة، ماركو، مثلما هو حقيقيٌّ أنّني في أسفل الورقة الثالثة – أذكر متى فعلتُها بالضبط، ولماذا، وماذا كنتُ قد شربتُ

قبلها، وكيف كان الطقس، لكنّي لا أريدك أن تشعر بالضجر - كتبتُ بالقلم الأزرق كلمات جورجو مانغانيلّي هذه، الذي بات سجّاني:

«هل تعلمين، إذًا، أنَّ هذا هو توصيف حبّنا، ألّا أكون حيث تكونين، وألّا تكونين حيث أكون؟»

أعانقك (بالرسائل مباح)

لويزا

في المولينيلّي (1974)

قرّرت إرينه كارّيرا الذهاب إلى المولينيلّي في إحدى أمسيات أغسطس، ولم ينتبه إلى ذلك أحد في العائلة ما عدا ماركو، الذي كان في الخامسة عشر من عمره تقريبًا، لكنَّه يبدو في الثانية عشرة بسبب نقص تلك الهرمونات.

وكانت تقلُّبات مزاج إرينه، وحماقاتها، وتمرُّداتها، وفترات صمتها الكئيبة، ونهضاتها الواهمة، واندفاعات الحبّ والتفاؤل، ثمّ عودة الحزن، والغضب والرعونات بهذا الخصوص، بهدف جذب الانتباه، في عمر الستّة عشر، والسابعة عشر، والثامنة عشر، رفعت مستوى الاستنفار لدى أهلها، الذين كانوا قد اعتادوا نوازعها المتخبِّطة. كان يتابع أمرها معالجٌ ماهرٌ جدًّا، في فلورنسا، محلِّل نفسيّ اسمه زايشين، لكنّه مثل كلّ المحلِّلين يذهبون في إجازة طوال شهر أغسطس. وفي الحقيقة كان قد ترك لها رقمًا لتتّصل به في الحالات الطارئة: سوى أنَّ الرقم أجنبيّ، يبدأ بكود مجهول، *طويل*، يغري بعدم اللجوء إليه. واجهت إرينه أغسطس بشجاعة، في أيّامه الأولى، وحاولت أن تستمتع به أيضًا: رحلةٌ إلى اليونان بالتخطيط مع صديقتين لها بعد امتحان البكالوريا، لكنَّه أُلغِيَ بسبب رسوب إحداهنّ؛ ورحلةٌ إلى إيرلندا كخطّة بديلة، لكنَّها فشلت في التخطيط لها بشكلٍ ملموس؛ بعضُ النوايا الطوعيّة في تمضية بضعة أيّام في فيرسيليا، حيث كان كثيرٌ من أصدقائها يقولون إنَّهم استمتعوا هناك، لكنَّ النوايا سقطت في العدم مثلما كان يحدث كلَّ عام. لذا، وجدت إرينه نفسها، قرابة منتصف أغسطس، تلتقط أنفاسها بمشقّة في المنزل الصيفيّ في بولغيري حيث أمضت كلّ فصول صيف حياتها، وحيث كانت

تتوهَّم حقًّا أنَّها ستتمكَّن من الهرب، آنذاك وقد غدت راشدة وحصلت على رخصة سواقة واجتازت الامتحان بدرجة 60/ 60. ولكن، كان خذلان إحدى صديقاتها كافيًا لتصفير كلّ الخطط، ولتسليط الضوء ثانيةً على ضحالة علاقاتها الاجتماعيّة - وهذه الضحالة هي من تداعيات اكتئابها ومن أسبابه في الوقت نفسه. قضت الوقت مع أبيها الذي يقرأ ويطبخ، وأمّها التي تستجمّ بالشمس وتقرأ، وأخويها الصغيرين الرياضيّين، وجولاتها في البحر على متن فوريان القارب القديم الذي نهشته الملوحة، وصداقاتها المحلّيّة التي تزدحم في مراقص المنطقة غير المنصوح بها، والدكتور زايشين المدفون تحت ذلك الكود المجهول، وكان ذلك العام حافلًا بالقلق على ماركو، شقيقها الغرّ الصغير، الذي تعيَّنَ عليه بدء العلاج بعد الصيف فورًا - ورغم الهدنة المبرمة حول القرار بمواجهة هذه المسألة، بلا مشاجرات، ما انفكّ والداها يتحادثان كلّ مساء، وإرينه تتنصَّت عليهما خلسةً.

في إحدى تلك الأمسيات من أغسطس إذًا، حيث تغيَّرَ الطقس فيما تكتسح الريح الليبيّة الساحل، نهضت إرينه عن الطاولة بعد عشاء فاخر من فضلات اليوم السابق، قائلة إنَّها ستذهب إلى الشاطئ لتربط الفوريان بالكوخ، بما أنَّ الليلة تبدو عاصفةً. كما لو أنَّ الأمر طبيعيّ - لكنَّه غير طبيعي: فوالدها هو المهووس بذلك القارب، وكان ينشغل بصونه باستمرار، لا إرينه بالتأكيد. لم ينتبه هذا الوالد إلى شيء، وقال لها «أحسنتِ»، ومضى إلى غرفته. أمّا ماركو فقد أدرك في اللحظة أنَّ إرينه سينتهي بها المطاف في المياه، في ذلك القسم المريع والصغير من البحر المقابل للكوخ، والذي يسمّى المولينيلّي، حيث المياه هائجة على الدوام، والتيّارات تسحب إلى العمق حتّى في حال عدم ارتفاع الأمواج. حيث أربعة أشخاص، منذ أن بدأت عائلة كارّيرا تصيِّف في ذلك المكان، ماتوا غرقًا - وكلُّهم، بحسب ما يشاع، ماتوا

منتحرين. وبينما كانت إرينه تخرج من البيت ومعها نطاقٌ من القنَّب الملفوف على كتفها، ارتعد ماركو وهو يتحقَّق من أنَّ أمّه المنهمكة بغسل الأطباق وشقيقه جاكومو الذي ينشِّفها، لم يفعلا أيَّ شيء لاستبقائها. ارتعد لكنّه أدرك أنَّ إنقاذ شقيقته يقع على عاتقه، وأنَّ هذا أمرٌ بينه وبينها، وسرعان ما أمدَّته الفكرة بالشجاعة. لم يقل كلمة، ولج من باب المطبخ الزجاجيّ وخرج.

كانت السماء غائمة، وحبلى بالمطر. وكان الضوء الدخاني للغسق يتلاشى، والهواء حارٌّ ودبق. هدير البحر الغاضب مرتفع. خرج ماركو راكضًا من الحديقة وسلك الدرب المؤدّي إلى الكثبان، الذي كان قميص إرينه يتبدّى مرفرفًا في آخره. أسرع ليقترب منها، لكنّها انتبهت لوجوده وصاحت به ليعود إلى البيت من دون حتّى أن تلتفت. لم يطعها ماركو - بل اقترب أكثر آنذاك وقد كُشِفَ أمره. لو لم يكن لديها نيّة في الغرق في المولينيلّي، لانتظرته سعيدةً بأنّ أخاها يرافقها لربط القارب بالكوخ: لكنّها لم تكن سعيدة، وردَّدت عليه بأن يعود إلى البيت، وقد التفتت هذه المرّة نحوه وصاحت بنبرة متوعِّدة. لم يتوقّف ماركو بل عزَّزَ خطاه. فتوقَّفت هي، وتركته يبلغها، وعندما وصل ووقف بجانبها حائرًا، أدارته بيديها كأنّه قنّينة بولينغ وسدَّدت إليه ركلة في المؤخرة باغتته وأوقعته أرضًا. «اغرب عن وجهي!» زعقت وعاودت مسيرها بل وراحت تعدو. نهض ماركو وركض خلفها. وعلى الرغم من أنّه أقصر منها - كان أقصر من أيّ أحد - شعر بطاقةٍ غريبة كافية لمنعها من أن تلقي بنفسها في المياه. لو كان هنالك أحد لطلب النجدة بالتأكيد، فهذا أكثر أمانًا، ولكن لا أحد هناك، وكانا قد وصلا إلى الكثبان أصلًا، فأحسَّ ماركو باستعداده القفز إليها، واحتجازها، وإيقاعها أرضًا إن اقتضت الضرورة، وتثبيتها على الرمال إلى أن تستسلم. كان رشيقًا، سريعًا،

ويقدر على الاشتباك: فاجأته إرينه بتلك الركلة، فكان سيمنعها إذا حاولت مجدّدًا.

وعند الكثبان، حيث يشتدّ خوار البحر، توقّفت إرينه ثانيةً، والتفتت. وتوقّف ماركو بدوره بعدما صار على بُعد خطوتين عنها. وكانت أنفاس كليهما لاهثة. حدَّقت الفتاة إلى أخيها بتكشيرةٍ ضارية، أرعبته، وأخذت تضرب الهواء بنطاق القنَّب كما لو كان سوطًا. مشت على أعقابها، موجِّهةً جَلدات السوط نحوه، وما زال يتبعها، مركِّزًا أبصاره على طرف القنَّب الذي يكاد يلسع وجهه. عيناه ثابتتان على رأس تلك الأفعى المندفعة كي لا ينظر إلى وجه إرينه، ويرى فيه ذلك التعبير الشيطانيّ ثانيةً.

وصلا إلى الشاطئ، كفَّت إرينه عن جَلد الهواء وتوقَّفت بجانب القارب. كان الفوريان مستباحًا بالفعل، وقريبًا من الضفّة كثيرًا: إذا ارتفع البحر مزبدًا سحبه معه. وها هي منطقة المولينيلّي هناك، يغلي فيها الزبد في عتمة البحر الرازح تحت الريح الليبيّة المتعاظمة. توقَّفت إرينه تطيل النظر في المياه، تمدُّ جذعها نحو الأمام ككلاب الصيد، فالتقط ماركو نفسًا، واستعدّ لاقتناص اللحظة التي سيقفز فيها لإبقاء أخته في هذا العالم. لكنَّ إرينه خطت جانبًا وعانقت حرفيًّا مقدِّمة القارب الصغير، حانيةً على خشبه الذي نخرته الملوحة مثلما تحنو على ظهر الحصان. ظلَّ ماركو يراقبها، من الخلف، وعضلاته كلُّها متأهِّبة للانقضاض، بينما كانت تؤمِّن القنَّب حول الصاري بعقدة ثمّ تربط الطرف الآخر بخاصرتيها. جرَّت القارب نحو الكوخ، وهي تتراجع إلى الخلف، دون أن يطقطق الكاوتشوك، دون أن ينقِّر الخشب، بقوّةٍ خالصة وسحبٍ مدروس: لم يتدخَّل، لم يساعدها. وعندما بات القارب في مأمن، فكَّت إرينه النطاق عن خصرها وربطته بالكوخ بعقدة أخرى، ثمّ استدارت: نظر ماركو إلى وجهها هذه المرّة، في الظلام الذي يهبط، نظر إليها

جيّدًا، اختفت ملامح الوجه الضاري التي تجلَّت وهي تجلد الهواء.

عادا إلى البيت بخطواتٍ متساوقة ليبقيا متعانقين، لكنَّ العناق كان مخالفًا للمألوف: هو، الذكر، يشبكها من خصرها، وهي، الأنثى، تحيط كتفه بذراعها. وكانت من حينٍ لآخر تحكُّ بإبهامها، بخفّة النملة، رقبته عند العصبين.

Weltschmertz & Co. (2009)

إلى: جاكومو - jackcarr62@yahoo.com

بريد مرسَل - Gmail - 12 ديسمبر 2009، 19:14

الموضوع: ألمٌ كونيّ

من: ماركو كارّيرا

جاكومو العزيز،

ظهر معطىً جديد، وأنا بحاجة أن أخبرك به، لأنّك الشخص الوحيد الذي بقي في هذا العالم قد يهتمّ بهذا الشيء، أو أنّه كان يخصُّك في الماضي.

كنتُ في بيتنا في ساحة سافونارولا، أتحقَّق من أنَّ كلّ شيء على ما يرام. لا تسألني لماذا أقوم بذلك. أذهب لأتحقّق من حينٍ لآخر. أحوال البيت تتدهور شيئًا فشيئًا، ينبغي إخلاؤه، وإصلاحه، وتأجيره، على الأقلّ، بما أنَّ بيعه غير مناسب حاليًّا، طالما استمرَّت هذه الأزمة: ولكن حتّى اللحظة كلُّ ما بوسعي فعله هو الذهاب إلى البيت، من حين لحين، لأتحقَّق ممّا إذا كان هنالك تسريب مياه، أعطال، مشاكل. كي لا تنهار كلُّ أغراضه دفعةً واحدة. فصلتُ الغاز، ولكنَّ الماء لا، على الرغم من رغبتي، وإلّا سيصعب تنظيفه. أنا لا أذهب إليه لتنظيفه، لا أفكّر حتّى في هذا (ثمَ من أجل من أنظِّفه؟)، إنّما أذهب للتحقُّق. كي لا تنهار كلُّ أغراضه دفعةً واحدة. هل تفهمني، أنت

الذي لم يعد يريد أن يطأ بقدميه هناك؟ ربّما لم تفهمني. عمومًا ليس هذا ما أردتُ التحدَّث فيه إليك.

إذًا، كنتُ في البيت يوم أمس. وفي لحظةٍ مّا، لا أدري لماذا، انتابتني رغبةٌ في دخول غرفة إرينه. كنت أعرف أنّها بقيت على حالها، دخلتُها عدّة مرّات في السابق، عندما كنت ما أزال مقيًا هناك، وحتّى عندما كنت أعود من روما خلال الأعياد. كنت أعرف أنّ أمّي وأبي حافظا على حالها دائمًا، نظيفةً، السرير مرتّب، جاهزة، كما لو أنَّ إرينه كانت ستعود بين لحظة وأخرى. كنت أفتح الباب، أدخل وأنظر: السرير، غطاؤه الأزرق، المنضدة المرتّبة، الرفُّ الفوضويّ، المصباح الجميل، المصباح القبيح، الغيتار على مسندته، الأقراص، مدوِّر الأقراص، الخزانة وعليها ملصق جاك مايول، وملصق ليديا لانتش، بيت الدمية على الشلّال الذي صمَّمه أبي خصّيصًا لأجلها، تلك التحفة الفنيّة الرائعة. كنت أدخل، وأنظر وأخرج. وكنت أفعل ذلك في الماضي أكثر من الآن، الحقّ يقال: فالآن لا أذهب إلى البيت إلّا للتحقُّق من عدم وجود أعطال، فلا أدخل غرفتها أبدًا، بالعادة، لأنني على ثقةٍ من أنّ تلك الغرفة لم يعد بوسعها أن تُحدِثَ أيّ مشكلة، أبدًا. إنّها غرفةٌ في سلام، آمل أن تفهم ما أقصده. ولكن صباح أمس، لا أدري لماذا، دخلتُها. ولم أكتفِ بالنظر: جلستُ على السرير، منتهكًا صفاء الغطاء الأزرق. أضأتُ المصباح الجميل. جلستُ إلى المنضدة. ولو أنَّك سألتني خلال هذه الأعوام، وهي كثيرةٌ حقًّا، ماذا يوجد على منضدة إرينه، في غرفتها التي في سلام، لكنتُ أجبتُك: «لا شيء». بمعنى، كنتُ سأقول: هناك المصباح الجميل، وخريطة الكرة الأرضيّة من ناشيونال جيوغرافيك تحت الصفيحة الزجاجيّة والبوستر النافر من روكي هورور بكتشر شو الذي لم تلصقه إرينه على الجدار - بمعنى، لا شيء، حقًّا. إلّا أنّه كان هنالك شيءٌ مّا، كان موجودًا دومًا،

وما زال. كتاب. واحدٌ من تلك الكتب القديمة، التي حوفِظَ عليها جيّدًا، غلافه بلا رسومات مجلَّدٌ بمنديلٍ شفّاف وواقٍ مثل روايات أورانيا التي جمعها والدنا. لم أنتبه لوجوده يومًا، ربّما لأنَّ لونه من لون المنضدة تقريبًا. الكتاب هو ديوان شعر. فصولٌ كثيرة، عنوانه. لجاكومو برامبوليني، كاتبٌ لم أسمع باسمه من قبل. أخذتُ الكتاب بيدي وتلمَّستُه، لأنّ المنديل الشفَّاف يغريك بحيث لا تقوى إلّا على ملامسته. ثمّ فتحتُه عشوائيًّا. ليس عشوائيًّا في الحقيقة: فتحتُه حيث الكتاب نفسه يريد أن يُفتَح، من الصفحة 25، التي سقطت منها ورقة دفتر مطويّة. وقبل أن أفتح الورقة، قرأتُ الشعر المطبوع في تلك الصفحة. هذه هي القصيدة:

إن كنتَ ستتركني

سأذبح نفسي، تعلم هذا؛

وعلى هذا تعوِّل، وأعرف ما تفكِّر فيه:

سأكون أقوى.

حبُّنا كلُّه ثقةٌ تمامًا!

ولكن... ولكن

كلَّ عذابٍ من عذاباتك

سيكون له لديَّ اسمٌ وطبيعة؛

وسأكابد عذابك نفسه

بلا أملٍ بابتسامة.

في الفجر تتأرجح قمم

الحور مع الريح بلا اكتراث؛

رجلٌ وامرأةٌ ينصرفان، كأنّهما

شكلان للزمن أزليّان وأبديّان.

لا أعرف يا جاكومو، تبدو لي هذه أتعس قصيدة كُتبَت حتى الآن. أمسكتُ الورقة التي سقطت على الأرض، وفتحتها. كانت بخطّ إرينه، بقلم الحبر الأزرق. قرأتُها:

يونيو 1981

Weltschmertz & Co.

«Weltschmertz» (مظلَّلة) - ألمٌ كونيّ.

تَعَبُ العالَم. جان بول. تولكاين. إلفي.

جاكومو برامبوليني، «فصولٌ كثيرة».

لا معياريّة (مظلَّلة) - إميل دوركهايم، «الانتحار» (1897)

الدوكخا (مظلّلة) - سنسكريتيّة. ظرف الألم. ترجمة حرفيّة: ما يصعب تحمُّله (مظلّلة)

كان الباجافان في شراوستي وقال: «أيّها البهيكهو، سأعلّمكم عن ظهور الدوكخا مثلما عن اختفاء الدوكخا. اسمعوا، وأصغوا إلى كلماتي جيّدًا، فسوف أتحدَّث».

«حسنًا أيّها الجليل» ردَّ البهيكهو. وقدَّمَ الباجافان تعليمه:

«أيّها البهيكهو، ما ظهور الدوكخا؟

من العين والأشياء المرئيّة يظهر الوعي البصريّ؛ ومن التقاء الثلاثة يظهر التواصل. ومن التواصل يظهر الإحساس؛ ومن الإحساس يظهر الاشتهاء. وهذا هو، أيّها البهيكهو، أصل الدوكخا.

من الأذن والصوت يظهر الوعي السمعيّ؛ ومن الأنف والرائحة يظهر الوعي الشمّيّ؛ ومن الذهن وأشياء المعرفة يظهر الوعي الذهنيّ؛ ومن التقاء الثلاثة يظهر التواصل؛ ومن التواصل يظهر الاشتهاء. وهذا هو، أيّها البهيكهو، أصل الدوكخا.

وما اختفاء الدوكخا، أيّها البهيكهو؟

من العين والأشياء المرئيّة يظهر الوعي البصريّ؛ ومن التقاء الثلاثة يظهر التواصل؛ ومن التواصل يظهر الإحساس؛ ومن الإحساس يظهر الاشتهاء. ومع انقضاء ذلك الاشتهاء تمامًا بوساطة درب الآراهات ينقضي التعلُّق؛ ومع انقضاء التعلُّق ينقضي البهافا [الصيرورة، ملاحظة المترجم]، ومع انقضاء البهافا تنقضي القيامة؛ ومع انقضاء القيامة تنقضي الشيخوخة والموت؛ ما يعني أن ينقضي العذاب، والحسرة، والوجع الجسديّ، وتشتُّت

الذهن، والاحتضار. وبهذه الطريقة يتحقَّق انقضاء الدوكخا كلّها. وهذا هو، أيّها البهيكهو، اختفاء الدوكخا».

كانت إرينه تعاني أسوأ ممّا كنّا نتخيَّله جميعًا يا جاكومو.

أخذتُ الكتاب إلى بيتي وقرأتُه كلّه بنَفَسٍ واحد. القصيدة التي في الصفحة 25 هي أجمل القصائد بشكلٍ واضح، وأتعسها أيضًا. وفي النهاية – كدتُ لا أنتبه – وجدتُ الجملة التالية تحت ثنيّة الغلاف الخلفيّ، في الأسفل، بحيث لا يراها أحد، مكتوبةً بالقلم الرصاص، بأحرف صغيرة، كما لو أنّه لا ينبغي لأحد قراءتها:

«يجب أن نكون حذرين جدًّا عند تفريغ ما في أنفسنا، يا لورنزو. دائمًا»

لورنزو؟

اللعنة، مَن يكون لورنزو هذا؟

لم نكن نعلم عنها شيئًا يا جاكومو. كانت تعلم كلّ شيء عنّا جميعًا، لكنّنا لم نكن نعلم عنها شيئًا.

أعانق الشاشة

ماركو

Gloomy Sunday (1981)

الأحد 23 أغسطس 1981.

المكان: بولغيري، أو بالأحرى ذلك الجزء الساحليّ في جنوب مارينا دي بيبونا الذي يسمّيه بعضهم رينايوني، وآخرون بالوني، في حين أنَّ أسرة كارّيرا تسمّيه بشكلٍ عامّ بولغيري، ولا تقصد بذلك البلدة القريبة والمحيطة بقلعة غيراردیسکا، إنّما غابة الصنوبر والشاطئ في أسفلها مباشرةً - وحتّى هذان، بالمناسبة، كلُّهما تقريبًا من أملاك تلك العائلة النبيلة. وفي ذلك الجزء البرّيّ من الساحل، في مطلع الستّينات، وجد الزوجان كارّيرا وسيلةً لشراء منزلٍ صغير ومهدوم يقع خلف الكثبان تمامًا، وتحيط به قطعة من غابة الصنوبر. كانا ينويان أن يجعلا منها المكان - الرمز للسعادة التي، بابنين صغيرين وثالثٍ على الطريق، كانا متيقّنين من استطاعتهما نشرها في العالم. وقد أشرف كلاهما على إعادة بناء الطلل، بانسجام، ليتيتزيا اهتمَّت بالشكل وبروبو بالنموّ، حتّى بات مع الأعوام يتّسع ويصبح أجمل، بتراخيص وبدونها، لذا تحوَّل من مكانٍ سائب إلى مصيفٍ فاخر في قلب الماريمّا. ولسوء الحظّ أنَّ الانسجام ما بين ليتيتزيا وبروبو تبدَّد، وصار التشديد على تمضية الإجازة معًا في كلّ عامٍ أشبهَ ما يكون بآفة جلد الذات.

مكانٌ آخر ينبغي ذكره، بخصوص ذلك المساء إيّاه، وهو مطعمٌ على الشاطئ في سان فينشنتزو، افتُتِح منذ أقلّ من عام وكان يحظى بصيتٍ ذائع.

ومكانٌ آخر أيضًا، هو خليج باراتّي، الغنيّ عن التعريف: إحدى عجائب الدنيا.

أسرة كارّيرا بأكملها في المنزل في بولغيري. الباستا بالراغو التي حضَّرها بروبو منذ أربعة أيّام، وأدخِلَت في الفرن مرارًا واستُهلِكَت، حتّى كادت تبدو أنَّها تعيد ولادة نفسها بنفسها مثل خنزير أودين، نفدت بكلّ الأحوال. وبما أنَّه يوم أحد، لم تأتِ السيّدة التي تدعى إيفانا من بيبونا لتطهي وتنظِّف: فعلى العشاء، إذًا، لا يوجد شيء. يتصدّى فردان من الأسرة لهذا التحدّي في العادة وهما بروبر وماركو، إلّا أنَّ كلًّا منهما شاردٌ بالتزاماتٍ أكثر حزمًا. بروبو لأنَّه سيذهب صحبة ليتيتزيا إلى سان فنشنتزو إلى مطعم «القريدس الأحمر» للاحتفال بعيد الميلاد الخمسين لأرملة صديقه ألدينو مانسوتّي: اكتشفه هو، بروبو، ذلك المطعم المذهل على شاطئ البحر، وأقنع تيتّي لاصطحابها برحلة بالسيّارة تدوم ثلاثة أرباع الساعة من بونتا آلا إلى هناك. حجز الطاولة هو، وسيدفع الحساب هو، وستكون سهرته هو، مع أنَّ المحتفى بها هي تيتّي. فآخر همومه الفراغ الذي يخلِّفه في منزله.

أمّا ماركو فينتظره حدثٌ سيغيِّر حياته: دعا لويزا لاتّيس إلى العشاء، الصبيّة التي تسكن في المنزل المجاور والتي يعشقها منذ سنتين، وقد وافقت. ليست دعوةً عاديّة، وذلك لأسبابٍ ثلاثة: 1، لأنَّ لويزا عمرها خمسة عشر عامًا فقط، وهو في الثاني والعشرين - ما يعني أنَّه أغرم بها عندما كانت في الثالثة عشر؛ 2، لأنَّ أسرته وأسرة لويزا في خصومة منذ أعوام، وكلًّا من الأسرتين يدَّعي أداء دور الضحيّة في مسرحيّة الجيران الأشرار المعتادة. أصل المشكلة يعود إلى اتّهامٍ مشين وجَّهه والد لويزا (محامٍ عملاق، متعجرف ورجعيّ، سيتسنّى له في العام اللاحق أن ينتقل بأسرته كاملةً إلى باريس «خوفًا من الشيوعيّين») لوالدة ماركو، قبل أعوام، بأنَّها دسَّت السمَّ بكرات

اللحم وأطعمتها لكلبه البوينتر المحبوب، الذي كان يقضي الليالي بأكملها في النباح حتّى صدَّعَ أيورهم فعليًّا. فالكراهية التي لا تُشفى هي بين ليتيتزيا والمحامي: فأمُّ لويزا وبروبو كارّيرا، المتشابهان في الطباع، بقيا على الحياد دومًا، يقتصر كلٌّ منهما على تحمُّل نوبات غضب شريكه، بينما تآخى أولادهم في البدء، فهذا منطقيٌّ في أماكن معزولة كذاك، حيث ليس من السهل العثور على جارٍ بديل - ولاحقًا أَحَبَّ أحدهما الآخر بالسرّ تقريبًا. كانت إرينه هي التي خرقت الحظر، قبل أربعة أعوام، عندما صاحبت شقيق لويزا الأكبر، كارلو، شابٌّ بسيط، إن صحَّ الوصف، كلُّه رياضة، شعرٌ أشقر وبرٌّ بوالديه، وكانت إرينه ستحتقره في ظروفٍ اعتياديّة، لكنّه جرّاء ذلك الخلاف العائليّ أصبح تجسيدًا للفاكهة المحرَّمة - فقبَّلتْه طوال الصيف على الشاطئ تحت أعين المتحاربين المحمرَّة، ثمّ رمته كأكياس الزبل في فلورنسا، في سبتمبر، عندما لم يعد هناك أعينٌ ترى وتغتاظ. بعد فترة (قبلها بعامين، كما قلنا) وقعت الصاعقة التي دوَّخت ماركو حين رأى لويزا، وقد كبرت فجأة قياسًا بالصيف السابق، إن لم يكن بالسنّ، إذ كانت في ربيعها الثالث عشر فحسب، فبالجسم، على الأقلّ، وبشكلٍ مثير للاستغراب - وبالعقل أيضًا، بطبيعة الحال، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ نظرة ماركو القاضية أصابتها وهي جالسة على الرمال، تسند ظهرها إلى الكوخ، ومندمجة بقراءة ليس أقلّ من *الدكتور جيفاكو*، أي كتابه المفضَّل. فما أمضى ماركو العامين التاليين لتلك النظرة إلّا بانتظارٍ ساذج وطاهر أن تبلغ لويزا عمرًا يبدو فيه اهتمامه بها سليمًا، وفي ذلك الصيف بدا له من الواضح أنَّ انتظار عامٍ آخر قبل أن يصارحها يعني فقدان الأولويّة التي كان موقنًا بجدارته بها - ما يشبه *استحقاق الاكتشاف*، فلنسمِّها هكذا، مثل استحقاق أبيه باكتشاف القريدس الأحمر، أو مثل استحقاق إرينه باكتشاف موسيقى نِك دريك. وإلّا ما كان سيجعل تلك

الدعوة على العشاء مخزية فعلًا، هو السبب رقم 3، الذي لا يعرفه ماركو، أمّا لويزا فبلى: في صباح اليوم نفسه، كان جاكومو العائد للتوّ من رحلة ما بعد البكالوريا إلى البرتغال رفقة صاحبته - جاكومو، نعم، المتهوِّر، المفتول العضلات، السريع الغضب، الكريم السخيّ، أخوه الأصغر، المختلف عنه كثيرًا، وسيمٌ، أنيقٌ، أسمر، علاوة على كونه هشًّا وحسّاسًا ومعقّدًا أيضًا - في ختام مسارٍ متباطئ لتقرُّبٍ مطابقٍ، ومماثلٍ بالسرّيّة والعذاب، لا بل يفوقه سرّيّةً وعذابًا إذا اعتبرنا أنَّه قبل عامين وكان مصاحِبًا وجَّهَ للويزا الدعوة ذاتها - وهي التي قد حسمت أمرها منذ أن كانت صغيرة، لذا قبل الجميع، رفضتْ. ورغم أنَّ ماركو لم يخبر أحدًا من أهله مع مَن سيخرج هذا المساء، فإنَّ جاكومو الذي ما زال ناقمًا من رفض دعوته، تكهَّنَ بالأسوأ - إذ رآهما، شقيقه ولويزا، يدردشان على الشاطئ. فمن المؤكَّد أنَّه ليس في مزاجٍ يسمح له بالتفكير بالعشاء هو أيضًا.

إرينه، من جانبها، في حالٍ يُرثى لها. واضح. واضحٌ جدًّا. واضحٌ من الهالات السود حول العينين، من النظرة المحطَّمة، من العِرْقِ الأزرق النافر على الصدغ، من الشعر الذي تتساقط منه قشرة البحر حتّى إنّها لم تتشجَّع على عقده، من الخطى الشبحيّة وهي تجول في المنزل وسمّاعات الووكمان في أذنيها - وبالأخصّ من الموسيقى التي تستمع إليها، إذا تجشَّم أحدكم عناء سماعها: «Gloomy Sunday» الأحد الكئيب، هذا ما تستمع إليه، أغنية الانتحار المجريّة، المسؤولة بحسب الأسطورة عن انتحار عشرات الأشخاص، في بودابست، خلال الثلاثينات، بسبب التعاسة القاهرة التي تخلِّفها، تستمع إليها إرينه بنسختها الأكثر حدّة، الهامسة، الناشزة، اليائسة والخالية من المقطع الذي أضافه الأمريكيّون لتهوين أشجانها: («dreaming, I was only dreaming»، أي أنَّ كلَّ ما ورد في الأغنية كان مجرَّد حلم، والبطل

لا ينتحر في الحقيقة)، وقد أدَّتها مؤخّرًا ليديا لانتش، معبودة إرينه، التي سجَّلتها بنسخٍ تتكرَّر من تلقاء نفسها على وجهي الشريط الذي تستمع إليه، منذ أيّام، هذه الأغنية فقط، في الووكمان الأحمر الذي أهداه لها أخواها في أعياد الميلاد. نعم، هذه الأغنية هي بمثابة جهاز إنذار يرنُّ منذ أيّام، ولكنْ لا يسمعه أحد. نعم، إرينه في حالٍ يُرثى لها، ولكنْ لا يراها أحد.

حتّى ليتيتزيا لا ترى اكتئابها، مع أنَّها بلا رغبةٍ في مرافقة زوجها إلى ذلك العشاء، كان بإمكانها إذًا أن ترى ما حلَّ بإرينه، وأن تتذرَّع بها لتبقى في المنزل وتحضِّر وجبة سباغيتّي؛ وبعد ذلك ربّما إذا انتبهت إلى حال ابنتها المزرية، لكنَّها لا تنتبه، تحاول أن تسألها إن كانت راغبةً بالفضفضة قليلًا، ولعلّها تتلقّى مقابل ذلك شتيمة متّقدة قد تؤدّي إلى النجاة نظرًا إلى الوضع المتأزّم. لكنَّها لا تراه: ليتيتزيا لا ترى ذلك الفيل الراكض الذي سيدهس أسرتها. إرينه غير راضية، منعدمة الرغبة، كالعادة. أصابها صداع خفيف، كالعادة. لا رغبة لديها بفعل ما ستفعله لكنَّها ستفعله، كالعادة.

لا أحد يفكّر بالطعام، هذا المساء، في منزل كارّيرا، لا أحد يفكّر بإرينه – والمنزل يفرغ. في البدء يخرج ماركو، عليه أن يموِّه بسبب الحرب الناشبة بين الأسرتين. يحيِّي ويخرج، مسلوب اللبّ بالعمليّة التي دبَّرها مع لويزا. ستخرج بعد قليل هي الأخرى، بالدرّاجة الهوائيّة، متّجهةً إلى بيت صديقتها فلوريانا، المتواطئة معها في هذه الخدعة، مثل مربِّية جولييت. إلّا أنَّها عوضًا عن دخول بيت صديقتها ستواصل مباشرة لبلوغ البيت الأحمر حيث سيكون بانتظارها. ستترك درّاجتها هناك وستركب بالفوكس فاكن بجانبه، هو الذي قرَّرَ سلفًا إلى أين سيصحبها: إلى أجمل مكانٍ في العالم. للمرّة الأولى، في سنّه الثانية والعشرين، سيجرِّب ماركو السعادة، وهو يعلم. من دون أن يحدِّثها بالأمر، يعلم أنَّ حبّه للويزا متبادل. يعلم ما الذي سيحدث - تقريبًا - وفي

رأسه لا مكان لشيء آخر.

ثمّ يخرج بروبو وليتيتزيا. متأنّقان، ومزاج بروبو رائقٌ حقًّا، ليتيتزيا تتظاهر بذلك - في البداية فقط، لأنّها ستكتشف، ما إن تركب السيّارة، وبمفاجأةٍ كبيرة، أنّ مزاج زوجها الرائق مُعدٍ في هذا المساء. أكثر من كونه مزاجًا رائقًا بالفعل، فهذه كلمةٌ مبالغ فيها بالنسبة إليها، تتفاجأ ليتيتزيا بأنّها تشعر برقّةٍ شافية وأختويّةٍ تجاه زوجها، في رؤيته متحفّزًا، ومركّزًا على هذه السهرة، هو الذي ليس مركز أيّ شيء أبدًا - منذ أعوامٍ طويلة لم يعد حتّى في مركز اهتمامها. ولن يكون كذلك هذا المساء، بالطبع، فالمحتفى بها هي الأرملة الهزيلة التي لطالما ازدهت بمجوهراتٍ مُهينة، ونجم المحادثة سيكون كما جرت العادة زوجها ألدينو، صديق طفولة بروبو، الذي توفّي منذ أحد عشر عامًا في ذلك الحادث العبثيّ، الذي سُمِّيَ «حادث درّاجة ناريّة» زورًا وبهتانًا، لمجرّد أنّه كان على سرج درّاجته غوتسي ڤـ7 سبيشال الجديدة اللامعة، وكان يسير في الطريق الوطنيّة أوريليا على مستوى كنيسة سان ليوناردو، ما بين بيزا وليفورنو، بعد اجتيازه جسرًا على نهر الأرنو بقليل، عندما سقط على رأسه بالضبط خزّانٌ بسعة 170 لتر من الماء إذ انفكَّ عن الكمّاشة ذات الدوران المركزيّ للحوّامة بييل موديل 206 جت رانجر، المتمركزة في القاعدة العسكريّة الأمريكيّة المجاورة «كامب ديربي»، والتي كانت تؤازر أفواج الإطفاء الإيطاليّة في عمليّات إخماد حريق واسع نشب في تلال بيزا السفلى وهدَّد مركز فاوليا المأهول بالسكّان. بخصوص ذاك الحادث تمامًا، الذي بات بعيدًا في الزمن لكنّه حيٌّ ولاذعٌ في قلبه، في ذلك المساء تمامًا، خلال الرحلة نحو القريدس الأحمر، بالسير تمامًا على الطريق الوطنيّة أوريليا التي وقع فيها الحادث (على بُعد خمسين مترًا إلى الجنوب فقط)، قرّرَ بروبو أن يستعرض على ليتيتزيا مفهومه الهندسيّ للتدقيق في

الوفاة، والذي سيؤدّي إلى ترقيق قلبها أكثر فأكثر. يروي عليها وهو يسوق تحت الغسق أمرًا لم يروه عليها من قبل، يخصّ جهوده المبذولة لتبيين عبثيّة ذلك الموت الشنيع والمرفوض من منظورٍ جبريّ - ما يفضي إلى القبول به، على الرغم من نشوزه عن المنطق كلّيًّا. أخذ على عاتقه - يقول لها - أن يحسب تكافؤ احتمالات ذلك الحادث. وقد تدبَّرَ كلَّ المعطيات التي جمعتها التحقيقات: تعطُّل الحوَّامة، السرعة، مستوى الارتفاع، وزن الخزَّان، وزنه بكميّة المياه المنقولة، سرعة الريح وسرعة الدرّاجة لحظة الارتطام. وعليه، واستنادًا إلى حساباتٍ في غاية الدقّة، توصَّلَ إلى معطياتٍ تقول العكس تمامًا لما كان ينوي إثباته: ناهيك باستحالة وقوع الحادث، تدلّ المعطيات أنّنا بصدد نتيجةٍ حتميّة لمجال قوى صارمٍ لا يترك أيّ منفذٍ للخروج. إذًا - يتابع - غيَّرَ المنهجيّة، وحاول طرح المشكلة على طريقتها هي، أي بشكلٍ بسيطٍ ومبتكر - وهنا رقَّ قلب ليتيتزيا أكثر فأكثر. كان يكفي أن تُجرى حسبةٌ سهلة، حسبةٌ واحدة: كم مترًا تقطع الحوَّامة في الثانية؟ حسبةٌ بسيطة، معتمدًا على كلّ المعطيات التي كانت لديه أساسًا: 43. في كلّ ثانية تقطع الحوَّامة 43 مترًا. وألدينو؟ كم كانت سرعة ألدينو، بالمتر في الثانية؟ 23.5. بما أنَّ كلّ الهمروجة التي حسبها في السابق - يفسِّر - تبقى على حالها أيًا كانت لحظة انفكاك الكمّاشة، فهذا يعني أنَّه إذا انفكّت الكمّاشة بعد ثانية واحدة فقط كان الخزَّان سيقع على بُعد 43 مترًا جهة الشرق، أي على كنيسة سان ليوناردو بالضبط (كان قد تأكَّد من هذه الحسابات)، وبكلّ الأحوال سيكون ألدينو متقدِّمًا 23 مترًا ونصف. أي أنَّه ما كان ليموت فحسب، بل ربّما ما كان حتّى لينتبه لما وقع خلفه أيضًا، وكان سيتابع رحلته نحو بونتا آلا هانئ البال. هذا إن كانت الكمّاشة قد انفكّت بعد ثانية واحدة. فماذا لو - يتابع - انفكّت بعد عُشرِ *من الثانية* فقط؟ في الحياة الواقعة - يقول - عُشر الثانية لا شيء، أشبَهُ بالتجريد، رفيف رمش: ولكن لو أنَّ الكمّاشة في ذلك اليوم انفكّت بعد عُشرِ

من الثانية كان الخزّان سيقع ثلاثة أمتار ونصف عن النقطة التي وقع فيها بالفعل، وسيكون ألدينو متقدِّمًا بمترين ونصف تقريبًا. أي أنَّه كان سينتبه، وكان سينتابه رعبٌ مهول، لكنَّه، مجدّدًا، ما كان ليصاب بأذى. *عُشران* من الثانية - أي خمسة أجزاء؟ لا شيء: متران وخمسة عشر سنتمترًا، متر وخمسة وعشرون - قد يكون من اللائق إشعال شمعة للعذراء لكنّه، من جديد، كان سينجو. *ثلاثة* أجزاء من الثانية: متر وثلاثون سنتمترًا، سبعون سنتمترًا، بووم - يصاب ويهلك. لذا - يقول - وفاة ألدينو راجعة إلى تحقّق حدثٍ غير مؤكّد وما هي إلّا مسألة ثلاثة أجزاء من الثانية.

يتوقَّف بروبو الآن عن استعراضه، ويسأل ليتيتزيا إن كانت تتابعه. ليتيتزيا تجيب نعم، لأنَّه صحيح، كانت تتابعه، باهتمامٍ غير معتاد حقًّا - رقيق، قلنا، لأنَّ ما يفعله بروبو ليس إلّا لوحة ذاتيّة في عينيها. يركن بروبو السيّارة بصمت، لأنَّه وصل في الأثناء إلى وجهته، في الساحة حيث يوجد المطعم. يطفئ الأضواء. يطفئ المحرّك. ينزِّل النافذة. يشعل سيجارة.

خلص إلى هذا - يستأنف - متصوِّرًا كيف كانت هي، ليتيتزيا، ستعالج المسألة: حسبةٌ واحدة من أجل نتيجة بسيطة وصادمة - لا عشرة حسابات من أجل نتيجة معقّدة وتافهة. معالجة يتقنها المعماريّون، تقول ليتيتزيا. لا، يردّ بروبو: معالجةٌ لا يتقنها أحدٌ سوى ليتيتزيا كالابرو. واستنتج - يضيف - رؤيةً جديدة بالمجمل لوفاة ألدينو - رؤيةٌ يقول بروبو أنَّه لطالما كانت في باله، منذئذ، وأنَّه قرّرَ اليوم أن يتشاركها معها. لا داعي للحسابات، كان من الواضح أنَّ احتمالات انفكاك الكمّاشة في ذلك اليوم بالضبط في تلك اللحظة التي يمرّ فيها ألدينو مانسوتّي في النقطة التي سيسقط فيها الخزّان، كانت لا نهائيّة. احتمالٌ واحد من مليون؟ واحدٌ من مليار؟ لا فرق. لكنَّها بالتأكيد أقلّ بكثير من أن نصاب بصاعقة ونحن نركض بحثًا عن ملاذ –

يقول - مثلما وقع للمهندس شيكّي، تلك المرّة، في فرنسا: كان السياق هناك إعصارًا كهربيًّا، وكان ثمّة من الصواعق الكثير، وكلُّها تسقط على الأرض، وكان المهندس شيكّي على الأرض بالضبط. لا - يتابع بروبو، وهو يدخّن وينظر إلى نقطةٍ لا على التعيين - السياق الذي أفضى بصديقه إلى الوفاة أندر وأعقد، والحادث الذي تسبَّبَ بها ينتمي إلى جملة الوقائع المستحيلة *تقريبًا*، التي ليس فيها ما يستدعي الحساب. أحداثٌ من هذا النوع، حيث احتماليّات التحقُّق الملموسة تقارب الصفر بلا حدود، من الممكن أن نذكر منها مليون حدث - يقول بروبو - ولكن بما أنَّه يتحدّث عن وفاة ألدينو فلم يخطر في باله إلا حدثٌ وحيد على الفور، وما عاد يفارقه أبدًا: هو يقتل صديقه.

يبتسم. يسحب سحبة عميقة من السيجارة. الجمرة تضيء وجهه بالأحمر، تحت الظلام الذي هبط كلّيًّا. يلتزم الصمت ويحدّق إلى ما يتبدّى من وجه زوجته.

بأيّ معنى؟ تسأله.

لأنَّ صداقتهما - يستأنف - عظيمةٌ، وهي على علم بذلك، عميقةٌ، حافلة بالمغامرات والعواطف، ورغم هذا وقعت مشاجرتان بينه وبين ألدينو لا ينساهما، وما تحدَّث أيٌّ منهما بأمرها بعد، لأنَّهما تجاوزاها بسرعة وبلا تداعيات. وقعت الأولى عندما كانا في العشرين عامًا وكانا رفيقين في الجامعة: لم يعد بروبو يذكر السبب حتّى، ربما كان فيها دعوة إلى حفلة، وربما فتاة أيضًا، وربما كان محقوقًا. أمّا المشاجرة الثانية فيذكرها جيّدًا، وبدأ يهجس فيها بعد وفاة ألدينو، والتي وقعت بعد مدة طويلة عن الأولى، حين كان كلاهما متخرّجًا ومتزوّجًا وأبًا لأسرة. ما يجعلها خالدة في ذاكرته - يقول - هو أنَّ كليهما كان *مسلَّحًا*، كانا في رحلة صيد، وحدهما، في محميّة والد تيتّي، في فالومبروزا. أطلق ألدينو النار على حجلةٍ كان بروبو ينوي إصابتها،

وفعلها على حين غرّة، بينما كان واقفًا خلفه، والبندقيّة فوق كتفه، فأثار في نفسه رعبًا مميتًا لأنَّه كان يصوِّب ولم يتوقّع تلك الطلقتين على بُعد سنتمترات عن أذنه. ألدينو كان محقوقًا، ارتكب فعلة غادرة وخطيرة، لكنَّ ردّة فعل بروبو جاءت هستيريّة، ومبالغ فيها. صاح في وجهه بأعلى صوت معبّرًا عن سخطه، وغمره بالشتائم، بعضها مهين أيضًا، ومضى في سبيله، وما زال يرتعش غضبًا وخوفًا، ليتركه بمفرده مع الكلب الذي كان يضع بين قدميه الحجلة اللعينة. إذًا - يسأل بروبو زوجته - أليس من الوارد أنه بسبب تلك العصبيّة، كاد يندفع لقتله، خلال ثلاثة أجزاء من الثانية؟ كان يحمل بندقيّة ملقَّمة وكان يتأجج غضبًا واحتقارًا كما لو أنّه أكثر البشر لؤمًا: ألا تفكّر ليتيتزيا أنَّ ذلك الغضب، خلال لحظةٍ صغيرة لا يمكن إدراكها بحيث من المستحيل الانتباه إليها أو تذكُّرها، احتوى على الدافع لرفع البندقيّة وإطلاق النار في وجهه؟

صمت. ليتيتزيا حائرة. ضوءان أصفران يمسحان الظلمة، ويقتربان: سيّارة السيتروين د س لصاحبتها تيتّي مانسوتّي. ليتيتزيا تلتزم الصمت. أجل - يقول بروبو - كان يحتوي على الدافع بالتأكيد. ونظرًا إلى أنَّ قدر ألدينو - يخلص - كان أن يموت بتحقُّق احتمال واحد من بين كلّ احتمالات الكون المستحيلة في ظرف ثلاثة أجزاء من الثانية، فهذا يعني أنَّه كما لو كان قد قتله في ذلك الصباح حقًّا. إنّه الشيء نفسه حقًّا. يرمي السيجارة، يفتح الباب، ينزل. تتبعه ليتيتزيا. تتوقَّف السيتروين، تنزل تيتّي وبناتها الثلاث. يتعانق الجميع ويدخلون المطعم.

وفي تلك اللحظة، على بُعد عشرين كيلومترًا جهة الشمال، تخرج إرينه من المنزل للذهاب إلى الشاطئ. جاكومو يراها خارجة ويُسَرُّ بذلك، لأنه قرّر أن يفعل شيئًا لكنّه لن يغامر طالما إرينه تجول في البيت، فهي تسمع

دومًا كلّ شيء، وتكتشف دومًا كلّ شيء، ولا يعرف أحدٌ كيف تتكهَّن بما لا تسمعه ولا تكتشفه. أما الآن وقد خرجت، فبإمكانه فعلها. الأمر متعلّق بتحقيق. يتّجه إلى الهاتف. يتّصل برقم منزل لاتيس - هناك في الجوار، على بُعد أربعين مترًا، خلف سياج البيتوسبوروم. رنّة. رنّتان. ألو؟ (أمّها). مساء الخير (صوتٌ مصطنع)، أودّ التحدّث إلى لويزا من فضلك. يؤسفني، لويزا خرجت: مَن أقول لها؟ جاكومو يبقى متحجّرًا، على الأريكة، والهاتف في حضنه. ألو؟ (الصوت من السمّاعة). ألو؟ جاكومو ينهي المكالمة. كانت قد قالت له إنّها لن تخرج. تخرج إرينه في الأثناء من الحديقة وتمشي بخطواتها الشبحيّة على الدرب المؤدي نحو الكثبان. وخلف الكثبان، الشاطئ. وأمام الشاطئ، المولينلّي.

أمّا ماركو ولويزا فيتناولان فطيرة السكياتشينة أمام كوخٍ بين صنوبرات الباراتّي. بتطلُّعاتٍ نافدة الصبر حتّى يكاد أحدهما ينقضّ على الآخر، يأكلان، يشربان بيرة، ويتحدّثان قليلًا. هل بيرتك لذيذة؟ لذيذة جدًّا. وبيرتي أيضًا. هل نأخذ أخرى؟ كلاهما ينتظر ما سيقع منذ زمنٍ طويل، وكلاهما الآن يعرف أنَّه سيقع، هناك تحديدًا، بعد قليل، على الشاطئ. ماركو ينتظره منذ عامين، لويزا منذ خمسة، وربّما عشرة - وفي الحقيقة، يبدو عليها أنّها بانتظاره منذ الأزل. «ماركو كارّيرا»: لويزا لا تذكر لحظةً واحدة من حياتها مرَّت دون أن يخفق قلبها على هذا الاسم. عندما كانت طفلة، ولم تكن الأسرتان في خصام بعد، وكان ماركو يلاحقها على الشاطئ لإخافتها، أو عندما كان هو وإرينه يعلّمانها هي وشقيقها كيفيّة التجذيف في قارب فوريان؛ وحتى عندما صارت كنية كارّيرا محظورة ومع ذلك ظلَّ يبتسم لها كما لو أنَّ شيئًا لم يكن، على الشاطئ، ويعاملها بلطف؛ أو عندما تصاحبت إرينه وشقيقها، وأصبحا يتبادلان القبل أمام الجميع، وكانت لويزا في عامها العاشر فقط، سعيدةً بهذا

لأنَّه يعني أنَّ الحبَّ ينتصر على أيّ عائق، لذا من الممكن أن تفعل وماركو الشيء نفسه يومًا ما... عند ذلك الكوخ، عينا لويزا ثابتتان على ماركو الذي يمضغ فطيرته ببطء، يزدحم ذهنها بكلّ تلك اللحظات التي تمنَّت فيها تلك اللحظة - ما يعني حياتها بأكملها. فجمال الطبيعة البكر في باراتّي، وقمم الصنوبر الباسق والعريض، والبحر المسطَّح الذي يعكس الأضواء، وحلاوة تلك الأمسية من أغسطس التي لا قمر فيها، يبدو كلُّ ما سبق قد ترتَّبَ عمدًا للاحتفاء بتحقُّق الأمنية الحقيقيّة الوحيدة التي امتلكتها هي وماركو - أجل، وماركو - في حياة كلٍّ منهما.

وفي الأثناء، في القريدس الأحمر، ليتيتزيا جالسة قبالة بروبو، وما زال شعور الرقّة تجاهه يتملَّكها، رقّةٌ تزداد كثافةً، تكاد تبلغ درجة الانجذاب. ماذا، ماذا؟ ليتيتزيا منجذبة جسديًّا إلى زوجها؟ منذ متى لم يمارسا الجنس؟ أعوام. هل ما قاله لها بروبو بخصوص وفاة صديقه - هو، الأرسطويّ، المربوع، *الممّل* - جعله جذّابًا؟ أم ربّما المطعم حيث يتناولان العشاء - الذي اكتشفه هو، والذي أراده هو لإقامة حفل عيد الميلاد التعيس والخامل هذا، فالمطعم زاخرٌ بالروائح والأصوات المتكاملة، والأطباق الشهيّة، والأناس المنشرحين - أهذا ما جعله جذّابًا؟ ليتيزيا ليست بالأكول، لكنَّ كلَّ ما تتذوَّقه هذا المساء يبدو لها مذهلًا حرفيًّا: حساء فواكه البحر بالزعفران، الرزّ الحلو بجراد البحر والطرخون، السلمون البحريّ المشويّ بالثوم المعمّر، الباستا بالكرّاث، القاروس الملفوف، السمك «الحيّ» من سان فنشنتزو...

عشاءٌ خارجٌ عن الزمن، *متقدّم* - تحبّ ليتيتزيا إطلاق هذا الوصف على أيّ شخص أو شيء يذهلها جدّيًّا («إنّه متقدّم»، «متقدّم جدًّا»، «حقًّا متقدّم»)، وقد يكون هذا التقدُّم الزمكانيّ تنبؤيًّا أو لا، أي قد يحدِّد شيئًا سوف يثبت في المستقبل بالفعل (مثل هذا المطعم وهذا الأسلوب في الطبخ)

أو لا (مثل العمارة الراديكاليّة)، لكنّه يبقى الشرط الوحيد الذي تطرحه جماليّاتها الشخصيّة: إن لم يكن متقدّمًا، فلا يمكن أن يكون جميلًا.

كعكة سوفليه الفواكه الموسميّة، حلوى الزابايوني بنبيذ سانتو، «ابتكار اليوم»...

وفي النهاية نعم، النتيجة هي أنَّ ليتيتزيا تشعر بالانجذاب إلى بروبو من جديد، تراه فاتنًا ومرغوبًا مثلما كان من ربع قرن مضى - الأمر الذي قد يبدو عصيًّا على الإدراك، حتّى ظهيرة هذا اليوم على الأقلّ. أمّا الآن فيبدو طبيعيًّا: فهما زوجٌ وزوجة، اختار أحدهما الآخر منذ خمسة وعشرين عامًا، رغب أحدهما بالآخر وما يزال. وعند نهاية العشاء، تمضي تيتّي - الممتنعة عن الكحول، والممتنّة - بسيّارة السيتروين للعودة إلى بونتا آلا، لكنَّ القريدس الأحمر يبقى هناك، وحتى لو لم يكن مزوّدًا بغرفٍ لزبائنه كما في النزل في حكاية بينوكيو[1]، فالشاطئ الحرُّ على مقربة، هادئًا وبدائيًّا، مدعاةٌ للمغامرة، متعانقين تملؤهما نشوة الغراتامكو الأبيض، بحثًا عن أحلك المناطق ظلمةً...

وهكذا، باستثناء جاكومو، المنهار على الأريكة تحت تأثير خلطة قويّة من مشروب الرَّمْ بالنوتيلا، تجد تلك الليلةُ المميّزةُ أربعةَ أفراد من أصل خمسة من أسرة كارّيرا ممدَّدين على الرمال، في أماكن مختلفة من الساحل نفسه، ينفحهم هدير موج البحر ذاته، وتسكنهم حالاتٌ مختلفةٌ من النعيم. ليتيتزيا وبروبو، في سان فنشنتزو، في الحالة التي ولَّدها الجنون المرتكَب للتوّ، والمقدَّرُ له - وهما يعلمان ذلك - ألّا يتكرَّر أبدًا، لذا فهو لا مثيل له حقًّا؛ ماركو في باراتّي مع لويزا، في حالةٍ لا يضاهيها شيء مهداةٍ من تلك الشفاه الحبلى بالقبل،

(1) في مطلع الفصل الثالث عشر من رواية «بينوكيو»، يدخل بينوكيو صحبة الثعلب والقطّ إلى حانة القريدس الأحمر. ومن هنا جاءت الإشارة إلى حكاية بينوكيو. (المترجم).

واليقين - واهم، للأسف، لا يضاهيه وهم - بأنَّ هذه القبل ستكرَّرُ مرارًا ومرارًا ومرارًا؛ وأخيرًا إرينه، في بولغيري، أكثرهم تمدُّدًا، أكثرهم نعيمًا، ذهنها مطفأ ومتحرِّرٌ من بلاياه، وجسمها فارغ ومتخلّص من أوضاعه، أرجعها المولينلّي إلى السطح وتلهَّت بها الأمواج عند الشطّ، حيث سيعيدها بحر تيراني الأوسط، عند الجَزْر، لمَن يبحث عنها.

ها هي، تهبط (2012)

إلى: لويزا

بريد مرسَل - Gmail - 24 نوفمبر 2012، 00.39

الموضوع: النجدة

من: ماركو كارّيرا

لويزا،

أتساءل: ماذا يعني أن يكون المرء قد قرأ كتابًا؟ يكفي أن تقفي في إحدى الساحات وتنظري من حولكِ: أناسٌ بأعدادٍ كبيرة تتكلَّم بالخليويّ. أتساءل: ما الذي يتحادثون فيه؟ وكيف كانوا يتصرَّفون، في السابق، عندما لم يكن هنالك وجودٌ للهواتف الخليويّة؟ أتساءل: كيف يضعون الخطوط الملوَّنة داخل معاجين الأسنان؟ حاولتُ أن أضع أنغامًا رائعة في المنبِّه بدلًا من الرنّة، لكنَّ الاستيقاظ مقيتٌ بكلّ الأحوال. آلة الزمن موجودة.

آديلي...

هناك أناسٌ يعارضون التوقيت الصيفيّ، وفي اليابان لا يعتمدونه من الأساس. واليوم ثمّة ريحٌ عاصفة، الأشياء تطير. وفي صالات الانتظار يهيمن الضجر.

لقد ماتت.

منذ ثلاثة أعوام، عندما عدتُ إلى السكن هنا، كان في الشارع الخلفيّ لبيتي رافعة. وفي النهاية ربّما فهمتُ ما الذي لا يتمكّن الأطفال من استيعابه، في حال انفصال الأبوين.

آديلي ماتت.

قرأتُ أنّهم في مقاطعة بيمونته قرّروا القضاء على أربعمئة ظبيٍ لأنّها تقطع الطرقات وتسبِّب الحوادث. قرأتُ أنَّ ثمانين بالمئة من انتقال ميراث الممتلكات العقاريّة، في إيطاليا، يتمّ عبر الجانب الأبويّ. قرأتُ أنّ في ميلانو مهندسًا يضع طاولة في نهايات الأسبوع داخل أحد المنتزهات ويعرض على الناس أن يستمع إليهم مجّانًا. قرأتُ أنّ بيل غيتس وزوجته قيَّدا على ابنتهما استعمال الكمبيوتر طيلة طفولتها.

إلّا أنَّ ابنتي آديلي ماتت، أتفهمين؟ ابنتي آديلي ماتت ولا أستطيع الذهاب إلى حيث هي لأنَّ الطفلة عندي.

عندما كان عمري ستة عشر عامًا افتُتِنتُ بجوني ميتشل.

النجدة يا لويزا. هذه المرّة أجدني عاجزًا.

سقطت قنبلةٌ على رأسي.

وما زلتُ أتلقّى المزيد.

ها هي، إنّها تهبط.

أتساءل: هل ترين أنّ للبلاء داراتٍ انتقائيّةً، أم إنَّه يصيب عشوائيًّا؟

ها هي. تهبط.

غمامةُ النسيان.

Shakul & Co. (2012)

وفي النهاية جاءت. جاءت المكالمة التي يخافها كلُّ الآباء كأنَّها الجحيم، لأنَّها هي الجحيم، لأنَّها بوّابة الجحيم، ولحسن الحظّ أنَّها تجيء للقلّة، ترهب الجميع لكنَّها لا تجيء إلّا لقلّة آباءٍ أشقياء، تقدَّرَت عليهم المأساة، منهكين، لا تجيء إلّا للقلّة من الآباء تعساء الحظّ الذين أهملتهم عناية الربّ، لكنَّ الجميع يخافها، وأكثر المكالمة إخافةً هي تلك التي تجيء في قلب الليل، ولكن لم تكن هذه هي الحالة، الأكثر إخافةً هي التي توقظ جَفَلًا في قلب الليل، ترررررن، وما يزيدها إفزاعًا هي التي تجيء حتّى عندما لا تجيء، بمعنى أنّنا جميعًا تلقّيناها حتّى لو لم نتلقَّها، لأنَّنا جميعًا تلقَّينا مكالمةً في قلب الليل، مرّةً واحدة على الأقلّ، أيقظتنا جَفَلًا، ترررررن، وجمَّدت الدماء في عروقنا، على الفور، حين تشير الساعة إلى الثالثة والدقيقة الأربعين، أو الرابعة والدقيقة السابعة عشرة، وفكَّرنا جميعًا في اللحظة نفسها بذلك الأمر، وتريَّثنا في الردّ بينما يستمرّ الهاتف في الرنين، ترررررن، لكي نصلّي، نعم، حتّى الذين منّا لا يؤمنون، لكي نصلّي ألّا تكون المكالمة بسبب ذلك الأمر - لا مشكلة إذا احترقت سيّارتنا المركونة في الطريق، أو المبنى المجاور، لكنّ الموضوع في المحصِّلة لا يخصّ احتراق سيّارتنا ولا المبنى المجاور، ترررررن، ونحن نعلم ذلك، لذا فإنَّنا جميعًا قد تردَّدنا في الردّ لنصلّي أن تكون الضحيّة شخصًا آخر، رفقًا بنا، أيّها الإله الرحيم، أيّها الآب القدير، أنا لم أصلِّ لك مطلقًا لأنّني معتوه، ترررررن، ولقد تجاهلتُك وخرقتُ شريعتك وارتكبتُ الخطايا ضدّك وجدَّفتُ بذاتك، فما أنا سوى غبيٍّ متعجرف، ولستُ جديرًا بلفظ اسمك

ولا أستحقّ شيئًا ولا ريب في أنّني سأدخل الجحيم، ترررن، ورغم ذلك ها أنا أصلّي لك، يا أبانا، الآن، هنا، على هذه الأرض، من أعمق أعماق قلبي، راكعًا على الأرض، ساجدًا على الأرض، منبطحًا على الأرض، أتوسّل إليك ألّا تكون هذه الرنّات بخصوص تلك المكالمة، ترررن، تلك بالتحديد، أتوسّل إليك أن تأخذني، الآن، فورًا، ولكن من الجليّ أنّك لم تقرّر أن تأخذني أنا، من الجليّ أنّه عليَّ أن أبقى في هذا الوادي لأتألّم، لذا أتوسّل إليك أن تأخذ أمّي، سينفطر قلبي ولكنْ خذها هي، أو أبي، أو أختي أو أخي، وأتوسّل إليك أن تأخذ كلَّ ما أملك، بما في ذلك عافيتي، اجعلني يتيمًا، ترررن، متسوِّلًا، سقيمًا، ولكن لا تجعلني أيّها الأب القدير، أرجوك، أتوسّل إليك، أتضرّع إليك، لا تجعلني... وهنا توقَّفنا جميعًا لأنّه لا وجود للكلمة التي ينبغي لنا أن نقولها، جميعنا نحن الإيطاليّين، والفرنسيّين، والبريطانيّين، والألمانيّين، والإسبانيّين، والبرتغاليّين، جميعًا توقَّفنا، لأنَّه في كلّ هذه اللغات لا وجود لتلك الكلمة، في حين أنّها موجودة بالنسبة إلينا نحن اليهود، بالنسبة إلينا نحن العرب، بالنسبة إلينا نحن اليونانيّين القدماء والجدد، بالنسبة إلى كثيرٍ منّا نحن الأفارقة ونحن الناطقين الناجين باللغة السنسكريتيّة، ولكنْ لا يتغيّر شيء، في الصميم، سوى أنَّ بعضًا منّا استطاع أن يسمّي تلك الجحيم باسمٍ معيَّن خلافًا لآخرين، ترررن، في حين أنّنا جميعًا كنّا نصلّي مذعورين عوضًا عن الردّ على الهاتف الذي يواصل الرنين في قلب الليل، ثمّ في النهاية ردّينا وربّما لم نجد أحدًا على الطرف الآخر، نعم، هذا وارد، بل واردٌ أكثر ألّا يجيب أحدٌ من أن تكون سيّارتنا تحترق، «ألو؟»، «ألو؟»، ولا أحد، نعم، يحدث هذا غالبًا، مقلب، ربّما، المقلب الثقيل الذي نظنّ بسببه أنْ حانت علينا ساعةُ تلقّي تلك المكالمة، ونرتعب، في قلب الليل، إلى أن نتلو أشدَّ الصلوات إيلامًا، وحتّى أخونا ماركو كان سيتلوها لكنَّها لم تكن الحالة، إذ إنَّ المكالمة، المكالمة إيّاها، جاءته، صحيح، ولكن ليس في الليل إنّما في

الظهيرة، بيوم أحد، خلال فصل الخريف، في الضوء الواهن للساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين، وحفيدته الصغيرة غافيةٌ على الأريكة ورأسها تتوسَّد ساقيه، وهو مندمجٌ في مشاهدة *ما خلف الحديقة* بالتلفاز، إذًا في سلام، وطمأنينة، وسكينة، بل وحتّى من دون القلق الذي تولّاه أعوامًا عندما كانت آديلي تسافر في نهايات الأسبوع مع أولئك الفتية الذين بدوا له ماهرين، بدوا له مسؤولين عن تصرُّفاتهم وموثوقين، وهذا ما جعله يسمح لها بالذهاب معهم، ولطالما فعل ذلك منذ أن كانت مراهقة، نظرًا لموهبتها، صحيحٌ أنَّه في المرّات الأولى ذهب هو أيضًا، ورافقها، لكنّه كفَّ عن ذلك منذ لحظة معيّنة فصاعدًا، لأنّه صار يشعر بالحرج، فهو الوالد الوحيد الذي يرافق ابنته، وهذا أسوأ تقريبًا من عدم السماح لها بالذهاب، وهكذا منذ لحظة معيّنة فصاعدًا بات يبقى في البيت بانتظارها، على قلق، بالتأكيد، ولا يهمّ إن كان الصباح، أو الظهيرة، أو المساء، ينخره الشكّ، أحسنتُ صنعًا، أسأتُ صنعًا، آديلي تحبّ هذه الرياضات جدًّا، لكنَّها خطيرة، بمعنى أنَّها ليست كمثل مباراة تنس، وآديلي لا تحبّ التنس أبدًا، أحبَّت المسايفة، في صغرها، ولكن حتّى هناك يوجد سلاح، رمزٌ للدماء، والموت، والخطورة، لذا كان بوسعه أن يمنعها أو ألّا يمنعها من ممارسة تلك التحدّيات الصارخة في وجه قانون الجاذبيّة، والأمواج، والتسلُّقات، التي تعدّ متنفَّسًا لكنَّها خطيرة، كان ذلك من حقوقه، ويندرج في صلاحيات الوالدين، وهو قرّر ألّا يمنعها عنها، وسمح لها بالذهاب، وكان يعاني بصمتٍ من القلق المتأتّي عن سماحه، ويخشى بصمتٍ أيضًا أن يتلقّى تلك المكالمة الرهيبة في قلب الليل كلّما خلد للنوم وآديلي في الخارج، كان يخشاها بصمت، دائمًا، قبل أن يغفو، وعندما يستيقظ للذهاب إلى الخلاء، وقبل أن يغفو من جديد، ويجافيه النعاس، فيتعاطى قطرات من الريفوتريل، والإكساناكس، والأنسيولين، ليتسنّى له النوم، ولكن ينبغي أن نعترف بأنَّه لم يحصل شيء، إطلاقًا، خلال الأعوام،

ولا حتّى أيُّ حادثٍ بسيط، لا في الليل ولا في النهار، ولا حتّى خدشة أو رضّة، لا شيء أبدًا، إلّا إذا استثنينا، حسنًا، أنّها ذات يوم عادت إليه من إحدى تلك المغامرات المجنونة حبلى، بالتأكيد، لكنَّ هذه مسألة أخرى، وقد وافق عليها، حبلى بعامها العشرين ولا خبر عن الوالد، وافق على كلّ شيء، بصمت، دون إبداء آلامه، أحسنتُ صنعًا، أسأتُ صنعًا، لأنَّ آديلي من جهة أخرى فتاةٌ ماهرة، شاطرة، واعية، موثوقة، *ناجحة*، وكان بصدد معجزةٍ أصيلة، في الواقع، آخذًا بالاعتبار ما عانته وهي صغيرة، مضطربة، مصدومة، في إيطاليا، في ألمانيا، وفي إيطاليا مجدّدًا، في روما، وميونخ، وفلورنسا، مع أمٍّ مجنونة، فلنعترف بذلك، وأبٍ غبيّ لم يستطع أن يصونها، والألم الذي يقطر من كلّ جوانبها، ما يجعلها تتقبّل التفكُّك الأسريّ من حيث المبدأ، إلّا أنّها خرجت من المحنة بشكلٍ لا يُصدَّق، وما اتّكلت على التفكُّك الأسريّ إلّا عندما كان عليها أن تنبِّه للخطر الذي لم يدركه أبواها بعد، وها إنَّ الخيط في ظهرها يبرز، وشفيت عندما أثبت أبواها أنّهما تنبَّها وأدركا، واختفى الخيط، واتّكلت عليه ثانيةً عندما انهدم كلُّ شيء فبرز الخيط من جديد، إلى أن انتقلت إلى ميونخ إلى شبكةٍ لا فكاك منها، غير صالحة للعيش، فأشارت بذاك للحلّ إلى والديها غير المتلائمين، الأمّ مجنونة، والأب لم يستطع أن يصونها، لذا استعانت بذلك الخيط لتقتاد بنفسها، إن صحّ القول، أسرتها الشقيّة، لا نقول نحو الصلاح، فما من صلاحٍ هنا، إنّما نحو أهون البلايا، نعم، بالضبط، وقد أدرك أخونا ماركو هذا في النهاية على الأقلّ، وانتبه أنّ ابنته تمتلك معرفةً ساحرة وجامحة، فاجتهد ليؤمّن لها الاستقرار، لأنَّ آديلي لا تحتاج إلّا إلى هذا، في نهاية المطاف، إلى قليلٍ من الاستقرار، رغم أنّه استقرارٌ مؤلم، بزياراتٍ منتظمة إلى أمّها في المصحّة، وحبٌّ لا يمكنه التعبير عنه تجاه أختها الألمانيّة، والقرار الحكيم بأن يعيشاه معًا عندما تصبح كلٌّ منهما كبيرة، فهو استقرارٌ مؤلمٌ ومعقّد إذًا، لكنَّه يبقى استقرارًا، استقرارًا لم تعرفه آديلي مطلقًا،

واستطاعت أن تستند إليه أخيرًا، لتلفَّ بكرة ذلك الخيط إلى الأبد وتصير ما يسمّى بـ «الشابّة النموذجيّة»، وفي مرحلة لاحقة «الشابّة - الأمّ النموذجيّة»، التي تدرس وتعمل وتركب الأمواج وتتسلّق المرتفعات، وعندما تمارس رياضاتها كان يبقى مع الطفلة، ميرايجيين، حفيدته، وكان ذلك منصفًا، آديلي تذهب لإعادة شحن معرفتها في قلب الطبيعة البكر وهو ينتظرها في البيت مع الطفلة ويؤمّن لها الاستقرار، وكان يدير قلقه بصمت، وقضى في ذلك أعوامًا، وكان يبدو حقًّا أنّه أحسن صنعًا في الموافقة، والمواظبة على السماح لها بالذهاب، كان يبدو حقًّا أنَّ المخاطرة تستحقّ العناء، إلى أن جاءت تلك المكالمة، في النهاية، واكتشف أنَّه تعيسٌ حقًّا، حينذاك، ومهملٌ من قِبَل الربّ، أكثر وأكثر ممّا كان يظنّ، خصوصًا أنّه كان يظنّ ذلك منذ أن توفّيت شقيقته إرينه، وجاءت تلك المكالمة التي يخشاها جميع الآباء لكنَّ قلّة منهم يتلقّونها، قلّة من الأشقياء، الذين تقدَّرَت عليهم المأساة، المنهكين، وكثيرٌ منهم لا يمتلك الكلمة المناسبة في لغته، لكنّها موجودة على سبيل المثال في العبريّة، *شاكول*، المنحدرة من الفعل *شاكال* ويعني للدقّة «فقدان ابن»، وموجودة في العربيّة، *ثاكل*، مشتقة من الجذر نفسه، وفي السنسكريتيّة، *فيلوماه*، وتعني حرفيًّا «المعاكس للنظام الطبيعيّ»، وموجودة في الكثير الكثير من لغات الشتات الإفريقيّ المتعدّدة، وحتّى في اليونانيّة الحديثة موجودةٌ بمعنى أقلّ أحاديّة، *شاروكامينوس*، وتعني «محترقٌ بالموت»، والمقصود بها عمومًا مَن ينفطر قلبه على فقدان عزيز، لكنّها تكاد تستخدم دائمًا للإشارة إلى الوالد الذي يفقد ابنًا، وعن مسألة فقدان الابن قد قال كلمته واحدٌ من العرّافين في شباب أخينا ماركو، «تعلمين أنّني فقدتُ ابنين/ يا سيّدة أنتِ امرأةٌ شاردة فعلًا»، فلو تمعّنّا مليًّا لما وجدنا معنى *لفقدان* شخص عندما يموت هذا الشخص، أي أن نشغل مركز رحيلهم: فقدتُ ابنتي، خسرتُها، تركتُها تموت، أنا أنا أنا، لا معنى لهذا الضمير، ويكون مُهينًا في حال توفّي شخصٌ آخر،

لكنّه يكتسب معنى حين يتوفّى الابن، مع الأسف، لأنَّ هنالك الحسّ بالمسؤوليّة دومًا، أو بالذنب، من جهة الوالد الذي لم يمنع، مثلما يفرض عليه واجبه، لم يدفع، لم يجنِّب، لم يصن، لم يتوقَّع، وترك للأمر أن يقع لذا ترك للابن أن يموت، لذا *فَقَدَ* ابنه أو ابنته، وبالمحصّلة تلقّى أخونا ماركو المكالمة التي ستصفِّر حياته، وجاءته في الظهيرة، بيوم أحد، خلال الخريف، فصفَّرت حياته بعدما كانت قد تصفَّرت مرارًا، سوى أنَّ الصفر في الحياة غير موجود، وبالفعل كانت ميرايجيين نائمةً ورأسُها على ركبتيه، بينما كان يحاول أن يتنفَّس، إذ لم يعد قادرًا حتّى على هذا، لقد صار *شاكول* منذ بضع ثوانٍ (لم يخبروه بذلك قطعًا، كانوا لطيفين، لكنَّه أدرك الأمر جيّدًا)، صار *ثاكل*، صار *فيلوماه*، صار *شاروكامينوس* منذ بضع ثوان، وقد انغلقت رئتاه، والهواء خيطٌ ساخن، وبطنه هُوَّةٌ لا قرار لها، ورأسه طبل، لا يمكن لأيّ حياةٍ أن تكون أقرب إلى الصفر من حياته، استيقظت ميرايجيين بوداعة، وابتسمت إليه، كانت قد أتمَّت عامين قبل شهر، وبفعلها هذا، وببساطة استيقاظها وابتسامتها إليه، كأنَّها قالت له جدّي إيّاك أن يخطر في بالك أن تنهار، قالت له جدّي لا مزاح في هذا، قالت له جدّي إنّني هنا ويجدر بك أن تتحمَّل.

مُقَيَّم (2009)

إلى: جاكومو - jackcarr62@yahoo.com

بريد مرسَل - Gmail - 12 أبريل 2009، 23:19

الموضوع: صور ليتيتزيا

من: ماركو كارّيرا

جاكومو العزيز،

تمكّنتُ من تنسيق أرشيف أمّنا الفوتوغرافيّ! كان ذلك بضربة حظّ، لكنّي تمكّنتُ من ذلك أيضًا. والآن صار بوسعنا أن نبيع ذلك البيت حقًّا.

كان الانشغال بأغراض والدتنا أصعب عليّ بكثير من أغراض والدنا، لأسبابٍ متعدّدة، لا بل عليّ أن أقول إنّني في الواقع لم أنشغل بها إطلاقًا: آلاف الصور تلك، الرائعة في الحقيقة، تشعرني بالخجل وتجرحني أحيانًا؛ عندما التفتُّ إلى صور المعماريّين والفنّانين التي تعاملت أمّنا معهم لم أستطع إلّا أن أتساءل مَن كان مِن بينهم عشّاقٌ لها يا تُرى، وبكلّ حال كان قلبي يعتصر ألمًا من رؤية كلّ تلك الناس، وكلّ تلك المواهب، وكلّ ذلك العالم حولها، ولا يوجد أثر لوالدنا، ولا حتّى في إحدى الزوايا. صحيحٌ أنّه في مغامراته أيضًا، وفي مجموعته من سلسلة أورانيا، وتصميماته، ومجسّماته، لا وجود لأمّنا، ولكن لا وجود فيها لأيّ أحدٍ آخر، كان ذلك العالم الوحدانيّ

الذي يعيش فيه بروبو الوحدانيّ. أمّا والدتنا ففي أعمالها يوجد عدد هائل من الرجال، والنساء، والفنون، والمواهب، والعمارة، والأغراض، والشفاه، والسجائر، والابتسامات، والدردشات، والفساتين، والأحذية، والموسيقى، والإطلالات، وكانت حين تلتقط الصورة تتواجد في مركز كلّ شيء، وكلّ شيء يتألّق حولها، وهناك كلّ شيء حقًّا، كلّ شيء، ما عدا بروبو. لقد أزعجني هذا. شعرتُ بالغيرة، على ما أظنّ، أو بشيء من هذا النوع. ولكن، انظر كيف يدور العالم، على الرغم من عدم انشغالي بالأمر تمكّنتُ من إيجاد حلٍّ لذلك الأرشيف أيضًا. مؤسّسة دامي تامبوريني. لا يذكّرك اسمه بشيء، أعرف، ولا أنا في البداية كذلك، إلى أن ساقتني الصُّدَف إلى ملاقاة لويجي دامي تامبوريني هذا، وهو من سيينا، وريث تركة عائليّة معتبرة مؤلّفة من عقاراتٍ متعدّدة، وأراضٍ، وبحيرة (!)، وسدّ (!!)، ولاسيّما مصرف للمشاريع صغيرٌ وجادّ يعنى بمؤسّسته الناجحة بعلوم أيقونات القرن العشرين. جرى الأمر على هذا النحو: دعاني أحد الأصدقاء للمشاركة في لعبة تنس فجائيّة وخيريّة في كاشينه، تنظّمها شركة بيتّي إيماجين للأزياء في أسبوع الألبسة الرجاليّة، فكان المكان مكتظًّا بالمشاهير والشبّان المتأنقين الذين لا يحرّكون الكرة من هناك – في حين أنّني عدتُ للعب بشكلٍ منتظم، وأنّني بلياقتي، وقوّتي، لذا كنتُ مطلوبًا في تلك المباراة المزدوجة لاجتيازها فعليًّا. واللعبة الفجائيّة، إن كنتَ لا تعلم، هي دوريٌّ يتشكّل فيه الفريق بالقرعة قبل كلّ مباراة. تأهّلتُ بسلاسة حتى نصف النهائيّ، وفي نصف النهائيّ ها هو لويجي دامي تامبوريني هذا يتوجّب عليّ. أقصد أنّه يتوجّب عليّ بصفة شريك. وهو ليس بسيّئ، بصراحة، مع أنّه يرتكب الكثير من الأخطاء، وقد فزنا على الرغم من أخطائه الألفين. وفي المباراة النهائيّة نُقتَرَع مرّة أخرى كفريق واحد ونخوض معركة كبرى: الخصمان قويّان، وقد أبليتُ بلاء حسنًا، وارتكب دامي تامبوريني

أخطاء أقلّ وفزنا في النهائيّ أيضًا. كان هو، دامي تامبوريني، سعيدًا كعيد الفصح، يشكر الله لأنّنا اقترِعنا معًا مرّتين على التوالي، ولكي يبدي امتنانه العميق دعاني إلى العشاء في قصره في فيكو ألتو، قرب سيينا، مرّةً، ثمّ مرّةً أخرى، وخلال هذين العشائين اهتمَّ بحياتي وروى عليَّ حياته. (بالمناسبة، جمعتُ عنه معلومات هنا وهناك وتبيَّنَ لي أنّه مقامر، وأنَّ قصره هذا الذي دعاني إليه يتحوَّل مرّتين شهريًّا إلى كازينو غير مرخَّص، لكنّني لم أطلعه على سوابقي). وهكذا حدَّثني عن المؤسسة أيضًا، التي تستجمع الأرشيفات الفوتوغرافيّة الخاصّة، وتشكيلات الملصقات، والبطاقات البريديّة وما شابه، المتعلّقة بفنون القرن العشرين. فحدّثته عن أرشيف أمّي، هكذا، على سبيل المحاولة. فقال لي إنّه لا يتولّى شؤون المؤسسة شخصيًّا لكنّه أخرج جوّاله ووصلني بالمدير لأتحدّث إليه فسارع الأخير لإعطائي موعدًا في اليوم التالي. وهكذا، صحبتُه إلى ساحة سافونارولا وأريتُه الأرشيف. وأثناء ذلك، تفحَّصته أنا كذلك، على الحال الفوضويّة التي تركتُه عليها، تفحَّصته للمرة الأولى، لأنّي ما رغبتُ يومًا بالاطلاع عليه، لكنّني أدركتُ حينها أنّه ثمينٌ حقًّا: مئات من الصور الرائعة، جاكومو، لمعماريّين، ومصمّمين، وفنّانين، وكلّها بالأبيض والأسود، وفيه ألبومٌ مخصَّصٌ للنساء المعماريّات، وبرأيي أنّه أكمل الألبومات بهذا الخصوص في إيطاليا كلّها؛ وفيه ألبومات جميلة جدًّا لم أر مثيلًا لها من قبل، عن تصميم مجسَّمات (مصابيح، كراسي، طاولات)، عن خطط مشاريع من المكتب وحتى تشكيلها في المصنع؛ وفيه توثيقٌ لكل معارض مجموعات العمارة الراديكاليّة في أعوام الستينات والسبعينات، وعدد كبير من فعاليات الشعري البصريّ، وألبومٌ محفّز ومخصّص لملائكة الطين من العام 1966، التي لم أكن أعلم عنها شيئًا كذلك: وفي إحدى تلك الصور، جاكومو، صورة واحدة، في فرقة الملائكة يظهر والدنا، منتعلًا جزمة وسترة، أمام المكتبة الوطنيّة، تحت عمود إنارة يضيء وجهه الباسم والسيجارة بين

شفتيه. الأثر الوحيد على حضوره في محيط الصور والنيجاتيف التي راكمته أمّنا طيلة حياتها. من المعجزة حقًّا أنّنا أنت وأنا وُلِدنا.

أبدى رئيس المؤسسة هذا انبهاره بالمواد لكنّه كان برأيي يتصنَّع ذلك، برأيي أنَّ دامي تامبوريني أمره بالحصول على كلّ المواد ونقطة انتهى، وعندما وصلنا للحديث عن تخطيط عمليّة النقل عرض عليَّ عشرين ألف يورو. لكنّي لا أريد شيئًا، قلت له، فانصدم. ماذا تقصد؟ لا مشكلة، قلت له، أنا أتبرّع، ومؤسستكم هي التي تسدي إليّ خدمة. فنظر إليّ ذلك الرجل حينها، نظر إليّ باهتمام، وقيّمني. لا أدري إن كان قد حدث لك أن قيَّمك أحدهم: لقد حدث لي، هناك، في الصالة في بيت ساحة سافونارولا، أنا واثق من أنّ ذلك الرجل بينما كان ينظر إليّ كان يقيّمني، أي كان يتساءل إن كنتُ نزيهًا أم لا، إن كنتُ بخيلًا أم لا، إن كان بوسعه أن يعرض عليّ المشاركة في أعماله أم لا. لا يمكنني أن أثبت لك ذلك، بطبيعة الحال، ولكن بينما كان ينظر إليّ «علمتُ» حقًّا أنَّ ذلك الرجل لصّ وأنّه سيسرق النقود - راودني حدسٌ غريب وساطع بهذا. وفي النهاية لا بد أنّه قيَّمَ عدم استحقاق المخاطرة بأن أفضحه لذا «قَبِلَ» تبرّعي، لكنه كان محبطًا بوضوح، وأنا واثقٌ لو أنّه عرف من الأساس أنّني أنوي التبرّع لما تجشَّمَ عناء المجيء حتى البيت.

وهكذا، جاكومو العزيز، فإنّ أثر مرور أمّنا في هذه الدنيا لن «يضيع في الزمان كالدموع في المطر». وهكذا، حصلت مؤسسة دامي تامبوريني على تبرُّع باسم ليتيتزيا كالابرو، وصار بيت ساحة سافونارولا برسم البيع رسميًّا، مع أنّ الوكيل الذي أوكلته بذلك، صديق قديم لي من أيّام المدرسة المتوسطة أمبيو بيروجيني (هل تذكره؟ لديه وحمة حمراء حول عينه: كنتَ تخاف منه) قال لي إنّ سوق العقارات راكدة الآن، بعد أزمة الرهن العقاريّ وتدهور البورصات إلخ. فلنأمل خيرًا، ماذا عسى أن أقول! لن أبيع ذلك

البيت بسعر بخس هذا أكيد. إن دُفِعَ لنا فيه ثمنٌ منصفٌ فهذا خير، وإلّا سأنتظر.

لا ينقصني الصبر، أليس كذلك يا أخي؟

المعذرة لأنّي سألتُ عن هذا، أنتظر منك ردًّا

وأعانق الشاشة

ماركو

درب الصليب (2003-2005)

مكتبة سُر مَن قرأ

أصيب بروبو كارّيرا بالسرطان بعد أن أعرب عن قراره الانتقال إلى لندن بقليل. وفي الواقع كان مصابًا عندما أعرب عن قراره ولم يكن يعلم بعد - أو ربّما كان يعلم ولا يعلم، أي أنّه يشعر به، وهذا ما يفسِّر غرابة الأمر جزئيًّا. فالأمر متعلّقٌ فعلًا بقرارٍ مفاجئ بالنسبة إليه: أن يغادر فلورنسا، ويترك بيت ساحة سافوناورولا، والورشة، والمصمَّمات، ومجسَّمات القطارات الصغيرة، وأن ينتقل إلى شقّة ضيّقة وشبحيّة ينبغي شراؤها خصّيصًا في ماريلبون، حيث يبدو أنَّ قلبه ظلَّ معلَّقًا بالمنطقة منذ زيارة العمل البعيدة التي قام بها في الخمسينات صحبة صديقه ألدينو، عشرون يومًا رائعًا لدى أسرة أرستقراطيّة من أصدقاء مانسوتّي المالكة لقصرٍ كاملٍ في كافنديش سكوير. ولكن مَن كان يعلم هذا؟ لا أحد. لم يعد إلى لندن سوى مرّتين منذئذ: مرّةً بعد عشرة أعوام، على بُعد مربَّعٍ سكنيّ واحد، في لانغهام أوتيل، بمغامرة غراميّة مع ليتيتزيا، عندما كانا ما يزالان متحابّين وسعيدين، ومرّةً مع الأسرة بأكملها بعدها بعشرة أعوام، خلال إجازة الفصح عام 1972، عندما صارا تعيسين، برحلةٍ نظَّمها بنفسه لمجلس مهندسي فلورنسا الذي كان يرأسه في تلك الفترة. بوساطة وكالة سياحيّة لم يزوِّدها بروبو سوى بمعطيين، الميزانيّة وإلزاميّة الحجز في منطقة ماريلبون، ليجد نفسه متكدِّسًا مع ليتيتزيا وأولادهما الثلاثة في غرفتين صغيرتين بفندقٍ صغير في شلترين ستريت، والذي اعترضت عليه ليتيتزيا نفسها وكثيرٌ من النزلاء الآخرين. أمّا هو فكان متحمّسًا، لأنّه كان في ماريلبون، ومجرّد تواجده في ماريلبون كان يجعله في أحسن حال.

ولكن من كان يعلم هذا؟ لا أحد.

لو أنّه كان ثرثارًا، بروبو، لو أنّه لم يكن الرجل الصموت الذي كان عليه، القادر على تمضية فترات صمت سحيقة، طيلة تلك الأعوام لزلّ لسانه قائلًا إنّه لم ير في حياته ما يفوق ذلك الحيّ جمالًا وطمأنينة في الدنيا بالنسبة إليه - قادرٌ على زعزعة مخيّلته، حتّى خلال الشلل الذي ألمّ به عقب وفاة إرينه. لكنّه لم يقل شيئًا لأحد لذا انفجر ذلك القرار مثل قنبلة أثناء يوم أحد دافئ من خريف العام 2003، بعد غداءٍ لذيذ أعدَّهُ بنفسه من أجل ليتيتزيا وماركو وآديلي. وخلال الغداء كانت ليتيتزيا قد اشتكت كالعادة من أنَّ جاكومو لم يعد يأتي لزيارتها حتّى في أعياد الميلاد - وكان بروبو صامتًا، كالعادة حين تشتكي زوجته؛ إلّا أنّه، ما إن انتهى الغداء، عندما كان الجميع بانتظار فرصةٍ لفضّ الجَمْعة، رمى القنبلة: سينتقل إلى شقّة صغيرة في ماريلبون. انبهر الجميع، ليتيزيا أكثرهم - مندهشة وغيورة أيضًا، لأنَّ هذا المشروع، كلّما استفاض بروبو باستعراضه، بدا أنَّه *مشروعها هي*: إنكلترا في العصر الجورجيّ، آخر البيوت على طراز الشقيقين آدم بلندن، المكتبات المتخصِّصة بالكتب القديمة، أفران الحلويات، الحانات المكتظّة بلاعبي الكريكت، البيت الذي توفّي فيه تيورنر، والبيت الذي عاش فيه ديكنز، والبيت الذي عاشت فيه إليزابيث بارريت قبل أن تهرب إلى فلورنسا بالضبط مع روبرت براونينغ، متحف والاس كوليكشن، لانغهام أوتيل - تحديدًا - وأشجار الدلب الأسطوريّة في مانشستر سكوير، وآخر بيت عاشت فيه النبيّة جوانا ساوثكوت... ما هذا الهراء؟ سألته ليتيتزيا مشتّتة الذهن: عن أيّ دلب وأيّ نبيّة تتحدّث؟ افتعل بروبو ملامح الماكر، وهو يدخّن سيجارته الكابري، وروى قصّة تلك المجنونة التي عاشت في العهد الجورجيّ، وقد أعلنت نفسها امرأة القيامة التي ذكرها يوحنا الرسول في سفر الرؤيا، وتوفيت عام

1814 وهي تناهز من العمر أربعة وستين عامًا، بعد أسابيع قليلة مَن فشل نبوءتها التي صرَّحت من خلالها بأنّها ستلد المسيح الجديد. لم تلد المسيح الجديد لكنّها أصيبت بمرض عضال، وتوفيت بعد الميلاد بقليل، مع أنّ مريديها انتظروا أن يبدأ جثمانها بالتفسُّخ قبل إعلان وفاتها على الملأ، في حال كانت قد قرّرت أن تُبعَث من جديد. وكانت نبوءتها الأشهر هي أنّ نهاية العالم ستقع عام 2004، وبما أنّه لم يبق إلّا أشهرٌ قليلة أعرب بروبو أنَّه يودّ حضور نهاية العالم هناك تحديدًا، في ماريلبون. لم يفصح بأيّ دلالة على أنَّه كان يمزح، ولا كشف عمّا إذا كانت ليتيتزيا مشمولةً في خيالاته أو إذا كان انتقالها إلى لندن يُفهَمُ بوصفه انفصالًا بينهما بعدما قطعا الستّين عامًا. أبدى اطلاعه على وجود الشقق الصغيرة في الحيّ، وعن أسعارها - باهظة جدًا، في الحقيقة؛ لكنّه وصف الحيَّ بذي «الأسعار المقبولة» بكلّ الأحوال.

وفي وقت لاحق، في المساء، اتّصلت ليتيتزيا بماركو: هل جُنَّ أبوك؟ هل فقد عقله؟ فطمأنها ماركو، رغم التيه الذي يعانيه، وقال لها إنّه متأكّد من أنّها مزحة؛ تبيَّنَ ذلك، قال لها، كلّ الأشياء الذي تحدّث عنها بروبو بخصوص ماريلبون، البيوت، أشجار الدلب، النبيّة، استقاها من صفحة «Marylebone» على ويكيبيديا الإنكليزيّة. لكنَّ ليتيتزيا، التي كانت في السابق لبيبةً بالإلمام بالابتكارات الحديثة، لم تكن تعرف ماذا يكون هذا الويكيبيديا. لم يثر الإنترنت شغفها، في حين أنّه أثار شغف بروبو - كان هذا هو الخبر المجلجل. كان هذا دليلًا على أنَّ ليتيتزيا وبروبو، في الشيخوخة، يتبادلان الأدوار، فباتت هي الآن مَن يتعثّر إزاء تقدُّم العالم، بينما يسبح فيه بروبو بانسيابيّة، بل ويؤلّف من وحيه مزحات راقية - أو في حال لم يكن يمزح، فتلك قرارات مضيريّة راقية. إنّه تغيُّرٌ تاريخيٌّ حاول ماركو أن يشرحه لابنته: الجدّ بروبو يبحر في الإنترنت ويقول إنّه يريد الانتقال إلى لندن،

والجدّة ليتيتزيا لا تستوعب وتتخلّف - ثورةٌ كوبرنيكيّة. لكنَّ آديلي لم تكن قد عرفت جدَّيها *في الماضي*، فلم تستطع أن تفهم هول الحدث - وجاكومو، كما تشتكي ليتيتزيا، غدا عالقًا في أمريكا ولم يعد يهتمّ بشؤون العائلة.

وبغضّ النظر عمّا إذا كانت مزحةً أم لا، كُنِسَ قرار بروبو بسبب التشخيص الذي ظهر بعد ثلاثة أسابيع، خلال يوم جمعة ممطر من نوفمبر، عقب خزعة الأنسجة المستخرجة أثناء تنظير الكولون الجاري إثر اكتشاف دماء في البراز خلال فحصٍ اعتياديّ. سرطانٌ غُدِّيّ. باي باي لندن. وداعًا ماريلبون. كانت نهاية العالم، صحيح، ولكنّها مختلفة عمّا قصدتها جوانا ساوثكوت. وبدلًا عنها افتُتِحَ دربُ الصليب الشهير، فخر الطبابة المعاصرة، التي تحرِّر المريض من الآليّة الحُكم–التنفيذ البائدة، وترغمه على اتّخاذ دربٍ مضنٍ وطويل، طويل جدًّا أحيانًا، نحو النهاية - درب الصليب، بالضبط، المقسَّم على محطّات كما ينبغي، وغالبًا ما تفوق الأربع عشرة محطّة. اكتشاف الداء. خزعة. نتيجة الخزعة. استشارة أخصّائيّين. تردُّدٌ ما بين العمليّة والعلاج. اختيار العمليّة أو العلاج. مَخرَجٌ غير مشجِّع للعمليّة أو لدورات العلاج الأولى. اكتشاف ضرورة العلاج في لحظةٍ معيّنة حتّى لو اختيرت العمليّة. أعراض جانبيّة للعلاج. تغيير إجراءات العلاج. اكتشاف ضرورة العمليّة في لحظةٍ معيّنة حتّى لو اختير العلاج. وهكذا وهكذا وهكذا... لقد عرفه الجميع، هذا الدرب، بشكل مباشر أو غير مباشر، ومن لم يعرفه سيعرفه، ومن لم يعرفه ولن يعرفه فهو إمّا مصطفىً وإمّا أكثر الجميع شقاء.

أخذ ماركو على عاتقه منذ البداية كلَّ عبء إسداء العون - شيءٌ بسيط، فكَّرَ، قياسًا بعبء المرض الذي أثقل كاهل أبيه - وقد فعلها بإقدامٍ كبير. فعودة آديلي إلى أحضانه كانت بالنسبة إليه معجزةً تملأ قلبه بالقوّة والمثابرة. خضع بروبو لعملٍ جراحيّ بالأمعاء وما لبث أن صحا منه حتّى برزت

بعض الانبثاثات من العدم، لتصيبه بالكبد وبإحدى الرئتين. ولكي يقاوم هاتين، اتّخذ هذا الدرب: في الشتاء، علاجٌ كيميائيٌّ مكثّف؛ توقُّفٌ في الربيع؛ استراحةٌ في الصيف؛ استئناف الإجراء في الخريف؛ علاجٌ كيميائيٌّ مكثّف في الشتاء، وهكذا دواليك. إن صمد بروبو جسدًا ونفسيّةً، قال عالم الأورام، يعني أنَّه سيعيش أعوامًا طويلة بجودة حياة معقولة. لذا، هيّا يا ماركو: رافِقْهُ إلى المعالجة الكيميائيّة، راقِبِ الأعراض الجانبيّة، راقِبْ فاعليّة الأدوية الأخرى، خذْهُ إلى التصوير الطبقيّ المحوريّ، استدعِ الممرّض إلى البيت لفحص الدم... علاوةً على اضطراره إلى العمل والاعتناء بآديلي أيضًا، لم تكن هذه الفترة سهلة بالنسبة إلى ماركو - إلّا أنَّ مقاومته لم تكن موضع نقاش، إنّما مقاومة والده.

صمد جسد بروبو جيّدًا بما فيه الكفاية، وتقوَّضت الانبثاثات منذ الجرعات الأولى من الكيماوي. أمّا بخصوص النفسيّة فكان من الصعب فهم كيف وضعها، نظرًا إلى أنَّ بروبو كان يتكلّم قليلًا جدًّا. لم يكن يبدو أنّه منهار، عمومًا. لكنَّ ليتيتزيا كانت مصدومة، لم تستطع تقبُّل الحال ولا الاعتناء بزوجها بالمستوى الذي ظنّت أنّها قادرة عليه - ما كان يحفِّز في صدرها ميولٌ خطير نحو الاكتئاب. وعلى الرغم من أنَّ ماركو لم يشغل نفسه يومًا بهذا المجال، تملَّكه حدسٌ بأنّ المحلّلة النفسيّة التاريخيّة لوالدته - التي رغم شيخوختها ما زالت تصرّ على متابعة أداء المهنة - تخسر النقاط. فكانت آديلي بالأحرى مَن أمدَّها بمساعدةٍ حاسمة، عندما جاءتها بلعبة منطق جديدة اكتشفها زملاؤها راكبو الأمواج في بريطانيا، واسمها سودوكو. وكم أحبَّت ليتيتزيا هذه اللعبة، مؤكّدةً بذلك أنّها تغدو مثل بروبو، إذ لا تبدو هذه اللعبة من ظاهرها ملائمةً لها، وهي المعماريّة التي لا تهدأ، بقدر ما قد تلاؤم زوجها، المهندس الكثير الجلوس. والذي خلافًا للتوقّعات لم ينجذب لهذه التسلية،

ولم يعد يأتي على ذكر ماريلبون، ورغم أنَّ العلاج أضعفه وغلبه، كرَّس نفسه لتخطيط مجسَّمٍ عظيم - الخطّ الحديديّ الواصل بين نابولي وبايانو، المدشَّن عام 1884، وقد أعاد تشكيله بناء على بحث دقيق؛ وسرعان ما تخلّى عنه حين قطع إجراء العلاج الكيميائيّ من أجل الاستراحة الصيفيّة. فعندما شعر باستعادة قواه (التقويم الزمنيّ الذي حسبه عالم الأورام كان ناجحًا)، اشترى زورقًا صغيرًا ومستعملًا في مارينا دي شيشينا وباشر الذهاب للصيد. هيّا بنا. إلى البحر. كلَّ يوم. هكذا، من العدم. لم يمارس الصيد منذ أيّام صداقته بألدينو مانسوتي، ما يعني أكثر من ثلاثين عامًا، لكنّه بدأ يجرِّب حياة الصيّاد. وكان يصيد فعلًا، كان ماهرًا. كان يصطاد سمكة الخرمان أوّلًا، ثمّ يستخدمها طعمًا حيًّا لاصطياد سمك الزرقاء: عندما يصطاد سمكة كبيرة، يتصوَّر على اليابسة والفريسة بين يديه، لتنتهي الصورة على جدار كوخ هوميروس، العامل في المرفأ–القناة الذي باعه الزورق. لم يكن أحدٌ ليقول إنّه مريض، إذا شاهد تلك الصور. وقد فعل هذا الأمر، بدون الحاجة إلى لندن، فعله بالانفصال عن ليتيتزيا، لأنّه يعني الانتقال إلى بولغيري من منتصف مايو وحتى أواخر سبتمبر، وكان ذلك المنزل يُشعِرُ ليتيتزيا بالغثيان، خصوصًا إذا توجَّبَ عليها الذهاب بمفردها (مرافقة بروبو إلى الصيد غير ممكنة قطعًا). لذا، ومن جديد، شعرت ليتيتزيا بأنّها ناقصة، ممّا عانته في حياتها من عدم انصياعٍ للتطوّر، وأنّها مذنبة في عدم استطاعتها الاعتناء بزوجها المريض - الوظيفةَ التي أدّتها بشكلٍ ممتاز ابنةُ السيّدة إيفانا، لوتشيا، التي نابت في الأثناء عن أمّها بتدبير شؤون ذلك المنزل في بولغيري.

وكان ماركو يجيء ويغدو. فلورنسا–بولغيري - ويمضي يومًا كاملًا مع أبيه؛ بولغيري – فلورنسا – ويصحب والدته للعشاء في المطعم الهنديّ المجاور للإستاد، أو إلى السينما، مع آديلي؛ فلورنسا – سيرافيتسا، ليرافق

آديلي للتسلُّق على جبال الأبواني مع رفاقها الأكبر سنًّا؛ وأحيانًا، في بعض نهايات الأسبوع: فلورنسا - سيرافيتسا - بولغيري - سيرافيتسا - فلورنسا، إذا وجد وسيلة لمرافقة آديلي، وائتمانها لدى رفاقها، والهبوط إلى بولغيري، والذهاب إلى القريدس الأحمر مع بروبو، والذهاب للصيد معه في الصباح التالي، والعودة لاستعادة آديلي في الظهيرة واصطحاب ليتيتزيا إلى المطعم مساء الأحد. مهمّةٌ شاقّة، لكنّها تبقى أفضل من المهمّة التي تتوجّب عليه في الشتاء. وبعد ذلك هلَّ أغسطس واجتمعت العائلة في بولغيري، كما لو أنَّه قانونٌ منقوشٌ في الألواح الحجريّة.

حضر جاكومو من كارولاينا الشماليّة أيضًا، إذ استدعته ليتيتزيا، بصحبة زوجته، فيوليت، وابنتيهما أماندا وإميلي، وامتلأ البيت من جديد مدّة أسبوعين. وهذا أتعس ما في الأمر: فإذا كان التظاهر بوحدة العائلة مضحكًا في السابق، عندما كان الجميع معافين، أصبح آنذاك مؤلمًا عندما بدا من الواضح أنَّ المرض هو الذي يوحِّدها ثانيةً - المرض الذي لا يُفتَحُ موضوعه أبدًا، طالما أنَّ بروبو على الرغم من تغيير عاداته لم يغيِّر سلوكه وظلّ متكتّمًا. وكان الألم مضاعفًا عند ماركو بسبب أنَّ لويزا لم تظهر طوال الصيف - لم يحدث أنّها تغيَّبت عن بولغيري إلّا مرّةً واحدة في الماضي، وكان ذلك قبل أعوام طويلة، عندما توجَّبَ عليها إنجاب ابنها الثاني، وكان حملها مهدَّدًا، فبقيت في باريس. بدا له عدم رؤيتها في ذلك الصيف تحديدًا، وهو يحمل الصليب، دليلًا دامغًا على أنّه خسرها إلى الأبد. وكان على خطأ، إلّا أنَّ الأمر في تلك اللحظة بدا له بوضوحٍ مثبِّط.

استأنف بروبو العلاج الكيماويّ في أكتوبر، لكنَّ الوضع تدهور بعد أسابيع قليلة. فمنذ الصيف وليتيتزيا تدّعي زكامًا وهزالةً. لم يقلق الطبيب العامّ، وتحدَّثَ عن التهاب الرتج، ولكن عندما اتّجهت ليتيتزيا في نوفمبر

إلى الطبيب النسائيّ لإجراء فحوصات تبيَّنَ أنَّ لديها ورمًا في مرحلة متقدِّمة جدًّا في داخل الرحم. سارع الطبيب، وهو صديقٌ للعائلة، إلى الاتّصال بماركو ليخبره بذلك قبل أن يبلغها هي، لأنَّه كان هو نفسه مصدومًا. ترك ماركو عيادته وهرع إلى عيادة زميله، وكان هو مَن أعلم أمّه، هناك، بحضور طبيب النسائيّة ومساعِدَتِهِ، اللذين طغى عليهما السكوت والارتياع. «أنا ميّتة» ردَّدت ليتيتزيا طوال رحلة العودة، واستمرّت بالترديد في البيت أيضًا، لماركو الذين يحنو على شعرها، جالسًا على الأريكة بجانبها، ولبروبو الذي ينظر إليها ولا يستوعب. «أنا ميّتة».

بدأ درب الصليب الثاني - الأكثر تخبُّطًا، والأشدّ إحباطًا، والأسرع بكثير. فمنذ الزيارة الأولى لطبيب الأورام الذي كان قد بشَّرَ بروبو بآمال الحياة، لم يبشِّرها بها. بل كان يتكلّم بصراحةٍ بدت لماركو وقاحة: هناك، أمامها وأمام بروبو، الذي أراد بكلّ السبل أن يحضر، لم يفه حتّى بأمل ضبابيّ، لا شيء، ما عدا الحقيقة المربكة. صُدِم الجميع باستثناء ليتيتزيا، التي كانت مصدومة منذ مدّة، وقد وضعها تعليقها - «أنا ميّتة» - في قلب الأحداث منذ البداية.

أجري لها أيضًا العلاج الكيماوي، على الرغم من اعتباره بلا جدوى من قِبَلِ الطبيب نفسه، وقد خضعت للعلاج بخلاف ما كان لها أن تفعل في شبابها، عندما كانت كبرياؤها الراديكاليّة تقتات على النضال ضدّ ما لا ضرورة له. وهكذا، قبل أعياد الميلاد بقليل، اختبر ماركو التجربة الراديكاليّة باصطحاب والديه كليهما إلى مشفى اليوم الواحد لإجراء العلاج - بروبو في غرفة، وليتيتزيا في أخرى - تجربةٌ ذكَّرته بكتابٍ لديفيد ليفيت قرأه قبل أعوام طويلة مع مارينا، عندما كانا مغرمين وآديلي في طريقها إلى الحياة. لم يكن يذكر من الكتاب شيئًا تقريبًا، ولا حتى عنوانه (مجموعة قصص، هذا فقط)، لكنّه أزهر في ذاكرته من جديد برقّةٍ بالغة، لا لشيءٍ سوى لهذا السبب البسيط

والفاحش: أنّه يصطحب كلا الأبوين إلى العلاج الكيماوي.

أتى جاكومو من أمريكا للمساعدة، وبما أنّها كانت فترة أعياد الميلاد جاء بالعائلة كلّها. وكما يحدث عادةً في هذه الحالات، تجنُّبًا للمساس بغرفة إرينه، ذهبت ابنتاه للنوم في بيت ماركو، في غرفة آديلي. كانتا أكبر منها بقليل، قبيحتين وأمريكيّتين حتّى النخاع: وكان يبدو أنّ جاكومو تفادى بشتّى السبل أن ينقل إليهما أيّ شيء من أصوله، بما في ذلك الجمال الذي ما زال يسطع منه وقد تجاوز الأربعين عامًا. يكفي أن تراهما يتناولان طبق سباغيتي أو يتفوّهان بالتعابير الابتدائيّة من اللغة الإيطاليّة، لتدرك كم أراد جاكومو أن يوسِّع المسافة الفاصلة بينه وبين حياته السابقة. وبأيّ حال، كان قد ذهب إلى أمريكا منذ أكثر من عشرين عامًا، وتجنَّسَ بالجنسيّة الأمريكيّة منذ خمسة عشر عامًا، وكان يدرِّسُ في الجامعة منذ عشرة (الميكانيكا التحليليّة)، ومنذ خمسة أعوام – مثلما تشتكي ليتيتزيا دومًا – لم تطأ قدمه فلورنسا حتّى لقضاء أعياد الميلاد: فهل من المفاجئ أن تختفي أصوله؟

أمّا المفاجأة الحقّة فقد برزت في قراره البقاء بعدما عادت فيوليت وابنتاهما إلى الديار. لم يطاوعه قلبه أن يترك شقيقه في مواجهة أهوال ذلك الوضع بمفرده، خصوصًا أنَّ كليهما، بروبو وليتيتزيا، عبَّرا عن رغبتهما بعدم إنهاء أيّامهما في مستشفى، وبالبقاء في البيت حتى الرمق الأخير، الأمر الذي عقَّدَ المهام. فتعرَّض جاكومو للمرّة الأولى منذ سنوات طويلة لإشعاعات عائلته القديمة من دون وقاية عائلته الجديدة الذي مضى لتأسيسها في أمريكا. حاول أن يقلّد ماركو، الذي كان في تلك الجحيم يبدو أنّه في أحسن حال: كان يذهب معه لمرافقة أبويهما لإجراء الكيماوي، ويعتني بهما بينما يبحث ماركو عن الممرّضة الجديدة - النهاريّة، إضافة إلى الممرّضة الليليّة، لأنّ الأعراض الجانبيّة صارت أشدّ وطأة على كليهما. وتعهَّد بفعل *المزيد* عنه، بما أنّ ماركو

كان يعمل، ولديه آديلي، ولا يقضي كلّ الوقت مع بروبو وليتيتزيا. أمّا جاكومو فيقضي كلّ الوقت مع بروبو وليتيتزيا، أو تحت تصرُّفهما على الأقلّ. ما كان يخرج من بيت ساحة سافونارولا إلّا تلبية لاحتياجاتهما، وشراء الطعام، والتزوُّد بالأدوية. ويمضي الأمسيات في تحضير نقيع الأعشاب، ومشاهدة التلفاز بجانب بروبو ومساعدة ليتيزيا في حلّ السودوكو. كان قد عاش عشرين عامًا في فلورنسا ولم يخطر في باله التواصل مع أصدقاء شبابه، أو إحدى صاحباته القديمات، أو التسلّي قليلًا. وقد لاحظ ماركو شيئًا تأسَّفَ له وهو أنَّ جاكومو لم يحاول ترسيخ علاقة عميقة مع آديلي، مثلما توقَّعَ هو - ومثلما كان هو ليفعل مع ابنة أخيه التي لا يراها أبدًا. كان يستنزف نفسه، عمليًّا، في خدمة أبويه المحتضرين: واضعًا على عينيه الغمامات، وبانقطاع أنفاس، كأنّه يخوض حربًا. وحتى عندما ظهرت الممرضة النهاريّة ظلَّ يدبِّر الأمور، ويحقن الإبر، ويقيس الضغط، لدرجة أنّ الممرضة ظنّت أنّ الابن الطبيب هو جاكومو لا ماركو. لكنّه في الوقت نفسه خشي أن يرتكب خطأً قاتلًا وما انفكّ يطلب النصح من أخيه، الطبيب حقًّا: ماذا تظنّ أنّني أعلم - يردّ - أنا طبيب عيون. كان شيطان التنافس الذي يعاني منه ضدّ ماركو ما يزال بانتظاره في ذلك البيت، طيلة تلك الأعوام كلّها، وها قد أخذ يؤرِّقه من جديد.

كان ينام في غرفته التي بقيت من أيّام صباه، لكنّ النوم كلمة مبالغ فيها، لأنَّه كان يفيق جفلًا جرّاء أيّ نأمة صادرة من غرفتي أبويه، في أيّ ساعة من الليل، ليبلغ سريرهما بغمضة عين، قبل الممرّضة أيضًا. ذات مرّة اتّصل بماركو، حوالي الثالثة ليلًا، متخوِّفًا من نوبة زحار قد تفتك بليتيتزيا. فطمأنه ماركو، وأوصاه بأن يثق بالممرّضة، ثمّ قرّر أن يرتدي ثيابه ويذهب إلى بيت ساحة سافونارولا؛ وحينما وصل، وسيطروا على الحالة الطارئة بفضل

الديسنتين، وجد الشقيقان نفسيهما في الصالون الكبير الذي ظلَّ على حاله مذ كانا صغيرين، لا تفصلهما إلا فجوة صغيرة عن التصالح والتوادّ؛ ورغم هذا، لم يفعل أحدهما شيئًا لردم هذه الفجوة، فلم يقع شيء ولم يتصالحا. وحدث ذلك أكثر من مرّة، في تلك الأيّام، في المستشفى، عندما كان بروبو وليتيتزيا غافيين أثناء المعالجة، فخرج الشقيقان كلٌّ من غرفة مريض وتلاقيا في عتمة الممرّ. كانت كلُّها فرصًا سانحة ليتعاتبا ويتسامحا، ويدفنا فأس الحرب إلى الأبد: لكنَّ زمنًا طويلًا كان قد مرَّ بحيث أنَّهما ما عادا يذكران سبب المشكلة، على الرغم من بقائها حيّةً بينهما. طالما أنَّ الأبوين مريضان، تضاءل الخلاف القديم بين الأخوين، إلّا أنَّ هنالك أمرًا آخر: بروبو وليتيتزيا يتحمَّلان جزءًا من مسؤوليّة عقدة المشنقة التي دمَّرت الأسرة، عقب وفاة إرينه فصاعدًا، حتى لو كان من الصعب تحديد هذا الجزء نظرًا إلى الحال التي كانا فيها يحتضران كلٌّ على سرير.

وفجأة، عند نهاية يناير، عندما سمح العلاج الكيماوي بقليلٍ من الهدنة، تخلّى جاكومو عن مهامه وعاد إلى أمريكا. لم يقل إنّه سيبقى إلى أجل غير معلوم، فهو ملتزمٌ بالدروس في الجامعة وأشياء كثيرة أخرى، لكنَّ انصرافه بدا حادًّا وغير طبيعيّ: لم يتحدّث بالأمر إطلاقًا، وها هو يغادر على حين غرّة. ولعلَّ غيابه ترك فراغًا لهذا السبب أيضًا - مثلما حدث في الماضي، بالمناسبة، لأنّ جاكومو كان رجلًا يميل إلى مغادرة الأماكن، وإحداث فراغ. تلقّى ماركو الصفعة لكنّه في الأيّام نفسها تلقّى نعمةً غير متوقّعة، وهي رسالة من لويزا. بعد مضيّ أربعة أعوام تقريبًا، هكذا، من العدم، تكتب إليه رسالة غريبة، تحدِّثه فيها عن معتقدٍ أزتكيٍّ ينصّ على أنّ أعظم مكافأة يستحقّها الذي سقط في المعارك هي أن يتجسّد ثانيةً في طائر طنّان. لكنَّها في بداية الرسالة تخبره بأنّها مشتاقةٌ إليه، وفي النهاية تعتذر منه لأنّها - على حدّ

قولها - «دمَّرت كلَّ شيء». ظلّ ماركو ليلةً بأكملها يتأمّل في المعنى الذي قد تحتمله الرسالة، لاسيّما الجملة الأخيرة، لكنّه في اليوم التالي قرّر أنّه مع لويزا لا ينبغي له أن ينمّق، ويؤوِّل، ويتأمّل؛ مع لويزا ينبغي له أن يطلق العنان لنفسه - إمّا أن يحجم، مثلما ظنّ أنّه فعل، وإمّا أن يطلق العنان لنفسه ما لم يحجم. لذا ردَّ عليها برسالةٍ طويلة ومؤثّرة، هكذا، دون وقاية، دون أن يفكِّر بالمعاناة التي أنزلتها عليه، قبل أربعة أعوام، عندما انسحبت فجأة من المشروع الذي خطّطاه قبل أسابيع قصيرة - آه نعم، وكيف خطّطاه، في الليل، على شاطئ رينايوني، وأضواء زوارق الصيّادين تلتمع على صفحة الماء، والألعاب الناريّة تندلع قرب ليفورنو - بأن يذهبا للعيش معًا ويؤسِّسا أسرة كبيرة، وقد باحت له كذلك باتّهامات خطيرة تخصّ الصرامة والحدود المنتهكة التي تفوح بنصائح المحلِّل النفسيّ على بُعد ميل، وانطلقت إلى باريس ولم تعد تبحث عنه ولا تراسله، وحين كانا يتلاقيان في بولغيري بالصيف كانت بالكاد تسلِّم عليه، لثلاثة أعوام متواصلة، وفي العام الرابع، الأخير، لم تأتِ إلى بولغيري حتّى، ولا أسبوع حتّى، ولا يوم حتّى. لم يفكّر في هذا، ماركو، لم يتأمّل، لم يتوقَّ، وأطلق العنان لنفسه، مرّةً أخرى (الثالثة؟ الرابعة؟)، وحدَّثها عن الحياة العاتية التي يعيشها، والحبّ الطافح، والحزن، والقوّة، والتعب، وقدوم جاكومو، وحضوره الغريب جدًّا لكنّه مألوف، والفراغ الذي خلَّفه بمغادرته، فراغٌ غريبٌ أيضًا، ومألوفٌ أيضًا، حدّثها عن السباق بين أبيه وأمّه على مَن يرحل أوّلًا، وعن تبادل الأدوار الذي مزجهما معًا في تلك الأيّام الأخيرة، والعطف الذي يتولَّد عن كلّ هذا. وفي النهاية، قال لها إنّه ما زال يحبُّها، كما لو أنَّ شيئًا لم يكن. ردَّت عليه لويزا فورًا برسالة مؤثّرة هي الأخرى: هي أيضًا ما زالت تحبُّه، ظنّت أنّها دمَّرت كلّ شيء، وكانت سعيدة أنّ الأمر ليس كذلك، كانت تحبّه هي أيضًا، وكانت حزينة على أبويه وتقدِّر جهوده كثيرًا، فلقد مرَّت في هذه المحنة قبل عامين عندما

مرض والدها، ولكن أن يمرض كلاهما معًا فهذا أشدُّ وأشقى بالتأكيد، إلى آخره. وهكذا استأنفا المراسلة مثلما فعلا على مدار نصف حياتهما، برسائل على الطريقة القديمة، مكتوبة بقلم الحبر، ومظروفٍ يُلعَق وطوابع أصبحت مع مرور الزمن قابلة للصق، زاخرة بكلمات الحب، والأحلام، وقصص عن أولادهما، وحتّى مشاريع مستقبليّة، مع أنّ التجربة في هذا المجال تشور على كليهما بتوخّي الحذر. باختصار، هو العالم الخياليّ للحبّ المستحيل ما بين ماركو ولويزا الذي يسطع عندما كانا منفصلين.

توفّيت ليتيتزيا أوّلًا، في أوائل مايو، قبل أيّام قليلة عن عيد ميلادها الخامس والسبعين. أعطت السلاسة التي غمرتها منذ أن مرضت، الوقتَ لجاكومو ليهرع من أمريكا ويكون حاضرًا جسديًّا، بجانب ماركو وإيفانا العجوز، التي قدمت من كاستانيتو كاردوتشي، للوقوف حتّى النهاية إلى جوار «سيّدتها»، في اللحظة السامية التي لفظت فيها رئتاها المقرقرتان النفسَ الأخير. إلّا بروبو، لم يكن حاضرًا، إذ كان يجوب البيت متمسّكًا بجهاز المشي مثل إنسان الغاب، يزبد غضبًا، متبوعًا بالممرّضة. غضبٌ لم يُظهِره بروبو في حياته على الإطلاق، ومن المرجَّح أنّه لم يشعر به حتّى، لكنّه في تلك اللحظة، في ذروة تبادل الأدوار بينه وبين ليتيتزيا، كان يبدو أنَّ الغضب هو القوّة الوحيدة التي بقيت لديه.

أجري جنّاز ليتيتزيا في يوم ميلادها. هبطت لويزا من باريس من أجل الحدث، وفسَّرت للشقيقين أنّ مَن يمت في يوم ميلاده بحسب التقاليد الروحانيّة الشعبيّة اليهوديّة، كالنبيّ أيّوب، يعدُّ «رجلًا صالحًا»، *تساديك*، أو امرأة صالحة، *تساديكيت*. لم تأتِ على ذكرها في الرسائل التي تبادلتها مع ماركو، ولكن تبيَّنَ أنّها في الأعوام الأخيرة تقرَّبت من ديانة أسرتها، عقب وفاة والدها وما تبعها من طقوس وتأبين تعيَّنَ عليها المشاركة فيها في الجالية

اليهوديّة بباريس. وبكلّ الأحوال، ما إن وُجِدت هناك، بشحمها ولحمها، إلى جانب ماركو، ها إنَّ لويزا تبدو حائرةً من جديد، بعيدةً كلَّ البعد عن الصوت العاطفيّ الذي يدوّي في رسائلها. لم يتلامسا، على الرغم من انعدام ما يمنع ذلك؛ باستثناء مرّة واحدة تلاثم الثغران فيها، إثر معانقة أمام العربة الجنائزيّة التي تحمل النعش، لكنّ القبلة كانت طفيفة، هاربة، بالكاد تلامس فيها اللسانان. وبالطبع لم يكن الظرف يسمح بالحديث في الأمر، لم يهتمَّ به ماركو، لكنَّه انبهر بذلك.

غادر جاكومو في اليوم التالي للجنّاز، ومعه علبة في الحقيبة، تحتوي على حفنة من رماد أمّه. أمّا مصير صندوق الرماد بأكمله وما تبقّى فتلك مشكلة ماركو. أخذ طائرة لويزا نفسها إلى باريس، حيث سيأخذ طائرة أخرى إلى شارلوت. وهكذا وجد ماركو نفسه يوصلهما إلى المطار ويراهما يسافران معًا، شقيقه وامرأة حياته، ولم ينتبه إلّا بعد أن ودَّعهما، وكانت تهزّ رأسها مثلما كانت تفعل حين تضحك من قلبها، لم ينتبه إلّا في تلك اللحظة أنَّ العالم المشعّ نفسه الذي يحيط بلويزا عندما تكون معه - مؤلَّفًا من الذكريات نفسها، والضوء نفسه، والحميميّة نفسها - كان يحيط بها حتّى عندما تكون مع جاكومو. وإذ تابعهما بنظراته، أحسَّ ماركو للمرّة الأولى في حياته، في سنّه الخامسة والأربعين، بعد ثلاثة أيّام من افتقاده والدته، أحسَّ بغصّة غيرة تجاه أخيه: لا غيرة لما كان، إنّما لما كان يمكن له أن يكون - للمرّة الأولى، بعد ربع قرن من اللحظة الذي كان عليه أن ينتبه فيها إلى ذلك، أدرك أنَّه إذا تغيَّرَ الأخ كارّيرا بجانب لويزا تبقى النتيجة هي هي. كلُّ ما كان ساطعًا فيها بالفعل، والذي كان يظنّ أنّه لا يرى سواه فيها، كان آتيًا من فصول الصيف البعيدة في صباه حين أغرم بها وهو ينظر إليها تكبر، وتستجمّ بالشمس، وتركض وتغطس في الماء عند ذلك الجزء البكر من الساحل – لكنّه انتبه

أنّ تلك الأشياء ذاتها، في تلك اللحظات ذاتها، رآها جاكومو أيضًا. لم يكن ما راود ماركو متعلّقًا بإدراك كيف جرت الأمور حقًّا، لكنّها كانت صدمة بكلّ الأحوال.

وبقيت من مشاكل ماركو وحده إدارة بروبو أيضًا، الذي أفناه الداء كلّيًا ورغم هذا ما زال متشبّثًا بالحياة بكلّ ما أوتي من غضب. هزل جسمه إثر خضوعه لإجراء مسكّنات الألم وأرّقه أنَّ ليتيزيا سبقته، فلم يعد يحظى بالسكينة لا في النهار ولا في الليل. وكانت هذه، بالنسبة إلى ماركو، المحطة ما قبل الأخيرة في درب الصليب، تلك التي يتمنّى فيها الجميع - سواء أكانوا مرضى أم ممّن يعتنون بهم - نهايةً باكرة. وكان بروبو، بلغته التي اجتاحها الهذيان بسبب المورفين، يأمره كلّ يوم أن يأخذه بعيدًا - خذني بعيدًا، لقد وعدتَني أن تأخذني بعيدًا، أريد أن أذهب بعيدًا، هل فهمت؟ حاول ماركو استطلاع إمكانيّة تسريع هذا المسار قليلًا، لكنَّ الزميل الذي أوكلته المؤسّسة الطبيّة المحليّة معالجة آلام بروبو، الدكتور كابيلي، تظاهر بأنّه لم يسمع، مردِّدًا بأنّه من غير الممكن توقُّع كم من الوقت يستغرق هذا الأمر. إلّا أنَّ ماركو طبيب، وكان يعلم أنَّ ذلك ممكن. وهكذا، وبعد حلقة الأسى إيّاها: لقد وعدتَني، يا لك من وغد، خذني بعيدًا - لم يعده بشيء، بالمناسبة، باستثناء ألّا يتركه يموت في المستشفى - قرّر ماركو أن يفعلها بنفسه. كانت هذه المحطة الأخيرة، المحطة التي (الشكّ ذاته يتكرّر دائمًا) يستحقّها إمّا المصطفون القلّة وإمّا التعساء القلّة: أن تُخرِجَ من هذه الدنيا مَن جاء بك إلى هذه الدنيا - سواء بسبب الشفقة، أو الطاعة، أو الإنهاك، أو الخيبة، أو العدالة. وهكذا عرف ماركو بدقّة متى آخِر مرّة تحدَّث فيها إلى والده: قال له بأن يهدأ، وأن يسترخي، فهذه المرّة سيأخذه بعيدًا. وحقنه بجرعة أولى من سلفات المورفين غير المندرج في المعالجة التي يتَّبعها الدكتور كابيلي، وتمدَّد بجانبه على السرير

وسأله إن كان جاهزًا للانتقال إلى ماريلبون. هدأ بروبو أخيرًا، وغمغم بنعم، وأضاف جملةً من الأسماء التي لم يفهمها ماركو، أمّا كلماته الأخيرة التي ميَّزها ماركو جيّدًا، دون أن يفهمها، فهي «بيت غولدفنغر». ثمّ سقط غافيًا، وفي تلك اللحظة كان ماركو كارّيرا، خرّيج الطبّ والجراحة عام 1984، والأخصّائيّ في طبّ العيون عام 1988، فعل ما فعل بالقسطرة الوريديّة لوالده ومورفين الدكتور كابيلّي.

كان اليوم التالي يصادف مرور شهر بالضبط على وفاة ليتيتزيا. كان اليوم التالي يصادف عيد ميلاد بروبو. وكان بروبو في اليوم التالي ميّتًا - ما يعني، بحسب ديانة لويزا، أنّهما أبوان صالحان، *تساديك وتساديكيت*. لكنّ لويزا في هذه المرّة لم تهرع من باريس من أجل الجنّاز، ولا السيّدة إيفانا من كاستينيتو كاردوتشي، ولا حتى جاكومو من كارولاينا الشماليّة: لم يستطيعوا. وللقلّة الذي زاروا الجثمان في غرفة المحرقة، والذين سألوا ماركو كيف شعوره، أجابهم: «متعَب». كان الرماد الذي سُلِّمَ بعد الحرق، وعلى الرغم من مجيئه من نفس المحرقة، كان أشدّ قتامةً وخشونة من رماد أمّه.

بالعطاء والتلقّي (2012)

الخميس 29 نوفمبر

دكتور كارّادوري؟ أهذا ما يزال رقمك؟ 16.44
أهلًا، دكتور كارّيرا. أجل، الرقم ما يزال نفسه. أيّ خدمة؟ 16.44
مساء الخير. هلّا قلتَ لي متى يمكنني الاتّصال بحضرتك لو سمحت؟ 16.45
أنا في باليرمو الآن، سأستقلّ الطائرة للذهاب إلى لامبيدوزا. إن لم يكن الأمر طارئًا بإمكانك الاتّصال بي بعد العشاء، بعد أن أستقرّ. أهذا يناسبك؟ 16.48
يناسبني بالتأكيد. لا أودّ إزعاجك. هل ستذهب إلى لامبيدوزا بسبب حادثة الغرق التي وقعت في الشهر الماضي؟ 16.48

صحيح. وليس من أجل ذلك فحسب. تلك الجزيرة عجيبة، بما تعطيه وما تتلقّاه. كيف حال حضرتك؟ 16.50
آه، لستُ بخير، لسوء الحظّ. ثمّة غرقٌ هنا أيضًا. أحتاج إلى مشورتك. 16.51
هذا يؤسفني. سأكون تحت تصرُّفك إن اتّصلتَ بي هذا المساء. 16.51
شكرًا، دكتور. نتواصل لاحقًا. 16.52
على الرحب. نتواصل لاحقًا. 16.54

قناع (2012)

- ألو؟
- مساء الخير. الدكتور كارّادوري؟
- أجل، دكتور كارّيرا. مساء الخير. كيف الحال؟
- آه، لستُ بخير.
- ما الذي وقع؟
- ...
- ...
- ...
- لا أعرف كيف أخبرك حقًّا. بمعنى، لا أعرف كيف أخبرك بما وقع بطريقةٍ لا تبدو سمجة.
- أخبرني بما وقع بطريقةٍ سمجة.
- ...
- ...
- آديلي...
- ...

- ...

- ما بها آديلي؟

- لقد ماتت.

- يا إلهي، كلّا!...

- بلى، لسوء الحظّ. منذ ثمانية أيّام.

- ...

- ...

- ...

- بحادثةٍ على سفوح جبال الأبواني. بإحدى تلك الحوادث التي لا يفترض بها أن تقع، بحسب ما يقوله متسلِّقو الجبال...

- ...

- ... وأنّ الحادثة في حالة آديلي تثير الدهشة. ولا شكّ أنَّها ستثير دهشتك، دكتور كارّادوري.

- لماذا؟

- لأنَّ الحبل انقطع، هذا هو السبب. بينما كانت تتسلّق. بسبب احتكاكه بالصخور. طق. انقطع. ولكن لا ينبغي للحبل أن ينقطع. إطلاقًا. لأنّه مصنوعٌ من البوليستر، ويحتوي في داخله على فولاذٍ باستطاعة مقاومة عليا، اللعنة، لا يمكن *له* أن ينقطع! ناهيك بأنَّه لا يجوز لحبل آديلي أن ينقطع، لأنَّ حضرتك تعرف جيّدًا ما الذي يعنيه الحبل، بالنسبة إلى آديلي! وما الذي يمثِّله!

- الخيط...

- بالضبط! لقد أمضت نصف طفولتها وهي تصون ذلك الخيط، سحقًا للعنة، لكي لا يتلخبط، لكي لا ينبتر. فإذا به...

- هذا فظيع!

- ...

- ...

- أوه، فليكن واضحًا. هذا لا يعني أنّني سأكون سعيدًا لو أنّها ماتت بحادث سير. ولكن، بهذه الطريقة، حقًّا...

- ...

- ...

- يجدر بأحدهم أن يقدِّم شكوى بحقّ منتج الحبل، بغية ...

- هذا ما سيفعله أصدقاؤها، الذين كانوا معها. يريدون القيام بادّعاءٍ قضائيّ على الشركة التي أنتجت الحبل، وجرجرتها إلى المحاكم. سيوجِّهون تهمة. لكنّي قلت لهم إنّني لا أرغب بسماع أيّ شيء بهذا الشأن، قلت لهم أن يتركوني بسلام وأن يذهبوا إلى الجحيم.

- بالفعل، وهذا ما جعلني أقول «يجدر بأحدهم»، لكنَّ قصدي كان ضمنيًّا بأن ...

- ثمّ سيكون هناك قضاءٌ يحقِّق، ويحتجز، ويصدِّع الأيور. استدعتني نائبة المدّعي العامّ في مدينة لوكّا لكنّي قلت لها بكلّ وضوح إنّني لن أذهب، لا أريد أن أسمع كلمة واحدة، تخصّ ذلك الحادث.

- معك حق، دكتور كارّيرا.

- نعم، أعرف أنّي على حقّ. ولكن...

- ولكن؟

- ولكن، ثمّة سببٌ أرغمني على إزعاج حضرتك، دكتور كارّادوري.

- وما هو؟

- والدة آديلي. زوجتي السابقة. مريضتك السابقة. لست أدري كيف أتصرَّف معها.

- حقًّا. وكيف حالها، السيّدة؟

- آه، ليست على ما يرام.

- أما زالت في ألمانيا؟

- نعم. تعيش في إقامة خاصّة، ما يشبه مصحّة نفسيّة فاخرة. يبدو أنَّ مرضها بات مزمنًا. على الرغم من أنّها في الآونة الأخيرة بدت أنّها...

- ...

- ...

- المعذرة، أظنُّ أنّي غفلتُ عن شيء. في الآونة الأخيرة بدت أنّها؟

- لا، لم تغفل عن شيء. أنا من ترك الجملة مفتوحة.

- آه. أوكي.

- باختصار، لم أخبرها بما جرى حتّى الآن. ولستُ أدري كيف أفعل. كيف يمكنني أن أخبرها بالحادث من دون أن ...

- لا يجدر بحضرتك أنت أن تخبرها، دكتور كارّيرا. إنّما يجدر بالزميل الألمانيّ الذي يتولّى متابعتها أن يخبرها.

- لكنّني لا أعرفه. لم أره إطلاقًا.

- مَن يدفع نفقة الإقامة، في ذلك المكان؟

- الطيّار. والد ابنتهما. وحقًّا، هنالك الفتاة أيضًا، غريتا، أخت آديلي. ينبغي إخبارها هي كذلك. وهذه ستكون مشكلةً أخرى، لأنَّهما في الفترة الأخيرة بدأتا يتآخيان.

- ينبغي التحدّث إلى ذلك الرجل، برأيي. هل تعرَّفت عليه؟

- الطيّار؟

- نعم. هل تعرفه؟

- لا. أقصد أنّي عرفته عندما استرددتُ آديلي، ثلاثة عشر عامًا خلت، لأنّي ذهبتُ إلى بيته لآخذها، لكنّي لم أره منذ ذلك الحين. وبالمناسبة، مارينا انفصلت عنه هو أيضًا.

- إلّا أنّه ما يزال يتكفَّل بنفقة المصحّة.

- أجل.

- فلا بدّ أنّه شخصٌ طيّب. ينبغي التحدّث إليه.

- لكنّي لا رغبة لي بذلك، دكتور كارّادوري. هذه هي المسألة. وهذا ما دفعني لإزعاج حضرتك. لا أريد التحدّث بالأمر مع أيٍّ كان. لا أريد إبلاغ أحد. ثمّ كيف أفعلها؟ بالهاتف؟ أم بالذهاب إلى ميونخ لأقول للرجل الذي سلبني زوجتي إنّ ابنتي قد ماتت؟ لا أطيق ذلك.

- أفهمك تمامًا.

- لم أستلم جثمانها بعد، لأنّ القضاء يتحفَّظ عليه، وأشعر أنّني بالكاد سأقوى على خوض تفاصيل الجنّاز، عندما يسلّمونني الجثمان. فكيف سأبلغ أولئك الذين هناك؟

- لا تفعل ذلك إذًا. لا تفعل شيئًا ما دمتَ لا تشعر أنّك قادرٌ على فعله.

- ومن جهةٍ أخرى...

- من جهةٍ أخرى؟

- ...

- ...

- المعذرة...

- ...

- هنالك أمرٌ آخر، ولكن...

- ...

- ...

- ...

- إنّني متعب... اعذرني. أتناول المهدّئات.

- لا عليك.

- كنتُ أقول إنّ هنالك أمرًا آخر.

- ...

- ...

- أسمعك.

- منذ سنتين، أنجبت آديلي طفلة. لا يُعرَفُ والدها، آديلي لم تخبر أحدًا بهويّته. الطفلة أعجوبة الأعاجيب، دكتور، صدِّقْني، لا أقول ذلك لأنّني جدُّها، بل لأنَّها شخصٌ جديد حقًّا، مختلف: سمراء قليلًا، أو بالأحرى مهجَّنة، تقاسيم وجهها يابانيّة، شعرها مجعَّد وعيناها زرقاوان. كما لو أنَّ الأعراق تتجمَّع فيها، أتفهمني؟

- طبعًا. أفهمك جيّدًا.

- لا أقصد الإدلاء بخطابٍ عنصريّ، آمل أن تفهمني، أقول «أعراق» لتيسير الكلام.

- أفهمك.

- إنّها إفريقيّةٌ وآسيويّةٌ وأوروبيّةٌ في آنٍ واحد. صغيرة، لكنّها متقدّمة جدًّا: تتكلّم، تستوعب، ترسم بشكلٍ مدهش، ولمّا تتجاوزِ العامين بعد. لقد نشأت مع أمّها ومعي، لأنّنا كنّا نعيش معًا. أنا جدُّها، لكنّي بمنزلة أبيها أيضًا.

- بالتأكيد.

- وبطبيعة الحال إنّني صامدٌ هنا من أجلها، دكتور كارّادوري. لو لم تكن موجودة الآن لألقيتُ بنفسي في النهر.

- حسنًا، لحسن الحظّ أنّها موجودة إذًا.

- ولكن، بالمحصّلة، مارينا عرفت الطفلة. لطالما صحبتها آديلي إلى جدّتها عندما كانت تذهب لزيارتها، في الصيف، خلال الأعوام الأخيرة.

في البداية، حين قطعتُ حديثي، هل تذكر حين لم أتمم الجملة؟

- أجل.

- كنت أريد أن أقول إنّ مارينا في الفترة الأخيرة كما لو أنّها تستمدّ دعمًا عظيمًا من لقاء حفيدتها. كانت تتحسّن. هذا ما كانت تقوله لي ابنتي على الأقلّ. حتّى إنّها قرّرت أن تكرّر زياراتها لها مع الطفلة، بدءًا بأعياد الميلاد هذه، كان ينبغي أن نقضي العطلة معها في ألمانيا، نظرًا لأنّها طلبت مني المجيء مع ابنتنا والطفلة، وأنا وافقتُ. لذا، حتّى لو لم أخبرها بشيء، لأنّي لا أرغب، لأنّي لا أقوى، فمن المؤكّد أنّها ستتّصل بي، وعندئذ عليَّ إبلاغها بأنَّ آديلي ماتت وأنّني لم أخبرها بذلك...

- أفهمك، دكتور كارّيرا. معك حقّ.

- لقد آذتني تلك المرأة، لكنّها عانت وما زالت تعاني كثيرًا، أكثر منّي، ولا بدّ أنّ هذه المأساة ستجعلها...

- ...

- ...باختصار، لا يمكنني ألّا أعبأ بأمرها، وفي الوقت نفسه لا قوّة لديَّ ولا رغبة لتولّي هذا الموضوع. أتفهمني؟

- أجل، أفهمك، وهل تريد حضرتك أن تعرف شيئًا؟ لقد أحسنتَ صنعًا بالاتّصال بي، لأنّني أقدر على مساعدتك. سأتحدّث بنفسي مع الزميل الألمانيّ الذي يعالج زوجتك السابقة، وسأتحدّث بنفسي معها أيضًا، إن أمكن. وسأتحدّث مع والد الطفلة، وسأتحدّث مع الطفلة. كم عمرها؟

- مَن؟ غريتا؟

- أخت ابنتك.

- غريتا، أجل. اثنتا عشرة سنة. ولكن لا يتوجَّب على حضرتك أن ...

- أنا لا أتكلّم الألمانيّة، لكنّهم من الوارد أن يتكلّموا الإنكليزيّة، صحيح؟ هو طيّارٌ مدنيّ، يتقن الإنكليزيّة بالتأكيد. إن كنتَ حضرتك موافقًا سأتكفّل بنفسي التحدّث إليهم جميعًا، ولن تعبأ حضرتك بأيّ شيء.

- ولكن، كيف ستفعل ذلك؟ حضرتك الآن في لامبيدوزا، عليك أن تعمل. كنتُ أفكّر بتعيين محامٍ، مكلَّف، لم أكن أريد أن أطلب منك سوى أن تشير عليّ بـ ...

- اسمعني حضرتك، لقد وصلتُ إلى هنا هذا المساء ولكنّي في الواقع سأتسلَّم مهامي خلال أسبوع. كلّ ما في الأمر أنّه لم يكن لديّ ما أفعله في روما، في حين أنَّ لامبيدوزا فيها الكثير دائمًا، فمراكز الإيواء تكتظّ، ناهيك بالناجين من الغرق الذين ما يزالون هنا. ولكن، إن زوَّدتني حضرتك بالتفاصيل، استطعتُ أن أركبَ الطائرة غدًا، وأن أعودَ إلى باليرمو، ومن ثمَّ أتّجه إلى ميونخ وأتحدّث إلى هؤلاء الأشخاص. لا يوجد مكلَّفٌ أجدر منّي بهذه المهمّة، صدِّقْني.

- لكنَّ هذا كثير. لا أعرف كيف ...

- هذه مهنتي، في نهاية المطاف. أن أغيث الضعفاء الذين في حالةٍ حرجة.

- بالفعل، هنا ثمّة حالةٌ حرجة.

- ولاسيّما الضعفاء.

- أيضًا، هذا صحيح. مارينا في أوضاعها المزرية، وغريتا ما تزال طفلة...

- لا أقصدهم هم.

- مَن إذًا؟

– أقصد حضرتك، دكتور كارّيرا. عليك أن تفكِّر في نفسك الآن. عليك أن تفكِّر في نفسك حصرًا، أسبابك بعدم رغوب الاعتناء بالآخرين وجيهةٌ جدًّا. أتفهمني؟

– نعم...

– أتحدّث إليك بصفتي معالجًا نفسيًّا، ولكنْ بصفتي صديقًا كذلك، إن سمحتَ لي. لا يجدر بك الآن أن تفكِّر إلّا في نفسك.

– وفي الطفلة.

– كلا! لا تخلط الأمور، دكتور كارّيرا. حضرتك الآن في خطر، لأنَّ ما جرى لك مريعٌ وقد يفتك بك. لا يجدر بك أن تفكِّر في الآخرين، الخطر يخصّك أنت. هل تذكر كيف يجب التصرُّف في الطائرة في حالات الطوارئ؟ هل تذكر الإرشادات المتعلّقة باستخدام أقنعة الأوكسجين؟

– يجب أن نثبِّتها علينا أوّلًا، ثمّ على أطفالنا...

– تمامًا. قلتَ في البداية إنّك كنتَ ستلقي بنفسك في النهر لولا وجود الطفلة. وأنا أقول لك إنّه لحسن الحظ أنّ هذه الطفلة موجودة. ما يعني أنّك لا تقدر على إلقاء نفسك في النهر. ومن جهةٍ أخرى لا يمكنك التصرُّف كما يحلو لك، لا يمكنك أن تمضي بحال سبيلك. لا يمكنك، لأنّ الطفلة موجودة. ما اسمها؟

– ميرايجيين.

– عفوًا؟

– ميرايـ – جيين. اسم يابانيّ.

– ميرايـ – جين. جميل.

- ومعناه «الإنسان الجديد»، «رجل المستقبل». «رجل» لأنّ آديلي لم تشأ معرفة جنس الجنين مسبقًا، وكانت واثقة من أنّه ذكر.

- أتفهَّم. لكنَّه يليق حتّى بطفلة.

- آه، نعم. وهي أنثى بكلّ المقاييس. أقصد ميراجيين. ما تزال صغيرة، ولكنهّا أنثى حقيقيّة، اللعنة.

- أتخيّل.

- لديها أساليب...

- ...

- المعذرة، قاطعتك. ماذا كنتَ تقول؟

- كنتُ أقول إنّه يجدر بك أن تفكّر في نفسك، الآن، وأن تستجمع رغبتك للنهوض عن السرير كلّ صباح.

- حسنًا، ميراجيين هنا من أجل هذا.

- كلا! أنت بهذا الشكل لستَ سوى قشّة في مهبّ الريح. عليك أن تعثر على هذه الرغبة في داخلك. بهذه الطريقة فقط ستتمكّن من الاعتناء بحفيدتك حقًّا. الأطفال رائعون: يستوعبون ما يُسكَتُ عنه أكثر ممّا يُقال. إن اعتنيتَ بميراجيين وأنت تعاني فراغًا في قلبك، فاعلَمْ أنّك ستنقل هذا الفراغ إليها. أمّا إذا حاولتَ ملء هذا الفراغ، ولا يهمّ إن أفلحتَ في ذلك أم لا، يكفي أن *تحاول* ملأه، فاعلَمْ أنّك ستنقل إليها هذا المسعى، وهذا المسعى ببساطة هو *الحياة*. صدِّقني. إنّني أعتني كلّ يومٍ بأناسٍ فقدوا كلّ شيء، وغالبًا ما يكونون الناجين الوحيدين من نواتهم العائليّة بأكملها. لديهم مشاكل حقيقيّة من شتّى الأنواع، وأحيانًا

يكونون مصابين بأمراضٍ مرعبة فوق ذلك، ولكن هل تعلم على ماذا نعمل؟

- لا...

- نعمل على الأمنيات، على المتع. لأنّ الأمنيات والمتع تنجو حتّى في أشدّ الأوضاع كارثيّةً. إنّما نحن مَن يكبتها. فعندما يصيبنا الحِداد، نكبت الليبيدو الخاصّ بنا، في حين أنّه هو القادر على إنقاذنا. هل تحبّ اللعب بالكرة؟ العَبْ. هل تحبّ المشي على شطّ البحر، وتناول المايونيز، وطلاء أظفارك، واصطياد السحالي، والغناء؟ افعَلْ. لن يحلّ هذا أيّ مشكلة من مشكلاتك، لكنّه لن يثقلها أيضًا، وفي الأثناء سيتحرّر جسدك من دكتاتوريّة الألم، التي تبتغي الفتك به.

- فماذا يتوجَّب عليَّ أن أفعل إذًا؟

- لا أدري، هذه أشياء معقَّدة، لا يمكن أن تقال عبر الهاتف. ولكن، بشكلٍ أساسيّ، عليك أن تذكِّر نفسك بأنّك ضعيف، في هذه اللحظة، وأنّك في خطر. وعليك أن تحاول أن تنقذ كلّ الأشياء التي تحبُّها من الغرق. أما زلتَ تلعب التنس؟

- أجل.

- ببراعةٍ كما كنتَ شابًّا؟

- ليس كثيرًا. أتدبّر أمري.

- العب التنس إذًا. هذا واحدٌ من بين الأشياء.

- حقًّا! وميراجيين؟ لن أتركها أبدًا، واضح؟ ولا حتى للعب التنس. لن أضع طفلةً أحبّها أبدًا تحت عناية آخرين، راكبي أمواج، متسلّقي جبال،

ببيي سيتر...

- أوافقك في هذا، كلامٌ منطقيٌّ. ولكن لا أحد يمنعك من اصطحابها عندما تذهب للعب.

- أهذا ما عليَّ فعله، لاستعادة الرغبة في الحياة؟ الذهاب للعب التنس مصطحبًا ميرايجيين؟

- لا أقول إنَّ هذا سيعيد إليك الرغبة في الحياة. من الوارد أنَّها لن تعود. لكنّك ستكون حيًّا بكافّة الأحوال. لعلّك ستقوم بشيءٍ يريد الحِدادُ أن يمنعك عنه، لأنّه يؤمِّن لك المتعة.

- كان والدي قارئًا نهمًا للخيال العلميّ. وكان لديه سلسلة روايات أورانيا كلّها تقريبًا، من العدد 1 لغاية العدد 899. كان مولعًا بها كثيرًا، لدرجة أنّه ما كان ينقصه سوى أربعة أعداد. ومنذ أن ماتت إرينه، شقيقتي، عام 1981، إلى أن مات هو، قبل ثمانية أعوام، لم يعد يشتري أو يقرأ أيًّا منها.

- بالضبط. هذا تمامًا ما لا أنصحك بفعله. حضرتك تعلم أنّ القيام بأمرٍ معيّن يؤمِّن لك المتعة: افعله، لا تعاقب نفسك. خذ معك الطفلة واعتنِ بها وأنت تفعل ما يمتِّعك. لا وجود لطريقٍ أخرى. لا شكّ أنَّه سيكون من المستحسن أن يتابع حالتك أحدٌ في هذا المشوار، ولكنْ إن لم تخنِّي الذاكرة حضرتك لا تستلطفنا نحن المعالجين النفسيّين.

- لا أستلطف المحلِّلين النفسيّين. لطالما كنتُ محاطًا بالمحلِّلين النفسيّين، ولطالما ظلَّ مَن حولي يتألّمون كالحيوانات، سوى أنّ الذنب في النهاية ذنبي. لديّ مشكلة مع المحلّلين النفسيّين؛ ولا مشكلة لديّ حيال المعالجين النفسيّين.

- ليس لديك مشكلة حتّى مع المحلّلين النفسيّين، اسمع منّي. وبكلّ

الأحوال لا أنصحك أن تجبر مزاجك في هذه اللحظات العصيبة. إن كنتَ لا تريد أن تتّجه إلى أحد زملائي، فتصرَّفْ بمفردك. المهمّ هو أن تفكِّر في نفسك فحسب، رجاءً. وأن تثبِّت القناع. وأن تستنشق. وأن تحافظ على حياتك.

- شكرًا على النصيحة. سأحاول اتّباعها.

- بل إنّي أصرُّ عليك باتّباعها. وابعث إليّ رسالة نصيّة قصيرة بأسماء وعناوين الأشخاص الذين يجب أن أتواصل معهم في ألمانيا، بحيث أتمكّن من السفر صباح الغد.

- هذا يؤثِّر فيَّ حقًّا، دكتور كارّادوري. حقًّا.

- سبق وقلت لك: هذه مهنتي.

- تمامًا، حتّى إنّي أنوي دفع أتعابك هذه.

- إيّاك حتّى أن تفكِّر في هذا، دكتور كارّيرا. قلتُ إنّه عملي بمعنى أنّه أمرٌ أستطيع التعامل معه.

- حسنًا، ولكن نفقات السفر على الأقلّ، اسمح لي بأن ...

- لا عليك. منذ سنواتٍ وأنا لا أدفع ثمن تذكرة طائرة. لن أفلس إذا حجزتُ من جيبي الآن.

- لا أعرف ما أقول يا دكتور. إنّني متأثِّرٌ حقًّا.

- لا تقل شيئًا. فأنا أعرف ما أقول للطيّار، وللفتاة، وحتّى لزميلي في المصحّة؛ ولكنْ بما يخصّ ما عليَّ قوله لزوجتك السابقة فأنا بحاجةٍ لمعرفة كيف تنوي حضرتك أن تتصرّف.

- ماذا تقصد؟

- إن كانت تودّ المجيء إلى إيطاليا لحضور الجنّاز، هل ستوافق أنت على ملاقاتها ثانيةً، واستضافتها في بيتك؟

- لا أعتقد أنّها قادرة على السفر، دكتور كارّادوري. لا أعتقد أنّها مكتفية ذاتيًّا.

- فهمتُ ولكن مَن يدري. فخبرتي تؤكّد لي أنّ بعض الصدمات قد تُحدِث في بعض الحالات إرجاءً موقّتًا للمتلازمة المعيقة، ولا يمكننا اعتبار الأمر شفاءً لكنَّه يزيل، أو يكاد، العوائق الفيزيائيّة التي تصنعها المتلازمة.

- ليس لديّ أيّ اعتراض على استضافتها.

- وبما يخصّ الطفلة، ميراي - جيين. هل تعتقد أنّك قادر على اصطحابها، من حين لآخر، إلى ميونخ، مثلما كانت ابنتك تفعل؟ أدرك أنّه ليس وقت الحديث في هذا، لكنّ هذه المشكلة ستنطرح يومًا ما.

- أعتقد أنّي قادر على اصطحابها، نعم.

- عندما تتحسّن نفسيّتك بطبيعة الحال. والآن أصغِ إليَّ جيّدًا، ركِّزْ على القناع.

- حسنًا، دكتور. شكرًا بلا حدود.

- ابعث إليّ كلّ ما أحتاج إليه عبر الـ SMS من فضلك. عناوين، أسماء، أرقام هواتف. لا بل من الأفضل أن تبعثها عبر الـ Whatsapp، فشبكة الهاتف هنا أسوأ من شبكة الإنترنت. كلَّما عجَّلَت في هذا، سافرتُ بساعةٍ أبكر.

- سأرسلها فورًا، دكتور كارّادوري.

- جيّد. وأنا سأنطلق في الغد.

- شكرًا حقًّا.

- لقد أحسنتَ صنعًا بالاتّصال بي. أتعلم؟

- ألاحظ ذلك.

- وهذا يعني أنّك تريد تثبيت القناع.

- لقد وضعتُ قناعًا ذات مرّة، دكتور. عندما توفّيت شقيقتي.

- صحيح. والآن ستضعه مرّةً ثانية.

- لا وجود لحلولٍ أخرى...

- بالفعل. وأنا... أودُّك، آمل أنّك فهمتَ قصدي.

- وأنا أودُّك أيضًا يا دكتور كارّادوري.

- وإن أسعفني الوقت في العودة من ميونخ، قد أتوقّف في فلورنسا، أترغب في هذا؟ فهكذا أبلغك بالتفاصيل شخصيًّا.

- أرغب، بالتأكيد. ولكن أرجوك ألّا ترغم نفسك على...

- قلت «إن أسعفني الوقت». وأكرّر: سأعود إلى العمل خلال أسبوع.

- موافق.

- وهكذا تعرِّفني على الطفلة. ولعلّنا نلعب مباراة سريعة، هل ترغب؟

- تنس؟

- أنا لا ألعب منذ زمن ولكن، نتسلّى. ثمَّ إنّك عندما كنتُ فتىً وأتدرَّب، غلبتني بكلّ الأحوال 6-0، 6-1.

- إيبيه، حسنًا. منذ أربعين عامًا.

- سنصطحب معنا الطفلة ونلعب. أوكي؟

- أوكي.

- أستودعك الآن إذًا. أنتظر المعلومات اللازمة.

- سأرسلها فورًا.

- إلى اللقاء دكتور كارّيرا.

- إلى اللقاء دكتور كارّادوري. وشكرًا على كلّ شيء.

- بالتوفيق. أراك قريبًا.

- أراك قريبًا.

برابانتي (2015)

بولغيري، 19 أغسطس 2015

لويزا العزيزة،

منذ أعوامٍ يتملّكني انطباعٌ بأنّني حين أتحدَّث معكِ لا أتحدَّث معكِ فقط. أقصد بـ «ـكِ» الفتاةَ التي أحبُّها مذ كان عمري عشرين عامًا، والتي أصبحت امرأةً، وأمًّا والآن جدّةً أيضًا. يبدو لي حقًّا منذ مدّة أنّني، حين أتحدَّث معكِ، إضافةً إلى التحدُّث مع تلك الفتاة، أو مع جزءٍ منها ما يزال حيًّا فيكِ، أتحدَّث أيضًا مع شخصٍ غريب. بل لكي أكون صريحًا حتّى العمق: يبدو لي أنّني أتحدَّث مع محلِّلتكِ النفسيّة، ما اسمها؟ مدام برِيكّولي، ستريبّولي؟ إنّني ألاحظ هذا يا لويزا. ألاحظ هذا لأنّي لبيبٌ بالتقاط صوت المحلّلين النفسيّين الذي يتحدّثون إليّ من خلال الأشخاص الذين أحبُّهم. تعاملتُ مع هذا الصوت طوال حياتي. ألاحظ هذا.

صحيح، لقد صدمني ما قلتهِ لي في الأمس عن جاكومو، بعد كلّ هذه السنوات. ولكنَّ الأسوأ، يا لويزتي، الأسوأ بكثير يتمثّل في كلماتكِ التي وجّهتها إليّ فيما بعد. لأنّ في عجزكِ عن الحديث عن جاكومو معي، أستطيع إن بذلتُ جهدًا أن أتعرَّف دائمًا على الفتاة التي أحبّ، وأن أقول لنفسي «لا بأس، هذا ما حدث» وأن أتقبَّله. عمري ستّة وخمسون عامًا، وقد اضطررتُ إلى تقبُّل الأسوأ. إلّا أنّكِ، إزاء مفاجأتي، عندما قرّرتِ في النهاية أن تفرِّغي

ما في صدركِ (نعم، إزاء غضبي أيضًا، غضبي المبرَّر بما فيه الكفاية، اسمحي لي بهذا)، بدلًا من أن تعتذري منّي بكلّ بساطة، جنحتِ إلى المناورة لا غيرها بغية أن تدافعي عن نفسكِ منّي، لأنّني أصبحتُ بغتةً الخطرَ الذي ينبغي الإفلات منه، ومنتهك الحدود الذي ينبغي دحره، والذي يستعرض أخطاءه عليكِ؛ ما كان ليصدر عنك شيءٌ كهذا. إنّما قد صدر عنها هي، ما اسمها؟ مدام بروبولي؟ ستروفيلّي؟ ما اسمها بحقّ الجحيم؟ ألم يكن خطابها هي ذاك الذي صدَّعتِني به عن البطولة؟ عن رؤيتي البطوليّة للحياة، رؤيتي التي تخدع وتدهس المقرَّبين منّي؟

هل أنا خاطئ، لويزا؟

في الحقيقة أنا هكذا، ولطالما كنتُ هكذا، منذ شبابي: تغيَّرتُ قليلًا ولا أحد يعرف الأمر أفضل منّي. هل لديَّ رؤيةٌ بطوليّة للحياة؟ هل عليَّ أن أشعر بأنّني بطلٌ دائمًا؟ وارد، لكنّ الأمر لطالما كان هكذا، لا جديد إذًا. لا جديد فيَّ أبدًا، إن كان هذا ما تستنكرينه في طبعي. أنت مملّ، يا ماركو. كان بإمكانكِ أن تقوليها لي. مع أنّ الأشياء تتغيَّر بشكلٍ عنيفٍ بمفردها حتّى إنّني لم أمتلك يومًا ميزة الحياة المملّة حقًّا. فالآن على سبيل المثال يجب عليَّ أن أعيد التأمُّل في جزء طويل من حياتي، عليَّ أن أتحسّسه من أوّله ثانيةً على ضوء ما أخفيتِهِ عنّي، طيلة هذه الأعوام، لغاية يوم أمس.

لأنّني اتّهمتُ جاكومو. اتّهمتُه علانيةً، بخصوص تلك الليلة اللعينة. كانت إرينه في تلك الفترة في أسوأ حال، وكان ذلك جليًّا. وطوال ذلك الصيف لم تغفل عنها عيني ما عدا في أمسيةٍ واحدة، تلك الأمسية، لكي أخرج معكِ: لكنّه كان باقيًا، معها، فشعرتُ بالأمان. خرجتُ من المنزل مطمئنًّا، هل تفهمين، لأنّه كان باقيًا معها. لهذا السبب اتّهمتُه. ما زال وجهه المحتقن حين كنتُ أتّهمه ماثلًا أمام عينيّ حتّى الآن. لقد وصفتُه بالجبان.

قلت له إنّ إرينه ماتت بسببه. فعلتُ هذا، وأعلم هول ما فعلتُ، وندمتُ على فعلتي بقيّة حياتي. لكنّي ما كنتُ لأفعلها لو أنّي كنتُ أعرف أنّه كان مغرمًا بكِ هو كذلك.

الآن، أفهم أنّكِ لم تخبريني بشيء حينذاك. كان عمركِ خمسة عشر، وكلّ تلك الأمور كانت أكبر منكِ. وأفهم أنّكِ تحفّظتِ عن إخباري بذلك إلى أن تقابلنا: فلقد انتقلتِ إلى باريس، ولم نعد نلتقي، فكيف كان لكِ أن تخبريني؟ لكنّي لا أفهم يا لويزا لماذا تكتّمتِ عن الأمر حتّى عندما استأنفنا لقاءاتنا. لماذا لم تخبريني بشيء خلال تلك السنوات؟ هل تريدين أن أحضّر لكِ قائمة الفرص التي كان بوسعكِ انتهازها لتخبريني؟ كلّ تلك اللحظات ما تزال منقوشةً في ذاكرتي، وما عدتِ آنذاك فتاةً، إنّما امرأة، كان لديكِ ابنان، وكنتِ توشكين على الطلاق، إذًا كان بإمكانكِ أن تخبريني، فلماذا لم تفعليها؟ لماذا واصلتِ في إيهامي أنّ جاكومو كان يهرب منّي، في حين أنّه منكِ أنتِ كان يهرب؟

ومن ثَمّ، عندما ساء الزمان، طلاقات، انتقالات، نتواصل تارةً، ونفترق تارةً، أفهم أنّكِ لم تخبريني، طيلة تلك الأعوام. ولكن، يا إلهي يا مولاي، عندما رجعنا نتراسل، وبينما كان أبواي يتوفّيان، وعاد جاكومو إلى المشهد أيضًا: لماذا لم تخبريني وقتها، لماذا لم تكتبي لي بالخصوص؟ أو عندما توفّيا، وجئتِ إلى جنّاز أمّي، وكان جاكومو هناك، وقد أوصلتُكما إلى المطار معًا: لماذا لم تخبريني؟ أو في ذلك الصيف؟ لماذا لم تخبريني في تلك الأيّام الثلاثة التي أمضيناها في لندن؟ كان جاكومو قد اختفى من جديد، وقد جرحني من جديد باختفائه. لماذا لم تخبريني، في تلك الغرفة الخرافيّة في لانغهام أوتيل، بأنّه لم يحضر جنّاز أبي خشية أن يلقاكِ؟ وفي شهر أغسطس، في بولغيري، عندما كنتِ عائدةً من كاستلوريزو وأمضينا بقيّة الصيف معًا؟ لماذا لم تخبريني عندما

ذهبنا، أنتِ وأنا، لذرّ رماد أبي وأمّي في البحر، في المولينيلّي، وكان غياب جاكومو حينها جسيمًا؟ لماذا لم تخبريني هناك، على زورق الدكتور سلبرمان، بينما كنّا نذرّ الرماد عند الغروب، أنّ جاكومو أيضًا أَحَبَّكِ دومًا؟ وأنّ ذلك هو السبب الحقيقيّ لهروبه؟ وأنّه بينما كان لا يجيب على إيميلاتي التي ألححتُ في إرسالها إليه، عامًا تلو عام، مؤملًا في أن يغفر لي، كان يراسلكِ أنتِ؟ ولماذا لم تخبريني في أيّ مناسبةٍ كانت، بعدئذ، في بولغيري، في أغسطس، طيلة هذه الأعوام؟ كان الأمر بسيطًا بحيث تأخذينني على انفراد، ذات صباح، مثلما فعلتِ البارحة، وتخبرينني بكلّ الأشياء التي لم تخبريني بها يومًا.

ولكن، وعلى وجه الخصوص، نظرًا إلى أنّي تعلّمتُ أن أتعايش مع تلك الغلطة، لماذا في صباح البارحة أخذتِني على انفراد وأخبرتِني؟ ما السبب المعتوه الذي يجبرني على إعادة التفكير الآن بقطيعتي مع شقيقي؟ بعد كلّ ما وقع لي؟ ما همّكِ إن كنتُ غاضبًا أم لا، فأنا البارحة لم أسألكِ إلّا سؤالًا واحدًا: لماذا-تخبرينني-بالأمر-الآن؟!

ولكن ما باليد حيلة، فها هي تنبثق دفاعًا عنكِ المدام ما اسمها، براتشولي، كروكّانتي. ألستُ محقًّا؟ أليست تقول: كيف يسوِّل لنفسه هذا الرجل أن يشكِّك بكِ، وأن يعترض؟ هو الذي جلب كلّ التعقيدات، دائمًا، بعائلته التعيسة، وحياته التعيسة: كيف يسوِّل لنفسه الإتيان باتّهاماتٍ مضادّة؟ برؤيته البطوليّة للحياة، بادّعائه بأنّ على الناس ألّا يكونوا معصومين، أبطالًا للدقّة؟

هل أنا خاطئ يا لويزا؟

لا تدعيه يتّهمكِ يا سيّدة، لا تلقي اللائمة على نفسكِ، فأنتِ الضحيّة، كان عمركِ خمسة عشر عامًا، واتّسمت حياتكِ بخراب تلك العائلة: ألم تقل لكِ ذلك؟

برابانتي. هذا هو اسمها. مدام برابانتي.

لقد أجريتُ الحساب، لويزا، وتبيَّنتُ أنّنا تفارقنا أكثر بمرّةٍ ممّا رجعنا إلى بعضنا بعضًا. أقسم. وعليه، من الناحية العمليّة لا داعي حتّى لأقولها لكِ، فبعد ساعة سأوصلكِ إلى المطار، وسنتودَّع، وستسافرين، لكنّي سأقولها لكِ الآن عمومًا، ومن الأفضل هذه المرّة ألّا نعود إلى ما سبق:

وداعًا.

ماركو

تتناقل سيرتَكَ الأفواهُ (2013)

بعد وفاة إرينه، استغرقت أسرة كارّيرا أعوامًا طويلة حتّى استطاع أحدٌ منهم أن يتنفَّس بشكلّ منتظم - وأحدٌ آخر لم يعد بإمكانه التنفُّس إطلاقًا. كانوا أسرةً واحدة، فكّكها الألم. أمّا في وفاة آديلي، بعد ثلاثين عامًا، فقد كانت النواة الأسريّة مفكَّكةً أساسًا: رماد بروبو وليتيتزيا منثورٌ في البحر التيرانيّ الأوسط؛ ماركو وجاكومو عاجزان عن التحادث؛ لا شيء قد يتحطَّم أكثر ممّا هو محطَّمٌ أصلًا: أي على الرغم من فظاعة رحيل آديلي، بدا أنّه أخفّ وطأة من رحيل إرينه. بدا أنّه أخفّ وطأة، على الخصوص، لأنّ مَن عانى تداعياته كان شخصًا واحدًا، ماركو، وقد استطاع ماركو أن يصمد إزاء خسارته ابنته مثلما لم تستطع العائلة بأسرها الصمود إزاء خسارتها إرينه. تدخَّلَ الدكتور كارّادوري، المحلّل النفسيّ السابق لزوجته، لمساندته بخطوتين إنقاذيّتين، حتّى إنّ ماركو اكتفى بذلك لكي يبقى واقفًا على قدميه ويواصل عيش الحياة التي ما كان ليرغب في عيشها.

الخطوة الأولى، أخذ كارّادوري على عاتقه مهمّة إبلاغ نبأ الكارثة لأمّ آديلي، مريضته السابقة، فسافر إلى المصحّة حيث هي في أعلى ولاية بافاريا؛ وعلى الرغم من إتيانه بنبأ رهيب، استطاع أن يستعيد الثقة التي كانت تكنُّها له قبل خمسة عشر عامًا، واستطاع أن يؤثّر في مشاعرها (يتمظهر مرضها في إبقائها بحالة لامبالاة ظاهريّة حيال المحفِّزات أيًّا كانت)، وبالأخصّ استطاع ردّ الاعتبار لقاعدةٍ ذهبيّة في إدارة ضغط ما بعد الصدمة، والتي تنصّ على تغليب التراحم المتبادل بين الناجين على أيّ حالةٍ نفسيّةٍ أخرى.

لذا، وبفضل تدخُّله، وجدت هي وماركو علاقةً لم تعد موجودة عقب انفصالهما. كان كارّادوري على ثقة بأنَّه يجازف في الانخراط في حياة البشر المقبلين على القطيعة، إلّا أنّه لم يتفاجأ بأنَّ خطَّته – لعلّنا نستخدم تعبيرًا أقلّ مهنيّة – نجحت في النهاية: طالما أنَّها تنجح لدى الشعوب التي تتعرَّض لكوارث جمعيّة كبرى، تنجح كذلك في الكوارث الفرديّة الصغرى. وقد رفع الأمر معنويّاته، إذ أثبت له متانة ركائز النظريّات التي كرَّس عمره لها.

هذا ما حدث: مثلما أنّ المأساة تفسد العقد الذي يبقي الأسرة متوحّدة، وتؤدّي بها إلى خرابٍ لا يُصلَح، كذلك تقدر المأساة نفسها على إبراز تأثيرٍ معاكس إذا كانت العائلة مدمَّرة أساسًا، فتقارِبُ بين مَن نجا من أفرادها حتّى لو كانوا منذ أعوامٍ يتصارعون ويجرح بعضهم بعضًا ويتخاصمون ويتجاهل أحدهم الآخر بكلّ ما أوتي من قوّة. هي نظريّة الصخرة المرميّة في الماء: إذا كان الماء راكدًا أحدثت فيه الصخرة اضطرابًا، أمّا إذا كان هائجًا، هدأ.

باسم حفيدتهما الصغيرة إذًا، عاد ماركو ومارينا يتلاقيان. صار ماركو يذهب بين الحين والآخر إلى ألمانيا مصطحبًا الطفلة، يأخذها إلى مصحّة مارينا ويبقى في الغرفة معهما ومع غريتا، ابنة مارينا الأخرى - أو في الحديقة، وفي بعض الأحيان يصحبهنّ إلى الخارج أيضًا، للتجوّل في منتزهٍ بالجوار. لم تعد المشاعر الكريهة تراوده بخصوص زوجته السابقة - لا شيء سوى الشفقة، بالضبط، على تلك الحياة الضيّقة التي اضطرّت إلى عيشها، ولوضعها الجديد الذي يتقاسمه معها: *ثاكل وثكلى*. كان يؤدّي، في تلك الأحيان، واجبًا يشعر أنّه ضروريّ - الواجب الذي كانت تؤدّيه ابنته بصلابةٍ ورقّة ما دامت على قيد الحياة، وقد انتقل إليه الآن، بما يشبه التركة المرتدّة.

والخطوة الثانية، أهدى كارّادوري لماركو كارّيرا أرجوحة نوم. أتاه بها إلى

فلورنسا، إبّان عودته من الزيارة الأولى لمصحّة مارينا: مضجعٌ قماشيٌّ قابل للطيّ بتصنيع يابانيّ يسهل نقله في كيس وتركيبه في غضون دقيقتين في أيّ مكان. مضجعٌ صغير. مضجعٌ للأطفال. أثناء المكالمة، بعد أن أخبره ماركو بوفاة آديلي، ألحَّ عليه بأن يبذل قصارى الجهود للقيام بالأشياء التي تمتّعه، وأن يتمرّد على فكرة أنَّ الحِداد لا بدَّ أن يشلّ حياته، وقد ألمح له ماركو خواءً وجدانيًّا لا يتبدّى باعتراضٍ أيديولوجيّ («لا شيء بوسعه أن يمتّعني أبدًا») لكنَّه عمليّ: كان يريد منذئذ فصاعدًا أن يبقى مع الطفلة دائمًا، لم يشأ أن يتركها في عهدة أيّ أحد سواه، ومن المستحيل أن يتفرَّغ للتنس (في تلك اللحظة، المتعة الوحيدة التي خطرت في باله، عفويًّا، هي التنس) بوجود طفلةٍ لها من العمر سنتان وتحتاج إلى رعاية فائقة. فقال له كارّادوري أن يصحبها معه، دائمًا، وحيثما كانت وجهته، وهذه هي النصيحة الصائبة، بالتأكيد، ولكنَّ الإسداء بها هكذا شيء، عبر الهاتف والسلام، والحضور إلى بيته آخذًا معه الحلَّ للمشكلة شيءٌ آخر تمامًا.

صادف المضجع في محلٍّ لبيع المستلزمات الرياضيّة داخل مطار ميونخ، بينما كان يتسكَّع ريثما تحين رحلته، وأثيرت في نفسه رغبةٌ جامحةٌ لشرائه وإهدائه لماركو. كان على قائمة الخصومات الأسبوعيّة، سعره 62.99 يورو بدلًا من 104. هانموكّو، اسمه - وهذه التهجئة بنظام الهيبورن لكلمة ハンモック التي تعني «مضجع» باللغة اليابانيّة. كان هناك، متوافرًا بألوانٍ متعدّدة وبمقاييس مختلفة، للكبار والصغار: قاعدته من فولاذ خفيف، سهل الطيّ ويشغل حيّزًا صغيرًا حقًّا - كحقيبة تنس تقريبًا. كان كارّادوري يعرف جيّدًا سلوك النفس البشريّة الخاضعة لدكتاتوريّة الحِداد، ويعرف أنَّه لحثّ النفس على التمرّد ينبغي المرور عبر تمرُّدات جانبيّة أخرى، قد تكون بلا معنى، لكنّها فعّالة، لذا أحسَّ بأهميّة إهداء المضجع لماركو كارّيرا عسى أن

يكون سلاحه للتمرُّد - إن لم يكن على الحِداد مباشرة، فعلى طقوسه التأنيبيّة في أقلّ تقدير. لا يجوز له الإحجام عمّا يرغب فعله، أيًا كان، حتّى في المساء، حتّى في الليل، بحُجّة البقاء في البيت بجانب الطفلة. ونظرًا لكونه لا ينوي تركها للبيبي سيتر فلا بدّ أن يأخذها معه، وستستطيع النوم هناك حيث هو، في المضجع هذا. كان للأمر أن يبدو تافهًا بالتفكير فيه لدقيقة واحدة، ذلك أنّ عربة الأطفال تؤدّي هذه الوظيفة أصلًا - هذا أوّلًا - ولاسيّما أنّ المشكلة - وهذا ثانيًا - لم تكن تلك بطبيعة الحال، إنّما اليأس الذي يزأر في صدر ماركو، وعجزه حتّى عن تعداد متعه في الحياة - وكان كلاهما يعلم ذلك جيّدًا. ولكن، ولأنَّ كليهما يعلم ذلك جيّدًا، وبفضل صحّة التوهُّم بأنّه يواجه مشكلة عمليّة، زلّة لسان من ماركو، بمحض الصدفة، من أجل النأي بالنفس، أو وضع مسافة عن الواقع، بسبب العار أو أيّ سببٍ آخر، استطاع ذلك المضجع تكوين فقاعةٍ اتَّبع ماركو في داخلها نصيحة كارّادوري: لأنَّه مضجعٌ تمامًا، وللمضاجع بحدّ ذاتها ما لها من تحفيز، ناهيك بأنَّه مزوّد بدعائم تسهِّل نقله، وما كان لماركو أن يعلم بوجود مضاجع مزوّدة بدعائم تسهِّل نقلها، ثمّ إنّه من صناعة يابانيّة، وميرايجيين هو اسمٌ يابانيّ، ولا بدّ أن يكون لهذا المضجع ما يثبت يابانيّته من حيث لغز إنشائه. باختصار، المضجع المتأرجح خدعة (كالعادة: في الحدائق، تحت الأكواخ، وحتّى في غرف النوم، المضاجع المتأرجحة هي هكذا، خدع)، وكان ماركو في أمسِّ الحاجة إلى خدعة لكي يتصوَّر تمرُّده. وبفضل جسارة ذلك الغرض، استطاع ماركو أن يكون جسورًا في مواجهة حِداده.

التنس، حسنًا: الدوريّات ما فوق الخمسين عامًا في أرجاء توسكانا، ثمّ ما فوق الخامسة والخمسين، والمباريات المزدوجة ما فوق المئة، ضدّ منافسيه السابقين أيّامَ شبابه، بلا شَعر، بلا حَكَم، وفي الليل. كان ماركو يركِّب

المضجع في الملعب، تحت الخيمة المطّاطيّة في الشتاء، ويضع فيه الطفلة التي غفت بالسيّارة منذ حين، ويلفُّها بالغطاء جيّدًا في الشتاء، هي تنام وهو يلعب (وكان يفوز دائمًا أو يكاد)، ثمّ يفكِّك كلّ شيء ويمضي عائدًا إلى البيت، متبجِّحًا مثلما جاء، وغالبًا ما تكون الكأس في يده. *كانت الأفواه تتناقل سيرته*، بسبب ذلك - مثلما يقال في فلورنسا عندما تتحدَّث الناس عليك كثيرًا. أجل، سيرته تتناقلها الأفواه، وهذا ما كان يعجبه - لكن ليست هذه هي المتعة التي صانته.

عاد للمشاركة في المؤتمرات. وقد كان منذ أعوام قد كفَّ عن تحديث معلوماته في علوم الطبّ العينيّ، وقد أصبح منذ أعوام طبيب عيون عاديًّا، لا يتملَّكه شغف البحث. لم يعد يأمل بتحسين مستواه. ولكن كان لديه أصدقاء متخصِّصون بالأعصاب، والعلاج النفسيّ، مولعون بالفنّ أو الموسيقى، وينظِّمون ندوات لتجميع ولعهم في باقةٍ واحدة، وما زال ماركو قادرًا في هذه الندوات أن يقول ما عنده، معتمدًا على كفاءاته: في العيون، والتصوير، والحيوانات. كان يبلغ الرضا بالتركيز مرّتين أو ثلاث في السنة على ألغاز النظر والمنظور إليه، وتطوير منطقٍ يجمع فيه - فلنقل - الحول والانكسار الكلّيّ وبقرة «Atom Earth Mother»، واعتلاء تلك المنابر لتقديمه إلى الحضور، في فلورنسا، براتو، كيانتشانو تيرمه. كان يأتي بالطفلة، خلال الندوات النهاريّة أيضًا، ويجاهر باصطحابها على الملأ بوقاحة إذ يضع المضجع في الصفّ الأوّل حتى لو لم تكن نائمة وتفضِّل الجلوس بجانبه، يصغي إلى مداخلات الآخرين، ويلقي مداخلته، ثمّ يفكّ كلّ شيء ويعود إلى البيت، متجاوزًا استراحات البوفيه والعشاءات الرسميّة. وحتّى في هذه الحالة، كانت العفويّة التي يتقبَّل بها - بفضل ذلك المضجع - أن تتناقل سيرته الأفواه على ألّا يفارق ميرايجيين، بمثابة انتهاكٍ يعتمده الإيروس -

على حدّ تعبير كارّادوري - للهروب من سلطة الحِداد. ولكن حتى هذه لم تكن هي المتعة التي أنقذته.

عاد إلى لعب القمار: هذا هو تمرُّده الحقيقيّ، هذا ما أنقذه. إذ ما باليد حيلة، لاسيّما أنَّ ماركو كارّيرا لم يجرِّب في حياته كلّها متعةً تُقارَنُ بالتي تذوَّقها بلعب القمار - لكنّه كانَ قد قدَّمَ هذه المتعة قربانًا لإله العائلة منذ زمن. حسنًا، كفَّ عن تقديمها قربانًا. لم يخمد شغف القمار في نفسه يومًا، طوال تلك الأعوام، وكان ينبغي له دومًا بذل جهد غير عاديّ لإبقائه خارج حياته. لا بل لم يستطع ماركو نهائيًّا أن يبقي ذلك الشغف خارج حياته فعلًا، وبدا له دومًا أنَّه هناك *بانتظاره*، مدفونًا تحت أكداس الأشياء اللائقة التي فضَّلها في الأثناء، لكنّه مستعدٌّ للظهور فجأة ليبيِّن للعالم طبيعته الحقيقيّة، مثل عواء الذئاب في نهاية تلك الأغنية المؤلمة لجون ميتشل التي لم تكن تعجب أحدًا، ما عداه هو، لذاك السبب تحديدًا ومنذ ظهورها الأوّل (صدرت في أواخر السبعينات، عندما كانوا في العالم فتيةً جميعًا). وحتّى في روما، خلال السنوات التي قضاها مع مارينا، وبالأخصّ حينما عاد إلى فلورنسا، حيث تعرَّفَ بفضل التنس على سليل النبلاء من سيينا، لويجي دامي تامبوريني الذي - وهذا نادر - لم يكن مفلسًا كبصلة، إنّما قيّمٌ على إرث عائليّ باذخ: منتج نبيذ من مونتالتشينو، ومدير عقارات بين فلورنسا وسيينا، مستثمر لنبع مياه معدنيّة في جبل أمياتا، مراقب لمصرف أعمال العائلة، ناهيك بالمنظّمة المرتبطة به، المكرّسة لجمع أيقونات القرن العشرين. وهي المنظّمة، بالمناسبة، التي مقرّها مثل المصرف في فلورنسا لا سيينا، وقد تبرَّع لها ماركو بأرشيف والدته الفوتوغرافيّ كاملًا، ليحلّ بذلك مشكلة كبيرة. اقتاده ماركو للفوز بالمباريات المزدوجة خلال دوريٍّ خيريّ، فدعاه الأخير إلى العشاء في قصره في فيكو ألتو، وتوالت الدعوات وانتظمت إثر توطيد الثنائيّ في

التنس حتّى في دوريات ما فوق المئة. كانت آديلي ما تزال حيّةً، وكانت قلقة نوعًا ما بخصوص تلك الدعوات، لأنَّ سيرة دامي تامبوريني أيضًا تتناقلها الأفواه، بسبب عادته الملحوظة بتحويل إقامته مرّتين في الشهر إلى كازينو غير مرخَّص؛ لكنّ ماركو كان يطمئنها حيال ذلك، ويخبرها بأنّ الدعوات التي يتلقّاها هو - فلنسمِّها نخب أوّل - كانت لحضور عشاءات فاخرة تفوح منها رائحة الماسونيّة، لا لعب القمار.

لكنّه اكتفى باستذكار ماضيه ورغبته في إنعاشه لكي يجد نفسه فجأة في الجانب الغامض من حياة دامي تامبوريني. إلّا أنّه، ومنذ الدعوة الأولى - فلنسمِّها نخب ثاني - أدرك ماركو كارّيرا وجود شيء غير منطقيّ، لأنّ تلك الحياة ليست غامضة أبدًا، إنّما مجرّد تنويع غازيّ لتلك الحياة السلسة ذات النخب الأوّل. الفرق الوحيد هو وجود الروليت والطاولة الخضراء، حيث يقامر المدعوون، أجل ولكنّهم يلعبون شاردين، وهم يدردشون ويتمازحون. سهراتٌ للهواة: ليس فيها شيطان، ليس فيها جدّيّة؛ كثيرٌ من المشاركين هم أنفسهم ممّن يحضرون عشاءات النخب الأوّل، لا يوجد ملاعين، علاوة على الرأفة التي ينظرون بها إلى ماركو إذ يصل والطفلة الغافية، حاملًا المضجع المتأرجح الذي يركّبه في مكتب. أناسٌ مسترخون، لا وجود حتّى لرائحة الخراب، إلّا أنَّ هذا ما اشتاق إليه من الأيّام التي كان فيها يراود طاولات القمار، رائحة الخراب: فبدونها لا شعور بالمتعة – وبالأخصّ، وهذا ما كان يطنُّ في رأسه، بدونها لا تتناقل سيرته الأفواه. لذا، وبناء على حُجّةٍ شبيهةٍ بتلك التي يقدِّمها العلماء لإثبات وجود الأشياء الخفيّة بإثبات استحالة انعدام وجودها، أيقن ماركو كارّيرا بحتميّة وجود مدعوّين نخب ثالث.

وبالفعل، لم يكن للمدعوّين للعب الزائف هدفٌ سوى للتغطية على المدعوّين للعب الحقيقيّ، الذي يتورّط فيه على سبيل المثال مدراء فروع

شرطة، وضبّاط من الحرس المدنيّ وقضاة مولعين بالحياة الجميلة، الذين سيستخدمون كافّة صلاحيّاتهم لتجنُّب أن تدهم قوات الأمن التي يرأسونها أوكارًا يراودونها. إلّا أنّ ما يتردَّد إليه هؤلاء لم يكن سوى شبح، لا هدف له سوى التستُّر على الوكر الحقيقيّ. كما أنّ الحفاظ على السرّيّة التامّة للمدعوّين من النخب الثالث هي ستارٌ آخر.

وبفضل هذه التغطيات يصبح الوكر الحقيقيّ ضبابيًّا ووحشيًّا يتناسب مع أهواء ماركو كارّيرا. بالنسبة إليه لا معنى للحفلات الصاخبة، لأنّه ليس في حاجة إلّا إلى زئير في الكلى أقوى من الزئير الذي يؤرِّق ذهنه: إخفاض فكرته عن نفسه لتصبح في مستوى أولئك الملاعين؛ التمرُّد على الحِداد، السفالة، الخلاعة، والعزاء باستحقاقه بالتالي كلَّ العذابات التي يتلقّاها.

كان الأمر جدّيًّا. كان المشاركون يختارون اسمًا قتاليًّا، سواء أكان معروفين أم لا. دامي تامبوريني، بصفته ابنًا عتيقًا لحارة التنّين في سيينا، يسمُّونه: التنّين. نائبٌ عامّ من أريتسو، الناجي الوحيد من كتيبة ضيوف مؤسّساتيّين حاضرين في سهرات النخب الثاني: اليائس. زوجة القنصل الألمانيّ في فلورنسا، الشبقة وكبيرة الصدر: الليدي أوسكار. صاحب مطعم لطيف في سان كاشانو فال دي بيزا، ذو وحمة على شكل إفريقيا في أسفل عنقه: رامبو. وزير سابق تسعينيّ من الجمهوريّة الأولى: الآلة. وهنالك لاعبون لا يعرفهم ماركو، كانوا بالنسبة إليه كألقابهم حقًّا: الباترون، جورج إليوت، بولتشينيلا، الفتاة المقاطَعة، النجاشيّ، فيليب ك. دك، ماندريك - ورائحة الخراب تحوم حول ذلك كلّه وكيف لا. القشرة على الأكتاف، العرق على الجباه، أربطة العنق المفكوكة، السعال ذو المنشأ النفسيّ، التعويذة المخبولة والنظرة الممسوسة لمن يتطلَّع نحو ما لا يسمح لنفسه بخسارته. وهناك كاتب العدل أيضًا، السيّد مارانغي، الذي لا يقامر لكنّه يضمن التدخُّل السريع

للحضارة القضائيّة في نقل الملكيّات العقاريّة وغير العقاريّة من هذا إلى ذاك كلّما اقتضى الأمر. وهناك طبيب، الدكتور زورو، وهو بخلاف القضائيّ يقامر، لكنّه يضمن الإسعافات الأوّليّة في حال جلطات، نزيف، إغماء. كان هذا الوكر يناسب ماركو كارّيرا جدًّا. وفكرة أنَّ دامي تامبوريني أخفاه عنه، تروقه جدًّا. وفكرة أنَّه استحقّ دخوله بتصرُّفٍ يحاذي الابتزاز، تروقه جدًّا. استطاع العثور على نقطةٍ من حياته لا يوجد خلفها سوى عواء الذئاب، تمامًا كما في ختام أغنية جوني ميتشل، عندما يكفُّ حتّى الغيتار عن المواء. ذلك الوكر مناسبٌ جدًّا.

وكانت ميرايجيين، في المكتب حيث يتركها ماركو، تفعل الصواب دومًا: كانت تنام. يأتي ماركو للتحقُّق بين الحين والآخر، وإن وجدها مستيقظة جلس بجانبها قليلًا، يهدهد المضجع حتّى تغفو ثمّ يعود إلى الصالة للعب؛ وكان يفوز، مثلما كان فتيًّا. على الروليت، والطاولة الخضراء، والتكساس هولدم، يفوز دائمًا تقريبًا - ولكن على وجه الخصوص، سواء أفاز أم خسر، كانت الطفلة التي في المضجع هي العذر المثاليّ للانصراف في اللحظة المناسبة - الأمر الذي لا يفعله اللاعبون أبدًا - وهذه كانت قوّته الحقيقيّة. أمّا ما تبقّى، فماركو لم يكن يبحث عن الضربة التي تعدِّل حياته. كان يبحث عن سببٍ في مواصلة حياته.

اسمه القتاليّ: هانموكو.

إنّما النظراتُ جسد (2013)

إلى: enricogras.rigano@gmail.com

بريد مرسَل - Gmail - 12 فبراير 2013، 22:11

الموضوع: مداخلة في المؤتمر

من: ماركو كارّيرا

مرحبًا إنريكو،

أرفق لك نصَّ المداخلة التي سأستعرضها في المؤتمر. إنّني متأثّر حقًّا بالعودة للمشاركة في مؤتمر بعد طول سنين. أشكرك على إعطائي الفرصة، وأرجوك أن تكون صادقًا في حكمك، إذا لم يكن النصّ في المستوى المطلوب.

أعانقك

ماركو

ندوة: «الإدراك البصريّ ما بين العين والدماغ»

براتو، 14 مارس 2013، مدرَّج متحف بيتشي

عنوان المداخلة: «إنّما النظراتُ جسد»

مدّة المداخلة: 8-9 دقائق

تأليف: الدكتور ماركو كارّيرا، المستشفى الجامعيّ كاريجّي، فلورنسا

«جدّي - جدّي - جدّي - جدّي...» أنا مستلقٍ على السرير بجانب حفيدتي ميراجيين، ذات الستّة والعشرين شهرًا. الغاية هي أن تنام. أضعها بجواري وأداعب بيدي شعرها المجعّد. وباليد الأخرى أمسك الجوّال، إذ أقرأ رسالة نصيّة، وهذا ما لا يعجب ميراجيين. «جدّي - جدّي - جدّي - جدّي...» تعترض، باستمرار. أقطع قراءتي للرسالة النصّيّة، وأنظر إليها: فتبتسم لي وتكفّ في تلك اللحظة عن مناداتي. أعاود قراءة الرسالة ولا أزال مستلقيًا بجوارها أداعبها، فتردّد مباشرة: «جدّي - جدّي - جدّي - جدّي...» أعود إلى النظر إليها. تكفّ عن مناداتي. أعود إلى الرسالة النصّيّة. تعود إلى مناداتي. لا يكفيها جسدي، ذراعي، دفئي، لا تكفيها لمساتي. تريد نظرتي - وإلّا فأنت لستَ موجودًا، كأنّها تقول لي، وإن كنتَ لستَ موجودًا فانسَ أنّني سأغفو.

أنا في محطّة الوقود، تزوّدتُ بالبنزين للتوّ. أدفع ببطاقة الائتمان. الآلة الإلكترونيّة (علمتُ مؤخّرًا أنّ اسمها POS، اختصارًا لـ Point of Sale) تطالبني بإملاء الـPIN (أمّا هذه فأعرف منذ زمن أنّها اختصارٌ لـPersonal Identification Number). يوجّه عامل المحطّة الـ POS نحوي ثمّ يلتفت بسرعة إلى الجهة الأخرى، نحو زميلته التي تسرّح الريح شعرها. يفعلها بطريقةٍ لافتة للانتباه بحيث تبدو الحركة هائلة، في سياقٍ تبدو فيه كلُّ الحركات محدودة، طبيعيّة، خالية من أيّ وزنٍ مميَّز.

في الأنشودة الثالثة عشر من المطهر، يجد دانتي نفسه في الإفريز الثاني،

في حضرة أرواح الحاسدين. كانوا متكتّلين بعضهم على بعض، يرتدون قماشًا خشنًا من لون الصخرة التي يستندون إليها، ويتوسّلون الشفاعة من القدّيسين والعذراء. فرجيل يدعو دانتي إلى النظر إليهم عن قرب، فيرى دانتي أنَّ أعينهم جميعًا مخيَّطة بخيطٍ حديديّ، والدموع تقطر من الرتقات. حينئذٍ يقوم الشاعر بحركةٍ رائعة، زاخرة بالشفقة والحداثة: «وفي مسيري بدا لي أنّني أهينهم، حينما كنت أراهم بدون قدرتهم على أن يروني؛ ولذا اتّجهتُ إلى ناصحي الحكيم»[1]. بمعنى أنّه ينزع عنهم نظره، ويوجِّهه إلى فرجيل، لا لأنّ رؤية هذا العذاب ترهبه، بل كي لا يهين تلك الأرواح التي إذا نظر إليها لا تقوى على مبادلته النظرات. كما لو أنّه يقول: لا يجوز إطلاق النار على أناسٍ عزّل، لا يجوز إصابة مَن تعذَّرَ عليه الدفاع عن نفسه.

وبحسب ما أعلن عنه أحد أفراد طاقم العمل في مجلّة نوتوريوس للموضة، لا يسمح برينس لموظَّفيه أن ينظروا إليه. «رأيتُه حرفيًّا يسرِّح واحدًا» يقول الموظَّف الذي رفض الكشف عن هويّته «لا لشيء سوى لأنّه تجرّأ على النظر إليه. لماذا ينظر إليَّ هذا؟ قولوا له بأن يرحل من هنا». وقد ابتكر الأمريكيّون تعريفًا لهذا الاستفزاز: «eye contact». كلَّفه ذلك المسكين عمله، ولكن حاوِلوا أن ترفعوا أنظاركم إلى مَن يكون بجانبكم في مكانٍ موبوء في البرونكس. «ماذا فعلتَ لتلقى هذا الاعتداء؟» «آي كونتاكت!».

أَلّفت الفيلسوفة الفرنسيّة بالدين سان جيرون كتابًا، صدر في إيطاليا عام 2010، بعنوان «الفعل الجماليّ. دراسة في خمسين مسألة»، تقدِّم فيه مصطلحًا متقدِّمًا من الناحية الفلسفيّة - وهو «الفعل» الجماليّ بالضبط. إنَّ استخدام هذه المفردة، «فعل»، يُحدِث انقلابًا جذريًّا في التصوُّر القائم على أنَّ النظرة

---

(1) دانتي أليغيري، الكوميديا الإلهية، المطهر، الأنشودة الثالثة عشرة، الأبيات 73-75، ترجمة حسن عثمان. (المترجم).

هي مرادفٌ للسلبيّة، المضادّة للفعل. الفعل الجمالِيّ، كما تقول بالدين سان جيرون، هو «انخراط»؛ النظر هو اللمس عن بُعد؛ إنّما النظرات جسد. فعن أيّ سلبيّةٍ نتحدّث!

في كلّ يومٍ نتعرَّض لمئاتٍ من النظرات. وبدورنا، نصيب بنظرتنا مئاتٍ من الأشخاص. وفي معظم الأحيان لا أحد ينتبه إلى الأمر: نحن لا ننتبه إلى أنّنا منظورون، والآخرون لا ينتبهون إلى أنّنا ننظر إليهم. لذا لا يحدث شيء، ولا تسفر هذه النظرات عن عواقب - ولكن لا وجود لأيّ سبب لاعتبارها أخفّ وطأة من الحالات التي ذكرتُها سلفًا. لا بل على العكس: هل نحن متأكّدون بأنَّ النظرات التي لا نبادلها لا تسفر عن شيء؟ هناك أناسٌ تقع في الغرام وهي تنظر كلّ يوم من النافذة إلى شخصٍ معيَّن يمرّ في الطريق. وهناك أناسٌ تثبِّت أنظارها على المقدِّم أو مقدِّمة البرنامج التي تشاهدها في التلفاز. كلا، لا يوجد نظراتٌ أهمّ ونظراتٌ أقلّ أهمّيّةً: في لحظة انطلاقها، كلّ النظرات عبارة عن انخراط، وإنّ تغيُّرَ الأحداث، أي الصدفة، هو وحده الذي يحدِّد عواقبها.

نحن بصدد عواقب عاطفيّة حصرًا تقريبًا. فلنأخذ عامل المحطّة مثلًا. فلنفترض أنّه لا ينحّي نظرته بتلك الطريقة الواضحة، فلنفترض أنّه قرَّر خلافًا لذلك أن يثبِّت نظرته على أصابعي أثناء ضغط الـ PIN؛ أو لمجرّد أنّه ينظر في وجهي بدلًا من أن يرمي أنظاره بين الحقول؛ كنتُ سأشعر بالإزعاج، هذا أكيد، وكان لردّة فعلي، المكبوحة أو لا، أن تشابه ردّة فعل برينس مع موظّفه: لماذا ينظر إليَّ هذا؟ سأشعر أنّني تعَرَّضتُ للاعتداء، حتّى لو لم تصل بي الأمور إلى الظنّ بأنّه يحاول حفظ رقمي السرّيّ لاستخدامه ببطاقة مستنسخة. وهذا إثباتٌ على أنَّ النظرات أسلحةٌ فعّالة، وتسبِّب صدمات عاطفيّة حتى عندما لا يكون الهدف من إطلاقها التسبُّب بتلك

الصدمات. مَن منّا لم يحدث له أن شعر بالإهانة فجأة عندما ألقى مخاطبه نظرة خاطفة على الساعة؟ لأنّ ما يغيِّر، وما يجعل نظرات الناس محتملة، هو نوعيّة الانتباه الذي تنقله النظرة إلينا. هاك رجلًا، واقفًا على حافّة الطريق السريع، بجانب سيّارته المتوقّفة: نمرّ بسيّارتنا بسرعة مئة وثلاثين بالساعة فننتبه بنظرة خاطفة أنّه يتبوَّل. من الوارد أنّه شخص جادّ، موقَّر، ومحترم وسليم عقليًّا بالكامل: ومع هذا، وجد نفسه عرضة لدافعٍ لا يمكن مقاومته، فاضطر إلى ذلك الفعل - فلنصفه بالفعل الجانح اجتماعيًّا. «إلى الجحيم» لا بدّ أنه قال لنفسه «أفضل بكثير من التبوُّل في الثياب» - لكنّه ما كان ليقدم على هذا الفعل إطلاقًا وهو ينظر نحونا، فنراه أثناء مرورنا. يولي إلينا ظهره، يُبطل انتباهه بنا، بحيث يلغي أيّ احتمال للصدمة التي ستُحدِثها نظراتنا فيه. وفي الواقع، سواء أكان موليًا ظهره أم لا، لا فرق لدينا، فنحن أغلب الظنّ لا نعرفه، ورغم هذا فالأمر يتغيَّر بالنسبة إليه كليًّا. هذا يعني أنَّ الفعل الأهمّ في تلك اللحظة ليس تبوُّله في مكانٍ مفتوح، إنّما رؤيتنا له وهو يفعلها. وإن مُنِعَ عليه أن يولي ظهره إلينا، فسيكون الفعل الأهمّ هو رؤيته لنا ونحن نراه. فعن أيّ سلبيّةٍ نتحدّث!

«أنا ما أراه» قال ألكسندر هولان: بما أنّه رسّام فمن الطبيعيّ أن يوجِّه هذه الهويّة إلى الجهة التي قطعتها نظراته؛ ولكن بالشكل نفسه يمكن للعارضة كيت موس أن تتوصّل إلى هويّتها باتّخاذ الطريق المعاكس، وتؤكِّد: «أنا ما يرونه الآخرون منّي». الأداة التي تؤكّد بها الكينونة نفسها تبقى واحدة: النظرة. خلافًا لذلك، أصبحت النظرة الإلكترونيّة للأجهزة الأوتوماتيكيّة - البريئة بالضرورة - هي الملجأ النموذجيّ لأخطر المسؤوليّات. طلب قاذف القنابل الجويّة الأمريكيّة توماس فيريبي من عينيه أن تخبراه باللحظة المناسبة لإلقاء القنبلة الذريّة على هيروشيما من الطائرة إينولا غاي؛ ثمّ رأت عيناه

بعد لحظات وجيزة الفطر المريع الذي أحدثه الانفجار. ما يعني أنّه انخرط. واليوم يستخدم الأمريكيّون طائرات من دون طيّار، تسمّى طائرات مُسيَّرة، لتلقي القنابل من خلال تحكّم الخوارزميّات الذي ينظّمها. بدون نظرة مباشرة لا أحد ينخرط، وبالتالي لا يتحمَّل الوزرَ أحد.

ثمّ هنالك التأمُّل، وهو أكثر الأفعال الجماليّة إبداعًا وتلغيزًا. فعلى سبيل المثال، ها هي ميرابجيين قد غفت، وبدلًا من قراءة الرسالة أخذتُ أتأمَّل فيها: إنّها طفلة، طفلة عاديّة نائمة - لكنَّ نظرتي حوَّلتها إلى أجمل شيء في الدنيا.

الذئاب لا تفترس الأيائل المنحوسة (2016)

الضربة الأولى تبوء بالفشل: التنّين يقدِّم إليه اللاعب الجديد (ها يا بليتزارد، أعرِّفك على هانموكّو؛ هانموكّو، أعرِّفك على بليتزارد؛ تشرَّفنا، تشرَّفنا)، ويصافح ماركو تلك اليد دون أن يفطن إلى شيء. يبتسم بالكاد ويمضي في طريقه، يفكِّر في نفسه، يفكِّر - ربّما - في دناءته، لأنَّه هذا المساء أيضًا جاء للعب مع أنَّ حرارة ميرايجيين بلغت الثماني والثلاثين درجة. إلّا أنّه يومٌ مميَّز، إنّه 29 فبراير، وماركو لم يقاوم. ماركو لا يؤمن بالخرافات، ولا بالخوارق، لكنّه يستلهم عمومًا من الأرقام والمناسبات، وإنَّ يومًا لا يتكرّر إلّا كلّ أربع سنوات لهُوَ يومٌ مواتٍ للقمار. وما ذهب إلّا لهذا السبب. ففي المحصِّلة - قال في نفسه - ثماني وثلاثون درجة لا تعتبر حمّى شديدة، ولا يبدو أنَّ الطفلة تعاني. أعطاها دواء التاكيبيرين وهو يفكِّر بأنَّه إذا ساءت الأوضاع فبإمكانه أن يتّجه إلى مستشفى سيينا القريب. وقد سارت الأمور على ما يرام حتّى هذه اللحظة: غفت الطفلة في السيّارة كالعادة ونامت طوال الرحلة من فلورنسا إلى فيكو ألتو؛ وكالعادة صحت ما إن وصلا إلى القصر، لتبسِّط عليه عمليّات النزول - يساعده في هذا، كالعادة، الفلبينيّ العملاق خادم دامي تامبوريني، مانويل، الذي كان بانتظاره في آخِر المسلك؛ وغفت من جديد كالعادة ما إن وضعها في المضجع المتأرجح، الذي ركّبَه كالعادة في «مكتب الألم»، سُمِّي المكتب هكذا لأنَّ أحد أجداد دامي تامبوريني، النبيل فرانشسكو سافيريو، الذي كان فسكونتًا على تالامونه، كتب يوميّاته الحميمة المعنونة

بـ«الألم» في ذلك المكتب، وفيها يتحدَّث عن معاناته الفظيعة التي تسبَّبت له بها خيانات زوجته لويجينا. سارت الأمور على ما يرام كالعادة، لكنَّ هذا لا يعني أنّ الطفلة تعافت من الحمّى، وما زال ماركو كارّيرا يفكّر في أنَّه دنيء. لذا لم يفطن إلى شيء عندما قدَّمَ دامي تامبوريني إليه شنيعَ الذكر. لكنَّ عيناه تقعان فجأة وللمرّة الثانية على ذاك الرجل النحيل كالخيط، الواقف بجوار صاحب المكان في الطرف الآخر من الصالة، وفي حين لم يعرفه عن قرب، عرفه من بعيد. يفطن إلى الاسم القتاليّ أيضًا، بليتزارد، وكان قد تجاهله منذ قليل. فيقطع الصالة ثانيةً، غير مصدِّقٍ، ويتّجه نحو القادم الجديد، الذي عرفه حينذاك فورًا، وها هو ينظر إليه، وينتظره، مبتسمًا.

- هل أنت... - يغمغم، فإذا بشنيع الذكر يقاطعه على الفور.

- هلّا دلَّيتني على الحمَّام من فضلك؟ - يقول له، ويأخذه من ذراعه مبتعدًا عن دامي تامبوريني الذي ما زال يستقبل الضيوف.

يخرجان من الصالة. يتّجه ماركو كارّيرا حقًّا نحو الحمَّام. ينظر إلى صديقه السابق، وما زال مشدوهًا - بملاقاته هناك، على حين غرّة، بعد مضيّ كلّ تلك الأعوام، وبعدم تعرُّفه عليه في اللحظة نفسها - وقلبه يخفق بقوّة: الشابُّ الذي أنقذ حياته قبل أربعين عامًا تقريبًا، وقد بات أشبَه بمشجبٍ قديمٍ ومتنقِّل، ببدلةٍ مهترئة ومفتّقة، وابيضَّ شعره كعالمٍ مجنون، وانحنى ظهره ليصبح كإشارة استفهام، وتلفت بشرة وجهه من فرط المجون، واصفرَّت أسنانه، وتمدَّدت بعض الوشوم الملتوية على عنقه كأذرع الأخطبوط - لكنّها وشومٌ رديئة، إن جاز التعبير، كما لو أنّه أُكْرِهَ على دقِّها.

ورغم ذلك ما زال يبتسم.

- دوتشو... - يقول ماركو.

الشابُّ الذي خانه ماركو قبل أربعين عامًا تقريبًا، واغتابه وأرغمه عمليًّا على الاختفاء، ولم يره منذئذ بالفعل، الأمر الذي أصبح بالنسبة إلى ماركو سببًا لشعورٍ مؤلمٍ بالذنب - على أنّه لم يدم طويلًا، إذ فُجع كالآخرين بعدها بعامين فقط، إثر وفاة إرينه، ولم يعد ذلك الشعور ليظهر فيما بعد، لا بل أفسح مكانه نهائيًّا لمصائب أخرى تساقطت على حياته، حتّى إنّه طوال عقود، ولغاية الدقيقة الفائتة، لم يعد في ذاكرته مجالٌ لا للشعور بالذنب، ولا لشنيع الذكر نفسه. أمّا الآن وقد ظهر أمام عينيه، عجوزًا وفي حالٍ يُرثى لها، يستغرب ماركو بأنّه لم يخطر على باله كلَّ يوم، وبأنّه نسيه أيضًا. أهذا معقول؟

- هل أنت *الأمّوكّو*؟ - يسأله شنيع الذكر.

- أجل - يجيب ماركو - ولكنْ ما الذي تفعله ...

- عد إلى بيتك. فورًا.

يبدو أنّه يتحدّث بصعوبة، كأنَّ قدراته اللغويّة قد تعرَّضت لأضرارٍ بالغة. كما أنّ الجلدة التي يحملها على وجهه منسجمة مع مظاهر كلّ الأمراض.

- أصغ إليّ - يردِّد - من الأفضل ألّا تقامر هذا المساء.

وبسبب الصعوبة الظاهرة التي يحاول تجاوزها، يبدو أنّه ينطق الكلمات بكثافةٍ أشدّ، وتلذُّذٍ أكبر.

- لماذا؟ - يسأله ماركو كارّيرا.

وصلا إلى الحمّام فعليًّا، حيث تؤمّن المرايا المتقابلة انعكاسًا لا ينتهي لشخصيهما.

- انظر إليّ - يقول شنيع الذكر - وحاول أن تفهم ما سأقوله لك: لا تقامر هذا المساء. عد إلى البيت. نصيحةٌ من صديق.

يبتسم مجدّدًا، ابتسامةً عريضة، مستعرضًا كامل عدّته من أنيابٍ صفراء ومتكردسة.

ينبني سدٌّ كبير في ذهن ماركو كارّيرا للحظةٍ طويلة، فتنحبس كلّ ردّات الفعل المحتملة بعضها على بعض وهي تحاول شقّ طريقها في الوقت نفسه. أن يأخذ كلامه على محمل الجدّ وينصرف، فورًا، دون حتّى أن يسأله عن السبب، لمجرّد أنّه يجمع ذلك الإيعاز بالاستنفار الذي رفعته حمّى ميرابجيين في هذا المساء نفسه. أم أن يستجوبه عن ظهوره المسرحيّ هذا، ما أساسه، وما غاياته، وما نواياه. أم أن يعتذر منه، متأخّرًا سبعةً وثلاثين عامًا. أم أن يعارضه، ويرسله إلى الجحيم، لأنّه يشعر غاضبًا بضرورة فعلها - وطالما أنّنا نتناول الموضوع: ما سبب هذا الغضب المفاجئ؟ لماذا لا يوجد مودّة في هذا البوح، لماذا يبدو أنّه تحذير مافيويّ؟ أم لمجرّد أنّنا نؤذي أحدًا ثمّ نكرهه - أجل، نؤذيه فنكرهه - ولا نحتمل أيّ شيء من جانبه؟

- دوتشو - يقول في النهاية، مجتهدًا في تمالك أعصابه - أنا آتي للعب هنا كلّ أسبوع. أعرف أين أجد نفسي، أعرف كلّ اللاعبين، إنّني في داري. فإذا بك تظهر من العدم لتقول لي بأن أنصرف؟ لماذا؟ وأين كنتَ طوال هذه المدّة كلّها؟ ما الذي فعلت؟ ولماذا أنت هنا؟ لماذا ترتدي ثيابًا بالية؟

يبدو أنّ بدلة شنيع الذكر تتفتّق على كلّ خطوة في تواثب الصور المنعكسة على المرايا: ولا يضاهيه حمّال النعوش - يفكّر ماركو - ولا حتّى حفّار القبور.

- أنا هنا للعمل - يجيب شنيع الذكر - وهذا زيّي الرسميّ. شاءت لي الطبيعة أن أكون قبيحًا، وهذا يساعدني، ولكن لإجادة عملي يجب على مظهري أن يبدو مقيتًا للغاية، والثياب أساسيّةٌ في هذا.

- عمَّ تتحدَّث؟ أيُّ عمل؟

يلقي شنيع الذكر نظرةً إلى البعيد، يرفع رأسه نحو السقف، وفي تلك اللحظة يرى ماركو فيه الشابّ الذي كان يفوز في مسابقات التزلُّج ويلقِّبونه بليتزارد. أو ربّما لا، ربّما يتخيَّل ذلك فحسب.

يسحب شنيع الذكر نفسًا عميقًا.

- إذًا - يقول - إنّني أجلب سوء الحظّ، وأنت تعرف هذا. أجلب سوء الحظّ للجميع ما عدا الذين يكونون معي، وأنت تعرف هذا أيضًا، صحيح؟ ما كان اسمها؟ نظريّة عين الإعصار... حسنًا، بما أنَّ شهرتي طبّقت الآفاق، إن جاز التعبير، وما عاد بالإمكان محوها، فكّرتُ أن أفيد منها.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنّني أعيش الآن من ذلك.

- بمعنى؟

- بمعنى أنّني أعمل جالبًا للنحس. أحمل الحظّ التعيس مقابل أجر. لا تضحك، لأنّني في هذا المساء كلّفني صديقك، هنا، لأجلب النحس لأمّوكّو هذا، والذي هو أنت. *الكثير الكثير* من الشؤم. *أقصى* درجات الشؤم. لذا أقول لك انجُ بجلدك. خذ بنصيحتي. فهذه ليست مزحة.

مرّةً أخرى، تبدو لغته المحجوجة والمتاقلة أنّها تمنح الكلمات معنىً أكبر، ونكهةً لاذعة.

- ما هذا الذي تقوله؟ - يتلعثم ماركّو كارّيرا. يجد صعوبةً كبرى في إخفاء دهشته.

- ماركو، إنّني أعيش الآن في نابولي، أتفهم؟ كما لو أنّي أعمل مصارعًا للثيران وأعيش في إشبيلية. تشير إليّ الناس على الشخص المستهدف وتدفع لي مبلغًا لكي أجلب له النحس، وأنا أنفّذ ما يطلبون، منذ سنوات، وأتوفَّق، دومًا. أعمل كلّ يوم، في المدينة وخارجها. قمار، صفقات، قصص حبّ، رياضات، نزاعات عائليّة: إنّني السلك الهوائيّ الذي يشير للشؤم أين عليه أن يهبط، وأقول لك إنّي ركبتُ الطائرة هذا الصباح عمدًا لتفريغ الحظّ السيّئ فوق رأس أمّوكّو هذا. «لكي أجعله يبكي»، هذا كان الطلب. وصديقك يدفع لي مبلغًا كبيرًا من أجل هذا.

- ومن صديقي هذا؟

- صديقك. صاحب هذا القصر.

- ولأيّ سبب؟ إنّه صديقي، بالضبط. لماذا يسعى إلى إيذائي؟

- اسمعني، أنا لا أسأل زبائني لماذا يريدون ما يريدون. لا أعرف ما الذي يجول في رؤوسهم. سأنصرف عائدًا إلى نابولي صباح الغد ولن أراه أبدًا. إن أردتَ رأيي، فهو مجنون، لكنّه ليس من أولئك المجانين الذين يعدُّون أصابع اليد ويستنتجون أنّها ثلاثة. نوعٌ آخر من الجنون. لكنّه رأيٌ سطحيّ، لأنّي لا أعرفه البتّة، لذا من الوارد أنّني أخطئ. ما أعرفه هو أنّه يريد أن يراك تبكي، لذا أكرّر على مسامعك، عد إلى البيت... من جانبي سأرتضي بالدفعة الأولى، وسأتغاضى عن الباقي، بحيث لا يتأذّى أحد.

تبرز من فوق السدّ ردّة الفعل التي يبتغي ماركو إبداءها، وسيبديها، وتصبح أوضح فأوضح. فالأدرينالين الذي فعل فعله منذ الصباح ترقُّبًا للسهرة عند دامي تامبوريني، عوضًا عن التضاؤل ها هو يتضخّم. لكنّ اللغة ليست جاهزة بعد للتعبير عنها، الكلمات ليست جاهزة. لذا يلتزم

ماركو الصمت.

- اذهبْ بعيدًا - يصرُّ شنيع الذكر - اختصرها على نفسك. حدَّثتني أمّي عمّا وقع لك. اذهب إلى البيت.

ماركو يرتجف.

- أمّك ما تزال حيّة؟

- أجل.

- كم عمرها؟

- اثنان وتسعون.

- وكيف حالها؟

يبدي شنيع الذكر تكشيرةً يصعب تأويلها: وجهه الذي اكتسحته التجاعيد، خيَّم عليه شيءٌ وحشيّ. مريرٌ ووحشيّ.

- بخير - يجيب - ولكن ليس بفضلي طبعًا. فأنا أهملها. يعتني بها أبناء عمومتي الطيّبون الذين يتطلّعون إلى التركة. يبادرون، ويقدِّمون المساعدة. ولكي يتودّدوا إليها يعتنون بها أكثر ممّا اعتنوا بأمّهم، التي توفّيت وحيدةً في مصحّة. لا يتخيَّلون أنَّهم وضعوها في جيبهم أساسًا، التركة، طالما أنّني لستُ مهتمًّا بها: لو تأكّدوا من ذلك لقتلوها بمبيد الفئران. هذه هي طريقتي لحمايتها: إيهام أبناء عمومتي أنَّه ينبغي لهم أن يتودّدوا إليها لكي يستثنوني من الوصيّة.

يتوقّف. تختفي التكشيرة، فجأةً مثلما ظهرت.

- عمومًا، لطالما حدَّثتني عنك - يستأنف كلامه - لطالما أحاطتني علمًا بأخبارك. إنّها متأسّفة جدًّا لما وقع لك. عد إلى البيت.

وهكذا يكتشف ماركو أنّه شخصٌ مثيرٌ للشفقة. لم يفكّر في هذا من قبل: عاد ليعيش في أماكن طفولته، استعاد علاقته بأصدقائه القدامى، وعاد يتردّد إلى النوادي الرياضيّة القديمة، ولم يحدِّث أحدًا بما جرى له، وما كان يجري له. إرينه. مارينا. آديلي. لم يبكِ يومًا على كتف أحد، ظلَّ صامدًا، ومضى قُدُمًا، والآن يكتشف أنّه متبوعٌ بحكايةٍ تهتزّ لها مشاعر حتّى شنيع الذكر صاحب الحياة المهجورة. الأمر الذي يمدُّه فجأةً بالكلمات ليعبِّر عن نفسه.

- اسمع يا دوتشو - يهاجم - أشكرك على تحذيرك، لكنّني لن أنصرف عائدًا إلى البيت، لأنّني لا أؤمن بأنّك تجلب سوء الحظّ. ولم أؤمن بذلك في حياتي، لا بل لطالما حاججتُ مَن يدَّعون ذلك. ارتكبتُ خطأ، منذ أعوام بعيدة، خطأ واحدًا فقط: خطأ فادح، أقرّ به، لأنّي كنتُ مخبولًا، وغبيًّا، ووحيدًا، ولا شكّ في أنّك وجدتَ نفسك تعاني تداعيات خطأي ذاك، وألتمس منك المعذرة بهذا الشأن، ولو كانت لي القدرة على الرجوع بالزمن إلى الوراء أقسم لك بأنّي ما كنتُ لأرتكب الخطأ ثانيةً. لكنّي حتّى في تلك الآونة لم أكن أؤمن بهذه الأشياء. فضلًا عن أنّي مدينٌ لك بحياتي، فلا يمكنني أن أخاف منك. وإن قلتَ لي إنّ دامي تامبوريني، صديقي، ورفيقي في التنس المزدوج، ولهذا السبب حصرًا فاز بالدوري في السنوات الأخيرة، وهو شغوفٌ بهذا أكثر من أيّ شيء في العالم على ما يبدو، بدلًا من أن يقبِّل الأرض التي تطأها قدمي، كما كانت أمّي تقول، يكلِّفك بإبكائي، جيّد جدًّا، فالآن تتملَّكني رغبةٌ عارمة في اللعب: وأنت تعلم جيّدًا ما ألذَّ القمار على صفيحٍ ساخن...

والآن صار شنيع الذكر هو الذي لا يتمكّن من إخفاء دهشته. ليس معتادًا، بطبيعة الحال، ومن يدري منذ متى لم يقابل شخصًا لا يؤمن بأنّه مشؤوم.

- إضافةً إلى أنّني - يتابع ماركو - أمتلك الآن ميزةً هائلة بعد أن أخبرتني بسبب مجيئك إلى هنا، وأفكّر في الاستفادة منها. وبكلّ الأحوال، بما أنّك طرحتَ الحظّ وسوء الحظّ، سأريك شيئًا. اتبعني.

يخرج من الحمّام، متبوعًا بشنيع الذكر، ويتّجه إلى مكتب الألم. يضع إصبعه على شفتيه لإلزامه بالحفاظ على الهدوء، ويفتح الباب برفق. يُدخِلُهُ ويلج إلى الداخل هو أيضًا، ويغلق الباب برفقٍ أكبر. الطفلة نائمة، ذراعها تتدلّى عن المضجع المتأرجح. يضعها ماركو في أحضان صديقه، ويقرِّب شفتيه من جبينها المتعرِّق قليلًا فيستشعر رطوبته.

- هذه حفيدتي - يقول، بصوتٍ خافت - اسمها ميرايجيين. عمرها خمس سنوات ونصف. حيثما أكن تكون. دائمًا. اسمي القتاليّ هانموكّو على اسم المضجع حيث تنام. أترى؟ دعائم تنفكّ وتتركّب. هل أخبرك صديقي بهذا الأمر؟

- لا.

- أرأيت...

يحنو ماركو مرّة أخرى على جبين الطفلة، ثمّ يعود إلى الباب ويفتحه: يخرجان من المكتب دون إصدار أي نأمة.

- أكرِّر على مسمعك - يقول، بعد أن أغلق الباب - أنا لا أؤمن بهذه الأشياء، لكنّي أؤكّد لك أنّه في حال وجود احتماليّة حظّ ونحس في هذا العالم، فلن يقدر أحدٌ على هزم حفيدتي. وحفيدتي هنا، بجانبي، تحميني. لذا أرى أنّه من الأفضل أن تعود أنت إلى بيتك. لا أودّ أن تظهر بمظهرٍ سيّئ، أتفهمني، وأن تفسد سمعتك.

يبتسم. لماركو وشنيع الذكر العمر نفسه. وكانا صديقين مقرَّبين عندما

لُقِّبَ بالطنّان. شاركا معًا في مسابقات التزلُّج، واستمعا إلى الموسيقى الرائعة لمئاتٍ من الأمسيات في تلك الأعوام حيث كان يصدر في كلّ أسبوعٍ منها عملٌ عظيم. ودخلا ساح القمار معًا، مراهنات السبق، والروليت، والزهر، والبوكر. وتسكَّعا بين كازينوهات أوروبا وخمّاراتها معًا. ثمّة ما يبعث على المجد في ذكرياتهما المشتركة.

- لا تلعب بالنار - يقول شنيع الذكر - انصرف من هنا.

إلّا أنَّ التغيرات تحدث الآن، بغتةً، فيشفق أحدهما على الآخر. لكنّ شنيع الذكر وحيد، وعجوز، يشارف على النهاية، بينما يبدو ماركو كارّيرا ابنه، وبصحّةٍ جيّدة، وما زال يرى المستقبل، لأنّ لديه ميرايجيين. ومن جانبٍ آخر، يتّضح أمامه المشهد الذي جاء به إلى هناك: حدس كارّادوري حين أهداه ذلك المضجع، وسفاهة كارّيرا باستخدامه بتلك الطريقة، نكايةً بصورة الجدّ الطيّب الذي أجهد نفسه للظهور عليها والتي يعتقد الجميع أنَّها حقيقيّة - إذ كان قد وضع نصب عينيه يوم 29 فبراير، اليوم الذي لا وجود له. وكلُّ الحبّ الذي بُعثِرُ في الدنيا، وكلُّ الوقت الذي أُهدِرَ وكلُّ الألم الذي عيش: كان قوّة، كان قدرة، كان مصير، وقد تضافرت هناك معًا.

- الذئاب لا تفترس الأيائل المنحوسة يا دوتشو - يقول - الذئاب تفترس الأيائل الضعيفة.

الرسالة الثالثة عن الطنّان (2018)

ماركو كاتّريرا

ساحة سافونارولا 12

20132 *فلورنسا*

إيطاليا

باريس، 19 *ديسمبر* 2018

ماركو،

أقرأ في هذه الأثناء كتابًا عن المطرب فابريتسيو دي أندريه. من تأليف دوري غيتزي بمشاركة بروفسورين باللسانيّات. كتابٌ مدهش، وقد صادفتُ للتوّ فقرةً يفسّر فيها اللسانيّان معنى كلمة «إيمينالجيا»:

«مشتقّة من «Emméno»، فعل يونانيّ بمعنى «أبقى وطيدًا»، «ثابتًا»، «مكابرًا». إحساسٌ بالإفناء السوداويّ رغبةً بالاستمرار حتّى النهاية. لكنّه فعلٌ غادر. لأنّ «Emméno» يعني أيضًا «التملّص من القوانين، من قرارات الآخرين». وهو قدر كلّ البشر - بل أكثر من ذلك: إذا أُرغِمَ الإله نفسه على الخضوع لقواعد الحكم الحرّ - إذا وجدوا أنفسهم في مواجهة حدود الزمن

الذي يجدِّد أحجامهم. كلمةٌ كالسمّ والعلاج لجراح المستقبل عندما ينقصنا؛ وهي بالتالي لا طائل من ورائها. ففي الواقع، حتى لو عالج جرحًا «واحدًا»، يبقى الأمل الحقيقيّ المتأجّج لدى جميع البشر عندما يكونون صريحين مع أنفسهم هو ألّا يصابوا بالجرح أبدًا».

هذا الفعل هو أنت يا ماركو. لا أحد مثلك يكابر للثبات، ولا أحد مثلك يتملّص من التغيير، تمامًا مثل هذا الفعل الذي يتحدّث عنه اللسانيّان: تبقى وطيدًا، وتستمرّ حتّى النهاية، لكنّك أيضًا تتملَّص من القوانين وقرارات الآخرين حتمًا.

ولقد أدركتُ، فجأةً (وبسبب هذه الفجاءة أراسلك، مع أنّي أعرف أنّك لن تردّ) أنّك طنّانٌ بالفعل. بالتأكيد. كما لو جاءني الوحي: أنت طنّانٌ بالفعل. ولكن ليس للأسباب التي مُنِحَتَ بها هذا اللقب: أنت طنّانٌ لأنّك كالطنّان تضع كامل طاقتك في البقاء ثابتًا. سبعون رفّة جناح بالثانيةِ لكي تبقى حيث أنت. إنّك رائعٌ، في هذا. تستطيع الثبات في العالم وفي الزمن، تستطيع أن تثبِّت العالم والزمن من حولك، وأحيانًا تستطيع حتّى أن تعود به إلى الخلف، أقصد الزمن، وأن تعثر على الزمن المفقود، مثلما هو الطنّان قادرٌ على الطيران إلى الوراء. لهذا السبب كان البقاء بجانبك أمرًا جميلًا.

ولكن، ما تستطيع فعله بعفويّة، يفعله الآخرون بصعوبةٍ بالغة.

ولكن، الميل إلى التغيير، حتّى عندما قد لا يأتي بنتائج أفضل، يشكِّل جزءًا من الفطرة البشريّة، وأنت لا تدرك هذا الميل.

ولكن، وعلى وجه الخصوص، لا يبدو هذا الثبات الدائم، الذي يكلِّف جهدًا كبيرًا، أنّه العلاج، إنّما الجرح. ولهذا السبب كان البقاء بجانبك أمرًا مستحيلًا.

أمضيتُ حياتي بأكملها أتساءل لماذا لم تنجح في صنع ما بدا الوقت طويل أنّه قدرك الحيّ: تلك الخطوة التي تسمح لك بالبقاء معي. تساءلتُ ما الذي فيك، عندما كنّا قريبين (وقد حدث هذا كثيرًا خلال تلك الأعوام)، يدفعك إلى الوراء، ويجعلك ترفض فجأةً ما كان حتّى اللحظة السابقة يجذبك. واليوم فهمتُ فجأةً أنّ ما حدث في الحقيقة هو العكس، أنّني أنا التي لم تفلح في البقاء معك. فللبقاء معك ينبغي التمكُّن من الثبات، ولم أكن قادرة على ذلك يومًا. النتيجة تبقى نفسها، نحن الاثنان تغيَّبنا، بكلّ ما يعنيه هذا الفعل: لكنّ وجهة النظر الجديدة هذه تملأني بحزنٍ جديدٍ هو أيضًا، وشرس، لأنّني أنتبه الآن أنّ كلّ شيء ما كان متعلّقًا إلّا بي.

والتوصُّل إليه متأخّرًا، لفهمه، شرسٌ كذلك، ولكنّه خيرٌ من عدم التوصُّل إليه أبدًا.

مارِكو. ثمّة انفجارات، خارج النافذة، صراخ، صفّارات الإسعاف. إنّه يوم سبت، وفي كلّ سبت تقع نهاية العالم هنا، حتّى أصبحت اعتياديّة. السترات الصفراء الذين يحطّمون كلّ شيء، أصبحوا اعتياديّين. والاستغناء عنك أصبح اعتياديًّا.

أعياد ميلاد مجيدة.

لويزا

الأشياء كما هي (2016)

- ألو؟
- دكتور كارّادوري، صباح الخير. أنا كارّيرا.
- صباح الخير. كيف الحال؟
- بخير. وحضرتك؟
- بخير كذلك، شكرًا.
- هل أزعجك؟ أين أنت في هذه اللحظة؟
- لا، لا تزعجني إطلاقًا. أنا في روما. أجري دورة تحديث قبل العودة إلى البرازيل.
- إلى البرازيل؟ لماذا؟
- إيه، توقَّعتُ هذا السؤال. فهنا في إيطاليا لا أحد يعرف ما وقع. قبل أربعة أشهر، في البرازيل، وقعت أخطر الكوارث البيئيّة في التاريخ. بنتو رودريغيز، هل يبدو لك الاسم مألوفًا؟
- لا.
- هذه قرية، في ولاية ميناس جيرايس. ولكن ربّما من الأصحّ أن نقول إنّها كانت قرية.
- ما الذي حدث؟

- غمرتها الوحول السامّة التي تسبَّبَ بها استخراج أوكسيد الحديد. انهار حوضٌ لتصفية السوائل ووقعت الكارثة. وقد مرّ عليها أربعة أشهر.

- أهناك ضحايا كثر؟

- ليسوا كثرًا. سبعة عشر. لكنّ المشكلة هي في تلوُّث منطقة كبيرة تُقدَّر بنصف إيطاليا، بما فيها من أنهار وجزء كبير من الساحل الأطلسيّ، مع أنّه يقع على بُعد مئات الكيلومترات. عشرات الآلاف خسروا كلّ شيء وجرى إجلاؤهم.

- لم أكن أعلم عن الأمر أيّ شيء، حقًّا.

- نقلته الأخبار بالكاد في إيطاليا. مقالتان وكفى. ومنذ أشهر لم يفتح الموضوع أحد. إلّا أنّها كارثة حقيقيّة. يريد السكّان البقاء في أرضهم لكنَّ أرضهم في خطر. إن تركتَهم هناك، قد يموتون بالسرطان. وإن أبعدتَهم، ما عاد لديهم رغبة في الحياة. ثمّ إلى أين تبعدهم؟ مأساةٌ حقيقيّة.

- يؤسفني ذلك...

- لا عليك. ماذا عن حضرتك، دكتور كارّيرا؟ قل لي إنّ الأمور على ما يرام.

- الأمور على ما يرام، في الواقع. نعم.

- لحسن الحظّ. والطفلة؟

- روعة.

- كم عمرها الآن؟

- خمس سنوات ونصف.

- يا للهول. ولكن هذا صحيح. منذ متى تلاقينا، نحن؟

- إيه، منذ ثلاث سنوات.

- حقًّا، وكان عمرها عامين ونصف بالفعل. بالمجمل، الأمور على ما يرام.

- أجل. سوى أنّه...

- سوى أنّه؟

- هنالك أمرٌ وددتُ التحدُّث فيه مع حضرتك.

- تفضّل.

- ولكن، عليَّ في البدء أن أعترف لك بشيء.

- ما هو؟

- المضجع. الذي أهديته لي.

- ما به؟

- أستخدمه.

- هذا يسعدني.

- ولكن ليس من أجل الذهاب للتنس والمحاضرات، مثلما قلت لك.

- آه. ولأيّ مشوارٍ تستخدمه إذًا؟

- في شبابي كنت ألعب القمار، كنتَ تعلم هذا حضرتك؟

- أجل. أخبرتني زوجتك عندما كانت تأتي إلى عيادتي.

- بوكر، طاولة خضراء، روليت. ثمّ أقلعتُ.

- أخبرتْني بهذا أيضًا.

- عدتُ.

- جيّد. أما زال يعجبك؟

- والطفلة تنام في المضجع.

- منطقيّ.

- في الغرفة المجاورة.

- بالتأكيد، كان لهذا الغرض أنّني ...

- طوال الليل، أحيانًا. حتّى الفجر.

- حسنًا وما المشكلة في هذا؟ إلّا إذا كنتَ تخسر الكثير من الأموال. هل تخسر الكثير من الأموال حضرتك؟

- لا، لا. بل على العكس...

- ...

- ...

- تفضّل، دكتور كارّيرا.

- ليلة أمس. يعني هذه الليلة. باختصار، منذ عشر ساعات...

- حسنًا؟

- فزتُ الكثيرَ الكثير من الأموال.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنّني فزتُ رقمًا خياليًّا. وفعلتُ شيئًا خياليًّا.

- بمعنى؟

- لقد حُذِّرتُ، في بداية السهرة، من صديقٍ قديم لم أره منذ ما يزيد على الثلاثين عامًا. فلنقل إنّه محترف. ينبغي أن أروي قصّته أيضًا لكنّي لا أريد الإطالة على حضرتك. رأيته بعد كلّ هذه المدّة هناك حيث أذهب للعب كلّ أسبوع تقريبًا منذ ثلاث سنوات. فأخذني على انفراد وقال لي: «انصرف من هنا، عد إلى البيت»، لماذا، سألتُه. «لأنّهم يريدون تدميرك». مَن، سألتُه. فقال لي: «الزعيم، هنا: كلَّفني بالقضاء عليك، يريد أن يراك تبكي. لم أكن أعرف أنّك أنت المقصود».

- وكيف من المعقول أنّه لم يكن يعرف أنّ حضرتك المقصود، طالما أنّكما صديقان قديمان؟

- لأنّنا نستعمل أسماء مستعارة عندما نلعب. كان يعرف أنّه عليه تدمير هانموكّو، وعندما تلاقينا اكتشف أنّ هانموكّو هو أنا.

- آه.

- وبالمناسبة، هذا اسم المضجع الذي أهديته لي.

- تمامًا.

- بالمحصّلة، قال لي ما قال. وكان يقصد بالزعيم صاحب القصر، لويجي دامي تامبوريني. هل سمعتَ باسمه من قبل؟

- لا. أينبغي؟

- ذائع الصيت في توسكانا. من أسرة نبيلة، من سيينا. لكنّي سألتُك بشكلٍ عامّ، لا أهمّيّة لذلك. أمّا المهمّ هو أنّ دامي تامبوريني هذا هو رفيقي في مباريات التنس المزدوجة ما فوق المئة عام، رجلٌ كان لي أن أسمّيه صديقي المقرَّب حتّى ليلة أمس.

- ما فوق المئة عام؟

- أقصد مجموع أعمار اللاعبين. وهنالك لاعبون أقوياء.

- آه...

- بالمحصّلة، يخبرني هذا الصديق القديم بأنّ دامي تامبوريني يريد القضاء عليّ. وكانت ميرايجيين مصابة بالحمّى، وكنتُ متردّدًا جدًّا حيال الذهاب من عدمه، ليلة أمس. فما الذي يفعله المرء بوضعٍ كهذا، في رأي حضرتك؟

- ما الذي يفعله؟

- يشدّ الرحال ويغادر، هذا ما ينبغي فعله. ثمّ يحاول في اليوم اللاحق، على رويّة، أن يتبيَّن كيف تجري الأمور. صحيح؟

- صحيح.

- يحاول أن يفهم إن كان رفيقه الرياضيّ قد عزم على تكليف مقامرين محترفين لتدميره أم لا. ثمّ، إذا تأكّد، يفهم لماذا. بدمٍ بارد، أليس كذلك؟ بهدوء.

- صحيح.

- أنا لا.

- هل بقيت؟

- بقيتُ للمقامرة، نعم.

- وفزتَ بذلك الرقم الخياليّ.

- نعم.

- وهل فزتَ به على رفيقك الرياضيّ أم على صديقك القديم؟

- على رفيقي الرياضيّ، الذي أراد القضاء عليّ. لكنّي كدتُ على شفا الإفلاس. على شفا الإفلاس.

- ماذا يعني؟

- أي وصلت بي الحال أنّي لعبتُ على رقمٍ لم أكن أملكه.

- كم؟

- لن أخبرك بذلك، أخجل. رقمٌ لم أكن أملكه، ولا أملكه، وكانت حياتي ستخرب كلّيًّا لو أنّي خسرتُه.

- لكنّك لم تخسره.

- لا. شابّ الديناريّ ضدّ شابّ البستونيّ.

- ماذا كنتم تلعبون؟

- تكساس هولدلم.

- وما هي؟

- البوكر على طريقة تكساس.

- وهل يختلف كثيرًا عن البوكر العاديّ؟

- معقّدٌ أكثر. يُلعَبُ ببطاقتين محتجبتين لكلّ لاعب، زائد خمسة أشرعة، أي خمس بطاقات مشتركة.

- تشبه التيليزينا.

- أجل، تقريبًا.

- تيليزينا أم تيريزينا؟ لم أفهم هذا يومًا.

- أعتقد تجوز الكلمتان. لأنَّهما تحريفان إيطاليّان لكلمة «Tennessee»، وهو الاسم الأمريكيّ للعبة.

- حقًّا؟

- أجل. في أمريكا يختلف البوكر باختلاف الولاية التي يُلعَبُ فيها. ولعبة تكساس هذه هي التنويعة الأكثر انتشارًا. وقد صُمِّمَت بعناية للتحكُّم بالأرباح والخسائر، حتّى لا يُقضى على الناس، مثلما يحدث عادةً في التينيسي. لكنَّها تعطَّلت ليلة أمس. ليلة أمس كدتُ على شفا الإفلاس.

- لكنّك فزت فيما بعد.

- أجل. وقُضِيَ على دامي تامبوريني. بدأ يخسر ويطالب بإعادة اللعب لكي ينهض، ويستأنف اللعب، مرّةً تلو مرّة، وفي النهاية بقيتُ أنا وهو، فهذا أمرٌ خاصٌّ بيننا، حسابٌ شخصيّ. ولم أكفّ، ولم أتوقّف. وفي ظرف عشرين دقيقة، بل أقلّ، خلال ربع ساعة فزتُ عليه بمبلغٍ طائل.

- كم؟

- أخجل من الكشف عن هذا أيضًا.

- ولماذا؟ إن كنتَ لستَ حضرتك الذي خسره.

- لم أخسره لكنّي مسؤولٌ عنه عمومًا.

- كم؟

- ثمان مئة وأربعون ألفًا.

- يا لطيف!

- أجل، لكثرة مضاعفة المال...

- وهل يحوز صديقك هذا على كلّ هذه الأموال؟

- بالطبع يحوز. عائلته تمتلك مصرف أعمال، أراض، نبيذ، مياه، عقارات... لكنّي رفضتُها. لهذا السبب اتّصلتُ بك.

- كيف رفضتَها حضرتك؟ لماذا؟

- لأنّها أموالٌ كثيرة جدًّا! غير معقولة! كان هناك كاتب العدل أيضًا، يبقى هناك بالخدمة دومًا في حال وجود خسائر ضخمة، ولم يعرف ماذا يفعل.

- يعني، فزتَ ثمان مئة ألف يورو ورفضتَها؟

- ثمان مئة وأربعون ألف يورو. أجل.

- اللعنة...

- هل تعتبرني مجنونًا؟

- لا. سوى أنّ الأمر غير مألوف.

- رفضتُ المال لكنّي طالبتُ بشيء في المقابل.

- وبم طالبت؟

- انظر، دكتور كارّادوري. كان الفجر قد طلع. وميرايجيين نائمة على المضجع في الغرفة المجاورة، مترعةً بالتاكيبيرين. وأنا كنت هناك، منهكًا، صحبة أربعة آخرين منهكين أكثر منّي. وفي غضون ساعتين كان عليَّ أن أكون في المستشفى. وهناك على الطاولة يتمثّل خراب مَن كنتُ أعتبره صديقًا لي قبل ذلك بستّ ساعات...

- وإذًا؟ بم طالبت؟

- إضافةً إلى أنّني كنت أشعر بالعار من كلّ شيء. من أنّي ذهبتُ للعب مع أنّ ميرايجيين مصابة بالحمّى. من أنّي لم أعد إلى البيت عندما قيل لي بأن أعود. من أنّي استكلبتُ عندما كنتُ أخسر، ولم أتوقّف مثلما أفعل بالعادة. من أنّي استكلبتُ أكثر عندما بدأتُ أفوز، أفوز، أفوز، حتّى بلغتُ ذلك الرقم الخياليّ.

- حسنًا، هذا بسبب الصدمة. ولكن بم طالبتَ حضرتك؟

- كنت أشعر بالعار من أنّي مقامر، لا بل من أنّي ما كنتُ عليه، ومن مجريات حياتي. من أنّي خسرتُ كلّ الأشخاص الذين أحبّهم، ولأنّ جميعهم رحلوا بطريقةٍ أو بأخرى، دكتور كارّادوري، ولم يبق أحد...

- قلنا إنّ هنالك الطفلة.

- كنت أشعر بالعار حتّى منها، مركونةً على مضجع، كنت أشعر بالعار من *أجلها:* شعرتُ بالعار وأشفقتُ على نفسي، إشفاقًا عميقًا، رهيبًا. وأقدمتُ على فعل ما لا يفعله المقامر.

- ما الذي أقدمتَ عليه؟

- قلت هذه الأشياء نفسها التي أقولها لحضرتك الآن، لأولئك التعساء الأربعة الذين كانوا بالتأكيد يشعرون بالعار مثلي. وأضفتُ أشياء أخرى أيضًا، أشياء لا تقال بالعاد على طاولات القمار، مع أنَّ الجميع يشعر بها.

- وهي؟

- قلتُ إنّني بينما كنتُ أفوز تلك الأموال كانت الحياة التي أعيشها كلَّ يومٍ تغدو أشدَّ بؤسًا. كنت أفوز خمسين ألف يورو وأفكّر أنّني سأشتري بها سيّارة جديدة، لأنّ التي كانت لديّ موقتًا كانت عبارة عن خردة. لكنّي لم أفكِّر يومًا أنّها خردة. أتفهمني؟

- أفهمك.

- وهذا تقليدٌ اعتياديٌّ عند اللاعبين: أن يشمئزّوا من حياتهم، ويفكِّرون بتغييرها بأرباح القمار، مع أنّني في الواقع لم تكن عندي تلك الرغبة إطلاقًا. كنتُ فوق مئتي ألف يورو ورأيتُ نفسي في المالديف، أو بولينيزيا، في أماكن الأبّهة التي لم أرغب في الذهاب إليها في الواقع إطلاقًا. أربعمئة ألف، فإذا بي أرى مرافَقة، وخدمًا، وطبّاخين، وسائقين، ومربّيات أطفال، كما لو أنّ هذه الأمور تنقصني، كما لو أنّي لم أكن أرغب إلّا في الكفّ عن الاعتناء بنفسي وبميراجيين. ستمئة ألف، وها أنا أراني أتوقّف عن العمل وأحال إلى التقاعد، كما لو أنّ عملي، الذي أمارسه من خمسة وثلاثين عامًا، والذي ضحيّتُ من أجله وكرَّستُ له جلَّ وقتي، يغدو على حين غرّة مقرفًا بالنسبة إليّ. لكنّ هذا غير صحيح. لا أقرف من الحياة التي أعيشها، بل إنّها تعجبني، لأنّ لحياتي هدفًا، بخلاف حيواتٍ أخرى، والهدف هو أن أمنح العالم رجل المستقبل، الذي أوكلت إليّ مهمّة تربيته بامتيازٍ عظيمٍ وأليم.

- هل قلتَ كلّ هذه الأشياء؟

- نعم. وفي النهاية قلتُ ما يعرفه جيّدًا كلُّ مقامر، وهو أنّه من غير الممكن استخدام أموال القمار بالطريقة السليمة. وإنّي من أجل كلّ هذه الأسباب أرفض الحصول على هذه الثماني مئة وأربعين ألفًا.

- وصديقك؟ والآخرون؟ ماذا قالوا؟

- راحوا يبكون جميعًا. أقسم لك. أرادوا إبكائي، فأبكيتُهم. ولكن ليس من الألم، أبكيتُهم من التأثُّر. الأمر مفرطٌ في بكائيّته، لكنّه الوحيد الذي لم يشعرني بالعار.

- وبم طالبتَ عوضًا عن المال؟

- طالبتُه بإرجاع أرشيف أمّي الفوتوغرافيّ. كنتُ قد تبرَّعتُ به لمؤسّسة تابعة لدامي تامبوريني هذا، وهذه قصّة طويلة أيضًا، سأوفِّرها عليك. تبرّعتُ بالأرشيف لمؤسّسة مرتبطة بمصرفه، قبل أعوام، وطالبتُه بإرجاعه.

- ولماذا؟

- لأنّني، وبعد تلك الأحزان التي انصبّت عليّ، بدا لي فجأةً أنّني أرى الأشياء كما هي أخيرًا. أدركتُ أنّ الشيء الثمين الوحيد الذي يملكه ذلك الرجل هو الأرشيف الذي أهديتُه له.

- أحسنت.

- لم أكن قد تبرّعتُ بتلك الصور، بل لقد تخلَّصتُ منها. بذريعة أنّني أهبها لمن يعطيها قدرها أكثر منّي. لقد فرَّطتُ بما تركته أمّي في داخلها، أثر مرورها على هذه الأرض. سأستعيده غدًا. هذا ما ربحتُه ليلة أمس.

- ألم تندم حضرتك؟

- ولا حتّى بالأحلام. اسمعني حضرتك، أنا ليس لديَّ مشاكل اقتصاديّة. لطالما أحببتُ العمل، ولم أرغب يومًا أن أعيش على راتب التقاعد. تلك الأموال هي اللعنة، بالنسبة إليّ. والقمار، حماقة مراهقين لم أشفَ منها، وما زالت تهدِّدني. وقد حملتُ هذا التهديد معي طوال حياتي، لكنّني هذه الليلة رأيتُ هذا التهديد كما هو. رأيتُ كلّ شيء كما هو، هذه الليلة. والأشياء كما هي. وفكّرتُ أن أخبر حضرتك بذلك.

- أحسنتَ صنعًا.

- والآن أستودعك. جعلتُك تضيّع وقتًا طويلًا.
- على العكس! أحسنتَ صنعًا بالاتّصال بي.
- أشكرك، دكتور كارّادوري. آمل أن أراك قريبًا.
- سآتي لزيارتك. ولعلّها فرصة لتريني صور والدتك.
- بكلّ سرور. صورٌ رائعة.
- واثقٌ من هذا.
- إلى اللقاء، دكتور كارّادوري.
- إلى اللقاء، دكتور كارّيرا.

أخيرة (2018)

لويزا لاتّيس

23، شارع دكتور بلانش

75016 باريس

فرنسا

فلورنسا، 27 ديسمبر 2018

عزيزتي لويزا،

ها أنا أردّ. وربّما كنتِ واثقة من أنّني سأردّ هذه المرّة: كلامكِ عن الطنّان، عن الإيمّينالجيا، عن أسباب عدم بقائنا معًا والتي لا يمكن لها أن تسقط في العدم. لكنَّ هذا لا يعني أنّني أنوي استئناف الكتابة إليكِ. الشيء الواضح في ذهني هو أنّني لا أستطيع أن أسمح لنفسي باستئناف أيّ شكلٍ من أشكال العلاقة معكِ.

وعلى وجه الخصوص، بمناسبة الحديث عن التحرُّك والثبات، ألاحظ أنّكِ غيَّرتِ بيتكِ من جديد. لماذا؟ هل انفصلتِ عن الفيلسوف اليهوديّ أيضًا؟ وإن كان كذلك، فلماذا؟ أم إنَّ هذا عنوان مكتبكِ؟ وإن كان كذلك، فلماذا استأجرتهِ بعيدًا جدًّا عن بيتكِ؟ لا يسعني تصوُّر فرضيّات أخرى، بما

أنّي أستبعد أنّكما ببساطة انتقلتما وبقيتما معًا: لا يسعني تصوُّر أنَّ فيلسوفًا يهوديًّا لطالما عاش في منطقة ماريه، مثلما وصفتِهِ لي أنتِ، يقرّر ذات يوم أن ينتقل ليسكن في الدائرة السادسة عشرة.

والحال أنّه يسهل علينا أن نتفهَّم وجود سببٍ وراء التحرُّك، في حين أنّه من الصعب أن نتفهَّم وجود سببٍ أيضًا وراء الجمود. لكنَّ هذا عائدٌ إلى أنَّ عصرنا تدريجيًّا أضفى قيمةً كبرى للتغيير، حتّى لو كان هدفًا في حدّ ذاته، فالتغيير هو ما ينشده الجميع. فما عاد باليد حيلة، وفي نهاية المطاف صار مَن يتحرَّك شجاعًا ومَن يثبت جبانًا، مَن يتغيَّر مستنيرًا ومَن لا يتغيّر بليدًا. هذا ما قرّره لنا عصرنا. لذا يسعدني أنّك انتبهتِ (في حال فهمتُ رسالتك جيّدًا) إلى وجوب الشجاعة والطاقة حتّى إذا صمَّمنا على البقاء ثابتين.

أفكّر فيكِ. كم انتقالًا أجريتِ؟ كم عملًا غيّرتِ؟ كم قصّة حبّ، وزواج، ومصاحبة، وأبناء، وإجهاض، ومنازل ريفيّة، ومنازل شاطئيّة، وعادات، وهوايات، وآلام، ومتع، حصلت في حياتكِ؟ لو توقّفنا على ما أعرفه أنا حصرًا، لويزا، وهو ليس بالجزء اليسير طبعًا، فسنكون بصدد أرقامٍ خياليّة. كم هدرتِ من الطاقة لكلّ هذا؟ الكثير. ثمّ تجدين نفسكِ في سنّ الثانية والخمسين تكتبين لي بأنّني - نعم - بقيتُ ثابتًا تقريبًا.

أقول «تقريبًا» لأنّ حياتي أيضًا شهدت عديدًا من التغييرات، كما تعرفين: صدماتٌ رهيبة نحّتني عن النقطة التي نويتُ البقاء عندها، وتركتني خائر القوى.

كلُّ التغييرات التي عرفتُها، لويزا، كانت نحو الأسوأ. أعلم جيّدًا أنّ الأمر لا يسري على الجميع، لا بل إنّ مخيّلتنا حافلةٌ بالحكايات النيّرة، البنّاءة، والتغييرات العنيدة التي اتُّبِعَتْ فحسَّنَت حياة الأشخاص، وحياة الجماهير ولا أبالغ. لن أضيّع الوقت بتعداد أيٍّ منها. لكنّ الأمور جرت لي على نحوٍ مغاير.

لا أؤدّي دور الضحيّة، لويزا: كلّ ما في الأمر هو أنّني حتّى أنا لم أبق ثابتًا، وليتني أفلحتُ. ليت الموضوع كان راجعًا إليّ، لكنّ ذلك لم يكن ممكنًا، فكلٌّ من التغييرات التي تعرّضتُ لها أسفرت عن صدمةٍ فظيعة، نحّتني بِرُمَّتي، وساقتني حرفيًّا إلى حياةٍ أخرى، ثمّ إلى أخرى، ثمّ إلى أخرى، وتوجَّبَ عليَّ التكيُّف مع هذه الحيوات بعجالة، وبلا تحضير. هل تتخيَّلين مدى انشراحي بالحفاظ على أكبر قدرٍ ممكنٍ من الأشياء؟

أجل، أنا كذلك أعتقد أنّكِ لو تمكّنتِ من الثبات لكان بوسعنا البقاء معًا. لكنَّ القدر هو القدر، وإن كنتُ أنا الطنّان، فأنتِ الأسد أو الغزالة في هذا القول المأثور الذي لطالما أزعجني بصراحة: «أوصيك بالنهوض كلّ صباح ومباشرة الركض أيًا تكن، أسدًا أم غزالًا».

أنا الآن لديّ مهمّة وعليَّ إنجازها، ستعطي معنى لكلّ ما كان لديّ ولم يكن لديّ، بما فيه أنتِ: الاعتناء بالإنسان الجديد، والإنسان الجديد هو طفلةٌ عمرها ثماني سنوات تنام تحت سقفي. ستصبح امرأة. ستصبح الإنسان الجديد. وما ولدت إلّا من أجل هذا، ولن أسمح للتغييرات أن تقضي عليها. ليس لديّ قوّةٌ إلّا من أجل هذا، ومن أجل الردّ عليكِ هذه المرّة. يؤسفني يا لويزا، هذه هي الرسالة الأخيرة التي سأكتبها إليكِ. لقد أحببتكِ جدًّا، بالفعل، طوال أربعين عامًا كنتِ الشيء الأوّل والأخير الذي فكّرتُ فيه في كلّ يومٍ من حياتي. لكنّ الوضع اختلف الآن، لأنّ أولى أفكاري لها، وآخرة أفكاري لها أيضًا، وما بين هاتين الفكرتين لا وجود إلّا لأفكارٍ أخرى لها. لا يمكنني العيش إلّا هكذا، الآن.

أعانقكِ

ماركو

الإنسان الجديد (29-2016)

ثمّة كائناتٌ تضني أنفسها طوال حياتها بهدف التقدُّم، والمعرفة، والتملُّك، والاكتشاف، والتحسُّن، لتفطن لاحقًا أنّها لم تكن تبحث إلّا عن الاهتزاز الذي أودى بهم إلى هذه الحياة: بالنسبة إلى هؤلاء، تتقاطع نقطة الانطلاق بنقطة الوصول. وهنالك كائناتٌ أخرى على الرغم من ثباتها تقطع طريقًا طويلة محفوفة بالمخاطر لأنّ الحياة هي التي تنزلق تحت أقدامهم، فينتهي بهم المطاف بعيدًا جدًّا عن النقطة التي انطلقوا منها: ماركو كارّيرا واحدٌ من هؤلاء. بات الأمر واضحًا: لحياته هدف. ليست كلّ الحيوات لها هدف، حياته كان لها هدف. والوقائع الأليمة التي أثّرت في حياته كان لها هدفٌ أيضًا، لم يقع له شيء عن طريق الصدفة إطلاقًا.

لم تكن حياته عاديّة، لا شكّ في هذا: إذ كان متّسمًا على الدوام بسمة الاستثناء، بدءًا بالقزامة التي أبقته خارج السرب مدّة خمسة عشر عامًا، ليتّبع العلاج الذي أعاده إلى السرب، وأثمر فيه نموًّا متفوّقًا للغاية، وفي وقتٍ وجيزٍ للغاية، أقصر ممّا توقَّعَ الطبيب نفسه الذي تولّى علاجه. لم يضنِ أحدٌ روحه لاكتشاف السبب، إلّا أنّ العلاج الذي خضع له ماركو في خريف العام 1974 أسفر عن نتائج فوق العادة: ستّة عشر سنتمترًا خلال ثمانية أشهر، فقفز طوله من متر وستّة خمسين في أكتوبر (متوسّط الطول عند الذكور من عمره كانت مترًا وسبعين) إلى متر واثنين وسبعين (أي بلغ متوسّط الطول) في يونيو اللاحق عندما توقَّفَ النموّ بشكلٍ مفاجئ. لا بل عندما استقرّ النموّ بالأحرى في القياس الصحيح من متوسّط طول أقرانه:

متر وأربعة وسبعون في عامه السادس عشر، متر وستّة وسبعون في السابع عشر، متر وثمانية وسبعون في الثامن عشر، وسنتمتر أخير في العام التالي، ليحمله عند أعتاب الرشد إلى ما فوق متوسّط الطول الوطنيّ.

تفسيرات، لا توجد. كان الدكتور فافاسوري يتوقّع ما لا يربو عن ثلثي تلك النتيجة خلال خمسة عشر شهرًا لا ثمانية. أي الطول الذي كان سيحوّل ماركو كارّيرا من قزم إلى فتى قصير طبيعيّ. أمّا ليتيتزيا، الوفيّة دومًا لبراهين دارسي وينتوورث ثومبسون، أيقنت أنّه لا شأن للعلاج، وأنّ ابنها كان سيتمكّن من إحراز تلك الطفرة بكافّة الأحوال، بفضل الإرشادات المنقوشة في شيفرته الجينيّة: بكلّ بساطة، كان كلُّ شيء مكتوبًا في فطرته منذ البداية، النموّ غير الكافي أوّلًا، ثمّ الشعلة الباهظة، ثمّ (وهذا هو الأغرب، والذي ترى أنّه لا يمكن تفسيره إلّا بوساطة ثومبسون) انتظام قياسه البشريّ التقليديّ. بخلافها كان بروبو منقسمًا: فمن جهةٍ كان مبتهجًا بنجاح المحاولة، التي أرادها هو بأيّ ثمن، لكنّه من الجهة الأخرى كان يتساءل ما إذا كانت النتيجة المختلفة كلّيًّا عن التوقُّعات، وإن أفضل، لا ينبغي اعتبارها إخفاقًا؛ أي أنّها لا تعني فقدانًا تامًّا للسيطرة على العلاج المطبَّق على جسد ابنه - بأيّ نوعٍ من التداعيات المحتملة. فتخوَّفَ، وظلَّ متخوِّفًا منذئذ فصاعدًا (مع أنّ هذا التخوُّف فَقَدَ كثافته، مثلما حلَّ ببقيّة الأشياء إثر وفاة إرينه) ظلَّ مِتخوِّفًا من وجوب اكتشاف الثمن الذي سيدفعه بتلك المراهنة مع مرور الوقت. عقم، أمراض انحلاليّة، أورام، تشوُّهات: ماذا لو في يوم X، لا على التعين، في المستقبل، عندما لن يذكر أحد ذلك العلاج، ماذا لو أنّ الشيء الذي جعله أكثر فاعليّةً من المتوقّع، يورِّط ابنه بفاتورةٍ لا يقوى على سدادها؟ طرح هذا السؤال على الدكتور فافاسوري، فأجاب فافاسوري أنّه بناءً على تطبيق علاجٍ تجريبيّ فإنَّ مخاطر الأعراض الجانبيّة غير المتوقَّعة، حتّى لو ظهرت متأخّرة،

كانت مأخوذةً بالحسبان، حتّى لو لم تكن منصوصةً بالتفصيل في الوثائق التي وقَّعَ عليها بروبو: إلّا أنَّ نجاحًا يفوق التوقّعات قد يؤدّي إلى تلك المخاطر، فهذا تخوُّفٌ غشيم، برأيه، وفيه من البارانويا ما فيه. وبالمناسبة، لم يتلقَّ بروبو وصمة البارانويا من قبل على الإطلاق.

في حين أنّ ماركو، من جانبه، ذُهِلَ بنموٌّ قامته، ولم يتسنَّ له الوقت للتفكير بشيء. فقد رفض جسده في السابق أن ينمو رفضًا قاطعًا، فإذا هو ينمو آنذاك بعنفوانٍ أشدّ: كان يسكن تلك الظاهرة، إن صحَّ التعبير، ويحاول أن يتبع إيقاعها. طالت قامته بين نوفمبر ويونيو سنتمترين بالشهر - ما يعني كيلو ونصف بالشهر، أو نصف مقاس إضافيّ للحذاء بالشهر - وكان في هذا انشغاله الوحيد. لم يتخوَّف، لم يُذعَر، لم يخجل، لم يفقد صبره، لم يفرض شروطًا: سلَّمَ أمره بالأحرى لتلك الثورة مُبديًا لدونةً ومرونةً سوف تعينانه في المستقبل، في اللحظات العصيبة، على الصمود. وثب جسده باندفاعٍ نحو المراهقة، ومن طفلٍ تحوَّلَ في غمضة عينٍ إلى شابٍّ ناضج، لكنّه لم يرضخ لصدمة هذا التحوُّل لأنَّه كان يعلم أنّ الهدف من العلاج هو إجراء هذا التحوُّل تمامًا. وبعد بضعة أعوام، أصبح لقب الطنّان الذي رافق هويّته ذكرى من الماضي، مثلها مثل غيرها.

لكنّه، انطلاقًا من تلك التجربة، ما انفكّت حياته تتدحرج بالطريقة نفسها: إذ إنّها بقيت تراوح مكانها بينما تمضي حيوات الآخرين إلى الأمام، ثمّ تثور فجأةً بحدثٍ استثنائيٍّ ومرتجل لتقذف به إلى مكانٍ جديد ومجهول. وما فتئ ذلك الانتقال ينتج الألم، وبات السؤال الذي يهدّده حينذاك، بثقله المكوَّن من الغضب وأداء دور الضحيّة، هو: لماذا أنا بالذات؟ لماذا أنا بالذات؟

من بين الخدم الستّة الصادقين في أبحاثنا (مَن، كيف، متى، أين، ماذا، لماذا) غالبا ما يترتَّب على *المتى* فصل النجاة عن اللعنة: لم يطرح ماركو كارّيرا

ذلك السؤال على نفسه قبل أن تتوفَّر لديه الإجابة، ومن أجل هذا فحسب استطاع هو الذي رغب بالبقاء ثابتًا أن يتقدَّم كثيرًا كثيرًا، بشكلٍ مؤلِمٍ للغاية، وبلا سقوط. وفي اللحظة المواتية فقط، أي أحلك اللحظات ظلمةً، أنير عقله: كلُّ شيء، كلُّ شيء ما وقع إلّا لهدفٍ مّا، فوصل الجواب - بسيطًا، دقيقًا ومفعمًا بالطهارة: ميرايجيين. كانت ميرايجيين هي الإنسان الجديد، ولطالما كانت كذلك، منذ أن حبلت بها أمّها. لقد ولدت لتغيِّر العالم، وقد مُنِحَ ماركو كارّيرا شرف تربيتها.

لم يكن هذا الأمر موضع نقاش، طالما كانت آديلي على قيد الحياة. فهي كانت تقوله باستمرار، ولا يعترض عليه ماركو، بل كان يردِّده وراءها أيضًا، ستكون الإنسانيّة على موعدٍ مع انطلاقةٍ جديدة مع هذه الطفلة، الإنسانيّةُ ستبدأ من جديد مع ميرايجيين - حتى لو كان في واقع الحال يفعلها في سبيل مطاوعة ابنته، مثلما كان يلعب مع خيطها الموصول بظهرها، منذ أعوامٍ بعيدة. باختصار، كان يفكِّر أنّ هذه الفتاة عانت الأمَرَّين، ولعلّ هذه هي الفانتازيا التي تعينها على الصمود: القدر يصفعني، وأنا، بالمقابل، أَلِدُ الإنسانَ الجديد...

لكنَّ آديلي رحلت باكرًا جدًّا، ولم يكن ماركو مستعدًّا تمامًا لخوض هذا الفراغ: ففعل مثلما فعل في الماضي - دون أن يقرّر، وهذه المرّة دون حتّى أن ينتبه - ظلّ واقفًا على قدميه، ببساطة، في فوّهة البركان الساخن حتّى إنّه سكن فيه، لكنّ ذلك لم يعد يكفي. فلكي لا ينال منه اليأس كان في حاجةٍ إلى قوّةٍ أكبر بكثير ممّا كان يشعر أنّه يختزنها، وعزيمةٍ أكبر. ففي البداية، ولفترةٍ معيّنة، عاش بوحشيّة، متَّبعًا نصائح الدكتور كارّادوري. عاش بوحشيّة، نعم، لا يشغله سوى الاعتناء بميرايجيين وقضم ما تبقّى لديه من حياة. لم يكن أنموذجًا يحتذى في تمريض الرُّضَّع بالتأكيد، لاسيّما في الليالي التي

أمضاها في القمار بينما الطفلة غافية في المضجع، لكنَّه أفاد من ذلك لإنجاز الخطوة الحاسمة، أي الفهم.

غمره التنوير عندما أنجز شيئًا يصعب تفسيره، إذ فرَّطَ بمربحٍ خياليٍّ متدفِّقٍ من نزالٍ دمويٍّ في البوكر ضدّ صديقه دامي تامبوريني. ها هي، حانت اللحظة المواتية لطرح التساؤلات، كلّ التساؤلات، حتّى أشدّها إيلامًا - اللحظة المواتية للخضوع لأشدّ الخدم الستّة الصادقين إلزامًا: *لماذا*؟ وفجأةً يصبح كلُّ شيء واضحًا، ويصبح كلُّ الألم المحسوسِ في الأعوامِ الفائتة حجرَ أساسٍ متينًا يشيد عليه العالمُ الجديد، وتصبح كلُّ الذكريات مصيرًا، والماضي مستقبلًا. لماذا أنا بالذات، أفرِّط بكلّ تلك الأموال؟ لماذا أنا بالذات، أنجو من كارثة جويّة؟ لماذا أنا بالذات، أفقد شقيقةً بتلك الطريقة؟ لماذا يحدث الطلاق لي أنا بالذات بتلك الصورة البشعة؟ لماذا أنا بالذات، أضع نهايةً ملموسةً لحياة والدي؟ لماذا أنا بالذات، أدفن ابنةً في مقتبل العمر لم تتجاوز عامها الثاني والعشرين؟

اختمر الجواب حينئذ، وانبثق ذلك الاسمُ بغتةً في حياته - ميراجيين - والأفكارُ التي ردَّدتها آديلي مرارًا، بجدّيّة، وتصميم، ودون أدنى شكّ: إنّها الإنسان الجديد، يا بابا، ستبدأ الإنسانيّة معها من جديد. صار ماركو كارّيرا عندئذٍ يؤمن بذلك حقًّا. لقد عانى كثيرًا، صحيح، من أجل غايةٍ سامية: أن يسلِّم الإنسان الجديد للعالم - ولكن ليس قبل أن يصبر على مقاليع الدهر اللئيم وسهامه[1]، على حدّ قول هاملت. نُحِتَت تلك الفكرة المتشدِّدة بإتقانٍ في وجوده القنوع والزاخر بالألم، بل بمعنىً مّا قد أتمَّت وجوده – لذا سرعان

(1) «أأكون أم لا أكون؟ ذلك هو السؤال. أمِنَ الأنبل للنفس أن يصبر المرء على مقاليع الدهر اللئيم وسهامه، أم يشهر السلاح على بحرٍ من الهموم»؛ الفصل الثالث، المشهد الأوّل، «هاملت»، المآسي الكبرى، وليم شكسبير، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا. (المترجم).

ما كفَّت عن كونها فكرةً متشدّدة.

عمومًا، كانت الطفلة مميَّزةً فعليًّا. كان يزهر في جسمها جمالٌ غير مسبوق يومًا بعد يوم، تحتكره حتّى تلك الساعة شخصيّاتُ الأفاتار في ألعاب الفيديو: أطول قامة ممّن في جيلها، ممشوقة، شعرها مجعّدٌ وفي منتهى النعومة، بشرتها بنّيّةٌ داكنة، وعيناها اللوزيّتان زرقاوان كقاع مسبح - لكأنّها مجمَّعةٌ من خيارات القائمة حقًّا. وكانت عيناها بالضبط ما يقول لماركو كارّيرا كلَّ يوم إنّ حفيدته لم يسبق لها مثيل حقًّا: فبصفته طبيب عيون وباحثًا في الجهاز البصريّ منذ أربعين عامًا، موقنًا بأنّه رأى كلّ أنواع العيون الموجودة في الطبيعة، شعر أمام عيني ميرايجيين أنّه كرائد الفضاء الذي يرى كوكب الأرض من الفضاء للمرّة الأولى. كان قد رأى شيئًا مشابهًا قليلًا، وصوَّرَه، عند قطٍّ من فصيلة الراغدول ذي الوبر الطويل لإحدى صديقاته الأمريكيّات، اسمه (القطّ) جاغر، فبحث عن تلك الصورة في أرشيفه فعلًا، ووجدها (عائدة للعام 1986)، وطبع جزءًا من الصورة يحدِّد العينين، إذ التقطت الصورة بينما تركِّز العينان كلّيًا على العدسة: ولكن حتّى تلك الصورة لا تعبِّر عن الفكرة، لأنّ القطّ جاغر كان أبيض، في حين أنّ ميرايجيين سوداء.

وعلى الرغم من غرابتها، كانت ميرايجيين مألوفة لديه بشكلٍ كبير. فالكثافة الزرقاء في تلك العينين الفريدتين في العالم، على سبيل المثال، مماثلةٌ لعيني إرينه - وهذه ضربةٌ كبرى أساسًا. وجسمها الرياضيّ الجميل الذي يتطوَّر بانسجامٍ عامًا تلو عام يشبه ما رآه ماركو في جسد آديلي. والغمّازة في الوجنتين عندما تضحك هي غمّازة جاكومو - تختلف عنه بأنّها لا تبدو آيلةً للاختفاء كلّما كبرت في السنّ. لكنّ أكثر ما يؤثّر فيه من الجسد الفضائيّ لميرايجيين هو الشامة الدقيقة في العمق ما بين الخنصر والبنصر من اليد اليمنى، مطابقةً للشامة التي كانت لدى آديلي ولديه أيضًا: غير مرئيّة، تلك

النقطة الصغيرة هي ماركة آل كارّيرا - وكم مرّةً عَشَّقَ يده بيد آديلي اليمنى لتتشابك الشامتان، ليس عندما كانت صغيرة فحسب بل حتّى فيما بعد، فهذه الحركة هي «نقطة قوّتهما»، يقولان، وقد أقدما عليها حتّى عندما كانا في حوض المستشفى حين جاءت ميرايجيين إلى الحياة. والآن بإمكان ماركو كارّيرا أن يستمرّ بتلك الحركة مع ميرايجيين، لأنّ تلك الشامة الصغيرة، في خضمّ العاصفة الجينيّة التي تفجّرت لإنجابها بهذا الشكل *الجديد*، تمكّنت من البقاء.

ولكنْ، أكثر من المظهر الجسمانيّ، الذي يمنح تجسيدًا حرفيًّا لألمع طوباويّات الاندماج بين الشعوب، فإنّ أشدّ الأشياء إذهالًا في هذه الطفلة أنّها تفعل الشيء الصحيح دائمًا. دائمًا، منذ أن كانت رضيعة ولا تبكي إلّا عندما يجب أن تبكي، وتنام عندما يجب أن تنام، وتتعلّم ما يجب أن تتعلّمه، فورًا، ما يجعل الاعتناء بها سهلًا جدًّا. ولم تتبدّل هذه الميزة حين كبرت، تفعل الأشياء كاللازم، في الوقت اللازم، ولا يخلو الأمر من مفاجأة أو تصرُّف شاذٍّ عن القاعدة بين حينٍ وحين، صحيح، ولكن ليس سوى لأنّ أمّها، أو هو، أو المعالج، أو المعلّمات، أو الأساتذة، يرونه *تحسينًا* للقاعدة. وبتحليل هذه الظاهرة تمامًا اقتنع ماركو كارّيرا بأنّه مُقدَّرٌ على ميرايجيين فعلًا أن تغيّر العالم: لأنّه في الواقع ليست كلّ تصرّفاتها الشاذّة عن القاعدة تحسينًا لها، وفي الواقع أحيانًا هي مجرّد طريقة مختلفة لصنع الأشياء، إلّا أنّك إذا رأيتَها منها تبدو لك تحسينًا. بمعنى أنّها بوجهها الأملس، وعينيها الهالوجيّتين، وصوتها المصقول، وتعابيرها وابتسامتها وغمّازتها - جسدها كلّه، في الحقيقة، على الرغم من أنّه ما يزال صغيرًا وموقتًا، يمتلك طابع القادة. هو أحد تلك الأجسام التي تتكوّن موهبته الطبيعيّة من الإقناع. أحد تلك الأجسام التي يميل الآخرون إلى تقليدها.

ما من تجربةٍ دخلتها ميرايجيين إلّا ووجدت فيها المسلك القويم منذ المحاولة الأولى. في الرياضات، كلّ تلك الرياضات التي جرَّبتها، من التنس إلى الجودو، لم يكن هناك مدرِّبٌ إلّا واندهش بموهبتها الطبيعيّة. وفي المرّة الأولى التي قُدِّرَ عليها التعامل مع حصان، ما لبثت أن وقفت وراءه لتداعب ذيله، كلّا، يا غاليتي، لا تقفي وراءه، هذا خطير، قد يرفسكِ لأنّ الأحصنة لا تحتمل الـ....؛ فإذا الحصان، لا بل الفرس (اسمها دولّي، من فصيلة الكوارتر التكساسيّة، عمرها ثلاثة عشر عامًا ولونها كستنائيّ، رقيقة لكنّها عصبيّة وتجمح نحو العضّ، ففي اليوم السابق أسقطت عنها سيّدًا من مدينة آريتسو كان ينوي ركوبها كما لو أنّها عربة بسحب الأعنّة يمنة وشِمالًا، والتي ستمتطيها ميرايجيين بانتظام منذئذ طيلة الأعوام السبعة اللاحقة إلى أن تُترَكَ الفرسُ في المرعى بانتظار تسليم الروح لإله الخيول) تبدي سرورها بها استثنائيًّا وتسمح لها بمداعبة ذيلها – وهذه بحسب المدرِّبة دلالةٌ على توطيد العلاقة معها. أمرٌ مذهل باعتبار أنّها المرّة الأولى التي تدخل فيها ميرايجيين بتواصلٍ مع جنس الأحصنة. وفي المدرسة تفتن المعلّمات بقدرتها على التركيز ورفع مستوى التركيز لدى التلاميذ أجمعين. ترسم بإتقان. وما لبثت أن تعلّمت الكتابة حتّى سارعت إلى تقدير الشدّات والمدّات بطريقةٍ لم يعد يفعلها المعلّمون أنفسهم. والعبارة التي تواصل الظهور في كلّ مرّةٍ تنغمس فيها بشيء معيّن هي: «تبدو أنّها من أجل هذا قد خُلِقَت».

يسألها ماركو عن الأمر، ذات يوم، يسألها: «هل تدركين يا ميرايجيين أنّكِ تجيدين فعل أيّ شيء تجرِّبين فعله؟ كيف تتمكّنين؟» والإجابة هي: «أنظر إلى كيف يفعلها معلِّمي». إذًا فهذا الجسد المهيَّأ سلفًا، والذي يودّ الجميع تقليده، يتمتّع بالكاريزما لأنّه يعرف تقليد الأجساد الأخرى. انغمس ماركو بدوره مرشدًا، وراح يجري التجارب: ذات يوم أراها مباراةً لكرة السلّة

الأمريكيّة NBA على التلفاز، وها هي، بعد أسبوع، تمسك بيدها كرة سلّة، فتتمكّن الطفلة من محاكاة حركات اللاعبين بإتقانٍ شديد - مناورات، قدم ثابتة، رميات - دون أن تعرف قواعد هذه الرياضة. وها هي منذ الدرس الأوّل من التزلُّج على اللوح (الذي تفضّله على التزلُّج بالزلّاجات) تستطيع تقليد حركات معلّمتها بدقّة، لذا تهبط وتنعرج دون أن تسقط. وها هي في الرقص: ماركو لا يحبّ الأطفال الذين يرقصون، يخيفونه، ولكن عليه إجراء التجربة، فبعد أمسيتين من مشاهدة فيديو الفتاة الإيرانيّة التي تتحدّى النظام برقصة الشافل في وسط الطريق، ها هي ميرايجيين تعلّمت رقصة الشافل. وها هي في الموسيقا، على البيانو، سرعان ما لمست مفاتيحه للمرّة الأولى، وطلبت منها المعلّمة عزف شيء لا على التعيين بحيث أن تعزف كلُّ يدٍ نغمةً مختلفة، ها هي تفعلها، تتّجه كلُّ يدٍ إلى تمثّلاتٍ إيقاعيّة مختلفة - عشوائيًّا، نعم، لكنّ كلَّ يدٍ مستقلّة عن الأخرى: إن لم تكن هذه معجزة، تقول المعلّمة، فهي بداية عظيمة، وبالفعل لم تكد تمرّ سنة ليدخل ماركو غرفتها ويسألها ما هذه الأنغام التي كانت تستمع إليها، وهي أنغام «River Flows in You»، تأليف يروما، لكنّ ميرايجيين لم تكن تستمع إليها، إنّما كانت تعزفها. رهيب! وها هو ماركو، آنذاك في الستّين من عمره، لا يشغله شيء سوى مراقبة حركاته وتصرُّفاته، وتعابيره ولغته، مثلما لم يفعل من قبل، باذلًا جهدًا بتنقية ألفاظه من كلّ الرذائل التي، إذا قلّدتها حفيدته، قد تخدش صفاءها. فانطلاقًا منه بالضبط إذًا، انطلاقًا من ماركو كارّيرا، ها هو العالم يبدأ بالتحسُّن.

آهٍ يا ميرايجيين! تسع سنوات! عشر! إحدى عشرة! اثنتا عشرة! ما أجمل تنظيم حفل عيد ميلادكِ، في كلّ 20 أكتوبر، يا للمغامرة في مرافقتكِ في قلب العالم بينما يتدهور العالم! دعي عنكِ الرياضات التي تجيدينها: فمن الهدر أن يُصنَعَ منكِ بطلة. البيانو، الرقص، الرسم، الفروسيّة: خذي منها ما تحبّينه

ولكن لا تتركيها تلتهمكِ، لا تصبحي الطفلة المعجزة، لأنّه مُقدَّرٌ عليكِ أن تكوني أهمَّ كثيرًا. أحسنتِ، لا تنجرّي للتنافسيّة. أحسنتِ، خافي من الاحتباس الحراريّ. أحسنتِ، شاهدي التفاهات على اليوتيوب صحبة صديقاتكِ، وافتعلي خطأ في المدرسة كي لا تتّسع الفجوة بينكِ وبينهنّ. تذكّري أنّكِ الإنسان الجديد، لا يصعب عليكِ شيء، ولكن لا تتميّزي عن الآخرين، لا ينبغي لكِ أن تتركيهم وراءكِ: على العكس، عليكِ أن تَعجليهم يتقدَّمون، وهذا هو الدور الأصعب. ثلاث عشرة سنة، ميرابجيين! منتدى السينما مع جدّكِ، في البيت، كلّ مساء يوم اثنين، الأفلام القديمة تُشاهَدُ على الطريقة القديمة، باستخدام الـ DVD، والتلفاز، وتناول السوشي التي تحضِّرينه بنفسكِ (لأنّكِ بطبيعة الحال ستكونين ماهرةً في الطبخ، وبطبيعة الحال ستعدِّين أطباقًا إيطاليّة وأطباق شعوبٍ أخرى على السواء)، *ليباوسكي الكبير*، *غاتسبي العظيم*، *أحدهم طار فوق عشّ الوقواق*، *دونّي داركو*، *عالم أشباح*، *المجهولون المعتادون*، *المشتَبه بهم المعتادون* (ستسبّب لكِ الملل حتّى الموت لأنّكِ بعد مرور الدقائق الخمس الأولى، وألاعيب المونتاج والسيناريوهات الأوّلية، ستفهمين على الفور أنّ كايزر سوزي هو كيفن سبيسي) أو ستشاهدين على الطريقة الحديثة، بالستريمينج، على التابلت، مع صديقاتكِ، *إجازات الربيع*، *فتيات كايوتي أوغلي*، جيونو، *أنا قبلك*، *ولادة نجم*، أو المسلسلات القديمة، *سترينجر ثينغز*، *بلاك ميرر*، *لا كاسا دي بابيل*، *بريكنج باد* - بكلّ الأحوال لن تشاهديها بالصالة لأنّ مشاهدة السينما بالصالة في طريقها إلى الاندثار، ولن يكون بإمكانكِ فعل شيء حيال ذلك. أربع عشرة سنة! آهٍ يا ميرابجيين، لا تتعجلّي بالانقياد إلى الجمال الذي يندلع، جمالكِ وجمال الفتية من حولكِ، اعطي وقتًا للوقت، وكوني واثقة: ستقعين في الغرام، ستشعرين بالحيرة، ستقولين لا، ستشعرين بالاطمئنان، ستقولين نعم، ستكونين سعيدة، ستكونين سعيدة من جديد،

كلّ شيء سيحدث في أوانه. أحسنتِ، أجِّلي. أحسنتِ، اسأمي، وباشري قراءة الروايات، *الدكتور جيفاكو*، المفضّلة لدى جدّكِ، *مارتن إيدن*، *مرتفعات ويذرنغ*، ملحمة هاري بوتر، أحسنتِ؛ وكتبٌ أخرى لم يسمع بها جدّكِ مثل *حمّى*، *فتيات إلكترونيّات*، *لاروز*، *وقائع العالم المغمور*، ثمّ القصص المصوّرة، المانغا، وبالأخصّ، ما أحبَّته أمّكِ، الـ«Miraijin Chaos»، ولِمَ لا، فقد جاء اسمكِ منها، ثمّ شيئًا فشيئًا تقرأين الملاحم الأشهر لأوسامو تيزوكا، *أسترو بوي*، *العالم التالي*، *دورورو*، وملاحم لكُتّابٍ آخرين، قديمة لكنّها تعتبر حديثة مثل *سايلور موون*، وكم ستعجبكِ *السايلور موون*، وكم كانت تعجب أمّكِ أيضًا، وإذا أبديتِ اهتمامًا بالخيال العلميّ فسوف يتسنّى لكِ النبش بين المجلّدات الثمان مئة والثلاثة والتسعين من سلسلة أورانيا التي جمعها والد جدّكِ، أحسنتِ، أنتِ الإنسان الجديد لكنّكِ ستهتمّين بالاطلاع على أصولكِ، وسينصحكِ جدّكِ عندئذٍ بحكايات هاينلاين، *على الطرقات أن تجري*، *الرجل الذي باع القمر*، سيقول إنّه لم يقرأ أجمل من هاتين الحكايتين في الخيال العلميّ، هو الذي لم يقرأ سوى هاتين الحكايتين عمليًّا، ولكن لا يهمّ لأنّهما ستنالان إعجابكِ، وستعرفين من خلالهما منذ متى ونحن ننتظر الإنسان الجديد، وبكم من الشِّعر والسذاجة حلمنا به آلاف المرّات وتخيّلناه. خمس عشرة سنة، ميرايجيين: لِمَ لا تجرّبين إنشاء قناة خاصّة بكِ على اليوتيوب؟ هيّا، جرِّبي، لن يكلِّفكِ شيئًا! هيّا، تشجَّعي وافعليها! وستقتنعين عندئذ، وسيكون جدُّكِ الذي لطالما ظننتِهِ صارمًا وهو ليس كذلك (لأنّه ما من نفعٍ ولا فائدة من الصرامة مع الأولاد، ما دام الأولاد الذين يحتاجون إليها، مثلكِ يا ميرايجيين، يتّهمون مَن يشاؤون بالصرامة، في حين أنّها تأتي بنتيجةٍ عكسيّة مع مَن لا يحتاجون إليها، لا بل يتحدَّونها)، سيفاجئكِ جدُّكِ بأنّه موافق، وسيشجِّعكِ أيضًا، وستنشئين قناتكِ على اليوتيوب، بل ستبدئين أوّلًا بتنزيل فيديوهاتكِ على اليوتيوب،

الملتَقطة بالجوّال، حيث ستتحدّثين عمّا جعلكِ معروفةً بين أقرانكِ، أي ستتحدَّثين عن أشياء تتقاسمينها معهم، أفلام ومسلسلات تلفزيونيّة ينبغي مشاهدتها، كتب ينبغي قراءتها، وأزياء ينبغي ارتداؤها، ووجبات ينبغي تحضيرها ورقصات ينبغي تعلُّمُها، وتسريحات ينبغي تجريبها، وألعاب ينبغي البدء بها، وأماكن ينبغي زيارتها، وملاحظات ينبغي اعتمادها لاحترام الطبيعة، بحيث تمنحين فرصةً لمن لا يعرفكِ بفعل ما يفعله كلّ الأشخاص الذين التقوا بكِ في الحياة الواقعة وشعروا برغبة في فعلها، أي تقليدكِ، وباختصار ستصبحين *ذلك الشيء*، الذي لا بدّ من أنّ له اسمًا دقيقًا بالإنكليزيّة لكنّ جدّكِ سيمنعكِ عن لفظه، ها هي الصرامة - إلّا أنّه سيكون يمازحكِ - وأنتِ لن تلفظي ذلك الاسم، لن تلفظيه أبدًا. ستّ عشرة سنة! سبع عشرة! وسيظهر قدركِ أمامكِ، لأنّكِ ستصبحين شهيرة، هكذا تمامًا، شهيرة جدًّا، ستحصل قناتكِ على ملايين المشاهدات ضربةً واحدة، نجاحٌ خياليّ إذا أخذنا بالاعتبار أنّكِ تهتمّين بأشياء بسيطة، جادّة، *عاديّة*، وفي حين ستتدهور أوضاع بلدكِ سيتشبَّث الكثير من المراهقين بكِ، الكثير من الأطفال، أيضًا، سيرغبون أن يفعلوا ما تفعلينه أنتِ، وأن يصبحوا مثلكِ، وأن يروا العالم من خلال عينيكِ المدهشتين، وسيتابعونكِ، وستتضاعف أعدادهم، وهذا يعني أنّكِ ستكسبين أموالًا، ميرايجيين، أموالًا كثيرة، لن تصدمكِ، ولن تحيدكِ عن دربكِ، ستمنحين منها جزءًا للمحتاج، طبعًا، وستحتفظين بالباقي جانبًا، فأن يصبح المرء ثريًّا في الحين الذي يصبح فيه الجميع فقراء هو ميزةٌ كبرى إن أراد تغيير العالم، وجدُّكِ سيكون متقاعدًا، والحال هذه، وسيفرِّغ نفسه كلّيًّا لأشغالكِ، كي لا تنفصلي عن الحياة العاديّة، المدرسة، النُّزه، البيانو، الرحلات إلى لندن لدراسة الإنكليزيّة، والحفلات، والسهرات الموسيقيّة، والإجازات في بولغيري صحبة جدّكِ وتلك التي صحبة صديقاتكِ اللواتي سيدعُنَّكِ إلى أيّ مكان شرط ألّا تبتعدي عنهنّ، سيهتمّ

جدُّكِ بكافّة الشؤون العمليّة المتعلِّقة بالشهرة التي ستحظين بها وستتعاظم كثيرًا مع الوقت - سيفكّر، وسيكون محقًّا - لكي لا تستولي عليكِ الشهرة. سيفكّر، وسيكون محقًّا في أنّ الشهرة إذا حرمتكِ من الحياة العاديّة غدوتِ مجرّد مؤسّسة، دمغة، علامة، وسرعان ما سينقضّ عليكِ الوكلاء، وأصحاب المشاريع، والاستغلاليّون، وسيعمل جدّكِ جاهدًا على إقصائهم عنكِ بحيث لا يبقى في جواركِ سوى الأناس الحقيقيّين، الأطفال والطفلات، الفتية والفتيات، الذين إذا قلّدوكِ تمرَّدوا على الخراب الذي تسبَّبَ به آباؤهم، فسيحدث إذًا في حياة ماركو كارّيرا ما يحدث عادةً، في نهاية المطاف: سيبقى ثابتًا، وطيدًا في الأرض، وسيحاول بكلّ قواه أن يحافظ على الزمن ثابتًا من حوله، الزمن الذي سيمضي مسرعًا بالنسبة إليكِ، ميرايجيين، وها أنتِ أتممتِ ثمانية عشر عامًا، سيبدو الأمر مستحيلًا، ميرايجيين، راشدة، امرأة شابّة، في غاية الجمال، مسالمة، ونطفويّة، أي لن يكون بعدُ سرًّا أنّكِ ستلدين الإنسانيّة الجديدة القادرة على النجاة من الدمار الذي تسبَّبَت به الإنسانيّة القديمة، أنتِ ومَن مثلكِ، لأنّ التغيير الحقيقيّ، الوحيد الذي سيشجِّعه جدّكِ، هو أنّ *الذين مثلكِ*، ميرايجيين، الأشخاص المصطفون، الرجال الجدد، نساء الغد، سيكونون مطلوبين للتجمُّع معًا لإنقاذ العالم، هذا أوّلًا، قبل تغييره، لأنّ العالم حينذاك سيكون في خطر، تمامًا مثلما تخوَّفَ عليه كثيرون في الأعوام السابقة، ولكنْ لم يصغِ إليهم أحد، وكم مرّةً تخيَّلوا الخطر طوال القرن المنصرم، في الكتب، في القصص المصوّرة، في الرسوم المتحرّكة، في المانغا، في الأفلام، في الفنّ، في الموسيقا، ورغم هذا سيكون هنالك أناسٌ لن يقتنعوا أبدًا، وآخرون لن يقتنعوا إلّا متأخّرًا، وسيتفاجؤون، ولكن أنتِ، ميرايجيين، ومَن مثلكِ، سيتمّ توظيفكم وتدريبكم لخوض الحرب الذي رفض الجميع خوضها في السابق، وسيكون من الواضح أنّنا بصدد هذا حتمًا، حرب، حربٌ ضارية بين الحقيقة والحرّيّة، أنتِ، ومَن مثلكِ، وكلّ

جمهوركم من الأطفال والمراهقين (أعدادٌ غفيرة)، والشبّان والشابّات (كثر)، والكبار (قلّة)، والشيوخ (ما ندر)، ستصطفّون إلى جانب الحقيقة، طالما أنَّ الحرّيّة تحوّلت إلى فكرةٍ معادية تكشّر عن أنيابها وانحصرت بصيغة الجمع بشكلٍ لا يغتفر - *حرّيات*، الحرّيات العديدة بحيث تمزَّقت تلك الكلمة، الحرّيّة، مثلما تتمزَّق إرب الحمار الوحشيّ من قِبَلِ قطيع الضباع التي تنهش لحمه، حرّيّة اختيار ما نفضّله دومًا، حرّيّة ممانعة أيّ سلطةٍ تحاول منعه، حرّيّة عدم الخضوع للقوانين غير المرغوبة، وعدم احترام القيم الأساسيّة، التقاليد، المؤسَّسات، العقد الاجتماعيّ، الاتفاقيّات المبرمة في الماضي، حرّيّة عدم الاستسلام في وجه المنطق، حرّيّة الوقوف في وجه الثقافة، والفنّ، والعلم، حرّيّة التداوي بعلاجاتٍ غير معترف بها من قِبَلِ المجتمع، أو العكس، حرّيّة رفض التداوي قطعًا، رفض اللقاح، رفض استخدام المضادّات الحيويّة، حرّيّة عدم تصديق الوقائع الموثّقة، وحرّيّة تصديق الأخبار الزائفة وحرّيّة إنتاجها أيضًا، حرّيّة إنتاج برامج مضرّة، ومخلَّفات سامّة، ونفايات إشعاعيّة، حرّيّة إغراق البحار بموادّ لا تتحلّل حيويًّا، وتلويث طبقات المياه الجوفيّة وقيعان البحار، حرّيّة السماح للنساء بتبنّي النزعات الذكوريّة، والسماح للرجال بالتحيُّز الجنسيّ، حرّيّة إطلاق النار على مَن يدخل بيتك، حرّيّة صدّ اللاجئين وإرسالهم إلى مراكز التجميع، حرّيّة ترك الناجين يغرقون، وازدراء الأديان التي لا تدين بها، وطرائق الأكل والملبس التي لا تتّبعها، حرّيّة احتقار النباتيّين والنباتيّين كلّيًّا، حرّية اصطياد الفيلة، والحيتان، ووحيد القرن، والزرافات، والذئاب، والنيص، والمفلون، حرّيّة أن نكون قساة، فاسدين، أنانيّين، جهلة، نعاني رهاب المثليّة، معادين للساميّة، إسلاموفوبيّين، عنصريّين، إنكاريّين، فاشيّين، نازيّين، حرّية التلفُّظ بكلمة «زنجيّ»، «متخلّف عقليًّا»، «قرباطي»، «عاهة»، «منغوليّ»، «منيوك»، حرّيّة المجاهرة بهذا الألفاظ أيضًا، حرّيّة اتّباع الإرادة الشخصيّة والاهتمام الشخصيّ فقط

وحصرًا، حرّيّة ارتكاب الخطأ مع علمك بأنّك على خطأ والقتال بلا هوادة ضدّ مَن يسعى لتصحيح الخطأ، بما أنَّ الخطأ - لا الدستور - سيعتبر الضامن للحرّيّة. وأنتِ، ميرايجيين، ومَن مثلكِ، بفضل نموذجكم، وكاريزما الإنسان الجديد، وبينما هنالك مَن يناضل في الحياة الواقعيّة، سيتوجَّبُ عليكم أنتم أن تناضلوا في الشبكة، أي في المعسكر المناوئ، الحاضنة التي تفرِّخ امتدادات سرطان الحرّيّة، وستكون وظيفتكم هناك، في الشبكة، من أجل الأطفال والأولاد، بألعابكم وحكاياتكم بلغاتكم الأمّ وقوائمكم للأشياء التي ينبغي فعلها والتي لا ينبغي، أي بقدرتكم على *التمييز*، ستدافعون وتنقذون الوسطيّة الآيلة للزوال، الرحمة الآيلة للزوال، الأصالة الأوروبيّة الآيلة للزوال، أصالة الذين أُجبِرُوا على الهجرة والنفي فماتوا بعيدًا عن أوطانهم، أصالة الخدم، والفلّاحين، وعمّال المناجم، والحِرَفيّين، والبحّارة الذين كُسِرت ظهورهم لتتسنّى لأبنائهم حياةٌ أفضل، والمستكشفين الذين التهمهم آكلو لحوم البشر، والمثقّفين، والشعراء، والفنّانين، والمعماريّين، والمهندسين، والعلماء الذين اضطهدهم الطغاة، ومن أجل هذا السبب، وبسبب شهرتكِ، وللسبب البسيط الذي سيدفعكِ للعمل باسم الحقيقة ودفاعًا عنها، حتّى لو كانت مبتذلة ويوميّة، ضدّ حرّية الدوس عليها، ستكونين في خطر. تسع عشرة سنة، ميرايجيين، وكلُّ شيء سيتغيّر - للمرّة الأولى، من أجلكِ، ومن أجل جدّكِ ثانيةً - سيتوجَّب عليكِ مغادرة بيتكِ، وحياتكِ، ومدينتكِ، والذهاب للسكن في أماكن سرّيّة، والتنقُّل باستمرار، تحت وطأة التهديد، والتشهير، لكنّكِ ستبقين محطّ تقدير، يذودون عنكِ كأنَّكِ الكنز، يصونونكِ، لكي تستطيعي مواصلة الشهادة بأنّ العالم كان مكانًا جميلًا، سليمًا، مُرَحِّبًا، حافلًا بالنعم التي لا تكلِّف شيئًا، وبإمكانه أن يظلّ كذلك، وستشكِّلين جزءًا من برنامج *تذكَّرْ مستقبلك* (تمامًا هذا ما سوف يؤخذ بالاعتبار، الضرورة إلى برنامج، أي منهج عمل، وبيان يحتوي على القواعد الواجب

اتّباعها، وتغييرات في السلوك يجب اعتمادها، برنامجٌ خطَّطَت له خيرة العقول التي ستحارب إلى جانبكِ)، وستواصلين نشر البرنامج من تلك الأماكن السرّيّة، ومن حقولٍ مكسوّةٍ بزهر الخشخاش، وكتل الجليد، ومن عرض البحر، وسيزداد عدد متابعيكِ، وستبدأ الإنسانيّة تتغيّر، فالأطفال والأولاد الذين تحدَّثتِ إليهم قبل أعوام سيكبرون، وسيضجرون من آبائهم، وسيقاتلونهم، إن توجَّبَ الأمر، وسيفكّرون بصيغة الجمع، وبفضل جمالكِ ذي الجذب المركزيّ سينجذبون نحو المختلف، وستكون الثقافة أوَّلَ اهتماماتهم، وسيبحث بعضهم عن بعض، وسيلتقون، ويتّحدون وسيبقون متّحدين، وسيكون أكثرهم على علمٍ بما الذي ينبغي فعله في حين أنّ العالم القديم يلفظ أنفاسه الأخيرة، بفضلكِ أيضًا، لا بل بحسب جدّكِ بفضلكِ *تحديدًا*، جدّكِ الذي سيكون وحيدًا، فخورًا ووحيدًا، قلقًا ووحيدًا، وسيتابعك كالآخرين من شاشة الجوّال، والكمبيوتر، وسيكتشف أنّه منذ بدأتِ تعيشين بعيدةً عنه صرتِ تتحدّثين عنه غالبًا، وسيتأثّر في ذلك، وسيتذكّر السنوات التي كرَّسها لكِ، سبع عشرة سنة، مرّت بالنسبة إليه كنسمة، بينما بالكاد سيذكر الأعوام التي لم تكوني فيها بعد، أعوامًا غابرةً وكالحة، وسينتظركِ في البيت القديم بساحة سافونارولا، أو في المنزل القديم في بولغيري، اللذين ما زالا في مكانيهما بفضل جهودكِ، حيث ستأتين لزيارته حالما تستطيعين، *مع المرافقة*، ميرايجين، لأنّكِ ستسافرين مع المرافقة، ستذهبين لزيارته وستجدينه بصحّةٍ جيّدة، ما يزال شابًّا، ما يزال نشطًا، محافظًا على ثباته، ميزته، بينما كلُّ شيء من حوله قد تغيّر، واثقًا من أنّ لحظة تحرُّكه وتغيُّره آتية، سيتغيّر كلُّه معًا، بحدّة، مثلما كان دائمًا، وستحين تلك اللحظة في النهاية، ولن تكون لحظةً جميلة، لأنّه سيحمل معه قطعة من ورقة من المستشفى، تقرير، يتحدّث عن ورم، خبيث، بالبنكرياس، بلا غموض، وبلا تحايل في الكلام، ورم ذو أبعادٍ كبيرة ومنتشر على نحوٍ واسع - ولكن

كيف؟ كيف وجدُّكِ لا يتغيَّب عن الفحوصات المنتظمة كلّ ستّة أشهر، وقبل ستّة أشهر لم يكن هنالك شيء؟ كيف استطاع في ظرف ستّة أشهر أن يتكوّن وينمو ويتمدّد بهذا الشكل؟ كيف استطاع؟ ربّما مثلما استطاع جسده عندما كان في الخامسة عشر عامًا من عمره، ميراجيين، فهذه هي الطريقة المعتادة لنموّ ماركو كارّيرا، مُقدَّرةٌ منذ البدء في صبغيّاته الجينيّة، مثلما كانت والدته تعتقد، أو ربّما حان اليوم X الذي لطالما تخوَّفَ منه والده، الذي كان سيتعيَّنَ عليه فيه أن يدفع ثمن نموّه السريع، وباختصار سرطانٌ في عامه السبعين، اللعنة، من تلك السرطانات الخبيثة، سترتعد ركبتاكِ يا ميراجيين عندما يخبركِ، لزامٌ عليه أن يخبركِ، والعالم الذي ستنقذينه سينهار على رأسكِ، سيقول لكِ: «سأصارع المرض» لكنّكِ ستدركين جيّدًا أنّه يفكّر «أنا ميّت»، مثلما فكَّرت والدته عندما أصابها المرض، سيفكِّر في ذلك هو أيضًا لأنّه طبيب وسيعرف أنّه ميّت، إلّا أنّه بوسعه القول إنّه حقَّقَ هدفًا في الحياة، وأنّه كان عليه أن يموت ذات مساء من شهر مايو قبل نصف قرن، كان في اللائحة، كان كلُّ شيء مُقدَّرًا، لكنّه نجا بجلده في اللحظة الأخيرة، ميراجيين، لأنّه لو مات حينذاك ما كان ليراكِ تولدين في الماء ويربّيكِ ويسلِّمكِ إلى هذه الأرض.

تحت تصرُّفك (2030)

جدّي العزيز،

أرجوك ألّا تأخذ بعين الاعتبار ما قلتُه لك في الأمس. بقيتُ أبكي طوال رحلة العودة، انتابني الإحباط، ولم أنم، لكنّي في النهاية فهمت. فهمتُ كلَّ شيء، فهمتُ جيّدًا. فهمتُ وأنا مستعدّة. أنت لم تطلب منّي شيئًا، ولم تتوانَ عن العطاء، والعطاء، والعطاء، وإن طلبتَ منّي شيئًا مرّةً واحدة، حتّى لو كان رهيبًا كهذا، فسأحقّقه لك. اعذرني على ما بدر منّي البارحة. انسَ. اليوم يومٌ جديد، وإنّني تحت تصرُّفك.

سأعود إليك بعد بضعة أيام. انسحبتُ من البرنامج موقتًا وسأكرّس نفسي لك، وأريدك أن تعلم أنّني فخورة بك. فخورةٌ بشجاعتك التي أظهرتَها في هذه الأشهر، ونقاء قرارك الذي اتّخذته، وفخورةٌ لا سيّما بأنّك أنت، مثلي الأعلى، طلبتَ منّي أن أساعدك. سأساعدك يا جدّي الغالي، لا تقلق بأيّ شأن. أعرف ما سأفعله، فلقد اهتممتُ بهذه الأشياء خلال البرنامج. أوسكار يعرف الأشخاص المناسبين، ولن يترتّب عليك فعل شيء، وحتّى أنا لن يترتّب عليّ شيء، كن مطمئنًّا. بكلّ بساطة: ما ترغب فيه الآن سيتحقّق. ونحن الاثنان سنكون معًا.

حفيدتك

ميرا ايجيين

الغزوات البربريّة (2030)

- هل استيقظت؟ - تقول ميرايجيين.
- أجل.
- لقد وصل كارّادوري.
- وأخيرًا. أين هو؟
- قلتُ له إنّك تستريح. فخرج للتنزُّه على الشاطئ مع جدّتي.
- آه.

تقعد ميرايجيين بجانبه على السرير.

- عليَّ أن أعترف لك بشيء - تقول.
- ما هو؟
- لا أقوى على إخفائه.
- ماذا فعلتِ؟
- هل تعدني بأنّك لن تغضب؟
- أعدكِ.
- باشرتُ التردُّد إلى محلِّلٍ نفسيّ.

تراوده رغبةٌ في الردّ عليها بعبارة فرانشسكو فيرّوتشي، «أيّها الجبان، لقد قتلتَ رجلًا ميتًا»، لكنّه يتكتَّم. ميرايجيين لا تستحقّ هذه السوداويّة.

إن كشفت له عن قرارها هذا، فلا مجال للمزاح فيه. هذه دفقة صراحة. كم من القوّة تحتاج لكي تكون إلى جانبه هناك، في لحظةٍ كهذه، وابتسامتها على شفتيها؟ تستحقّ إجابةً حقيقيّة.

- هنيئًا له - يجيب ماركو كارّيرا - كم أحسده.

- لماذا؟

- سيحظى بفرصة الدخول إلى عقلكِ الباطن. ومَن يدري ما أجمله، عقلكِ الباطن أيضًا.

تخفض ميرايجيين عينيها، كعادتها حين تتلقّى مجاملة. يمدُّ ماركو ذراعه نحو رأسها، فتباغته صعقة ألمٍ في كامل خاصرته اليسرى. لكنَّ مبتغاه يستحقّ العناء، فها هي الآن يده تداعب (للمرّة الأخيرة؟ ما قبل الأخيرة؟) شعرها العجيب. يلامسه، ويحدث ما لا يمكن وصفه: شعرها مجعَّد، يحسُّ بذلك، لكنّه يبدو سائلًا؛ كلا، ليس سائلًا، إنّما منساب؛ كلا، ليس منسابًا؛ يبدو له كأنّه وضع يده في وعاء قشطة. لكنّها قشطة فاحمة السواد.

- وكيف تشعرين؟

- بخير.

- أهو رجلٌ أم امرأة؟

- رجل.

- وكيف هو؟

- نحيف، وسيم. يشبهك. تعلَّقتُ به خلال هذه المدّة القصيرة.

- هل دعوناه هو أيضًا؟ - يزلّ لسانه بهذه العبارة، لكنّها ليست سوداويّة كتلك.

- أحمق...

تنهض ميرايجيين.

- نادِ على رودريغو، عندما تودّ الخروج - تقول - إنّه عند الباب، مثل الحارس. أعطيتُه كرسيًّا لكنّه يفضِّل البقاء واقفًا.

تخرج من الغرفة. الغرفة التي نام فيها بروبو دائمًا، أجمل غرف المنزل، وبابها الزجاجيّ يشرف على الحديقة مباشرةً. بعد وفاة أبيه، لم يتّخذها ماركو غرفةً له، مثلما كان من الطبيعيّ أن يحدث، فلقد فضَّلَ غرفة أمّه. لماذا؟ لا يذكر. «غرفة الضيوف»، سرعان ما سمَّتها كذلك لوتشيا، ابنة إيفانا: ولكن ما من ضيوف طوال ربع القرن الذي مضى. لا يذكر ماركو كارّيرا أحدًا شغل هذه الغرفة منذ أن توفّي بروبو. معقول؟ الصديقات اللواتي كانت ميرايجيين تدعوهنَّ كُنَّ ينمن في غرفتها. ربّما لويزا؟ آخر مرّةٍ جاءت فيها، بعد أن باعت منزلها المجاور، نامت عنده بالفعل: هل شغلت هذه الغرفة؟ لا يذكر ماركو كارّيرا. حدث ذلك قبل أعوامٍ طويلة. كلُّ شيء هناك قد حدث قبل أعوامٍ طويلة.

لكنّه يستطيع فتح الباب الزجاجي، ويسألها عن الأمر: «لويزا، هل نمتِ في هذه الغرفة عندما كنتِ هنا في المرّة الماضية؟» لأنّ لويزا هناك في الخارج، في الحديقة، يراها ماركو من خلف الستارة. تتحدّث إلى جاكومو، لأنّ جاكومو هناك أيضًا. لا بل هو الذي يتحدّث إليها، وهي تصغي. ما الذي يقوله لها؟ ها هي ميرايجيين تمرّ من هناك، ها هي تلامس يد شقيق جدّها الذي لم يكن قد التقى بها مطلقًا قبل اليوم السابق، ثمّ تتابع طريقها لتخرج من مدى ماركو المنظور. هل تتّجه إلى جدّتها وكارّادوري على الشاطئ؟

كانت فكرة ميرايجيين بدعوتهم فادحة. «مثلما حدث في ذلك الفيلم الذي شاهدناه في منتدى السينما»، قالت، «ما كان اسمه؟»، لا يذكره ماركو. لم

يعد يذكر حتّى الفيلم في واقع الحال. لقد تمدّد السرطان حتّى وصل دماغه، وباتت ذاكرته تجيء وتغدو.

كانت فكرة دعوتهم فادحة وغير دقيقة. لم تخطر في بال ماركو حتّى. فالحياة قد جرت كما جرت، ولم يخطر في باله أن *يحسِّنها* في نهايتها. منذ متى لم يعد يسمع أخبار لويزا؟ منذ مدّة: لم يعد يذكر كم سنة بدقّة. وجاكومو؟ مدّة أطول. وقد كان ماركو الذي بادر إلى القطيعة مع لويزا، يذكر هذا جيّدًا، بعثت إليه في الأعوام الأخيرة رسائل لكنّه لم يردّ عليها. أمّا مع جاكومو فقد وقع العكس: كتب إليه ماركو طيلة أعوام ولم يتلقَّ منه شيء، إلى أن استسلم. وهذا أيضًا يذكره ماركو جيّدًا. فكيف كان من المعقول أن *يدعوهم*؟ «هل يروقك يا جدّي؟» سألته ميراجيين «هل يطيب لك؟» فشعر أنّه مشتَّت. «لا أدري» أجاب، لكنّه لم يكن متأكدًا من أنّه لا يدري: سوى أنّه تذكَّر عبارةً تناسب الموقف جيّدًا: «Ubi nihil vales, ibi nihil velis» - دون أن يذكر مَن قالها. لكنّه كان يذكر معناها جيّدًا: «حيثما لا تساوِ شيئًا، لا يسعك أن ترغب بشيء» - هكذا كان يشعر تمامًا. من الوارد أنّ الفتاة انتبهت إلى ضياعه لأنّها أضافت إحدى براهينها الدامغة، التي تصنع منها شخصًا فريدًا مثلما هي عليه. «في الحقيقة لا أسألك عن هذا من أجلك» قالت «إنّما من أجلي، من أجلنا نحن الذين سنبقى». *من أجلنا نحن الذين سنبقى*: كانت قد فكّرت بأمر الجميع في المحصّلة، وهي التي لم تكن تعرف أيًّا من أولئك الجميع. كانت تعرف جدّتها، تعرف غريتا، وكارّادوري بشكلٍ أو بآخر؛ أمّا الآخران فتعرف أنّهما موجودان لمجرّد أنّ ماركو روى لها عنهما، لم ترهما من قبل، ومع ذلك فكَّرت بأمرهما. هذه هي ميراجيين كارّيرا. ها هي تصبح بوجدانها هذا هبةً يتركها ماركو *لأولئك الذين سيبقون*، وسرعان ما يتلاشى إحساسه بالعجز. كما أنّ هنالك شيئًا مخزيًا في تلك الفكرة يثير انتباهه، شيئًا

سفيهًا: فأجاب نعم، أكيد، سيُسرُّ بمجيئهم، لكنّه يرى أنّه من المستحيل أن يأتوا. «لا تقلق بشأن هذا، دعه لي» قالت ميرايجيين. جرت تلك المحادثة في صالة بيت ساحة سافوناورولا، الصالة التي تحوّلت إلى غرفة مستشفى، قبل اثني عشر يومًا. لا يعلم أحدٌ ما الذي فعلتْه، فلقد جاء الخمسة جميعًا، على الرغم من الإبلاغ المتأخّر. تلك الفتاة تنجح في كلّ ما تفعله.

جاء جاكومو من أمريكا، لويزا من باريس، مارينا وغريتا من ألمانيا، وكارّادوري من لامبيدوزا. ثمّ هنالك أوسكار، خطيب ميرايجيين، جاء من برشلونة، إضافةً إلى رودريغو، الممرِّض الذي سيتولّى المهمّة فعليًّا، والشبّان الثلاثة مرافقة ميرايجيين، إسبانيّين هم أيضًا. لم يكن المنزل في بولغيري على هذا القدر من العالميّة من قبل. لم يتسنَّ لغويدو، الممرّض الذي اعتنى به في فلورنسا، مغادرة المدينة لأنّ أمّه مقعدة - وهذا أفضل، وإلّا كان عليهم اختلاق حُجّة لكي يمنعوه من المجيء: فهو مؤمن، وورع جدًّا، ليس من النوع الذي يؤتمن عليه في مثل هذه الأشياء. كان وداعهما عاطفيًّا، لأنّ غويدو فهم أنّ ماركو لن يعود أبدًا. لم يفكّر برحيلٍ سريع كهذا، لكنّ قراره بعدم استئناف العلاج، والانتقال إلى البحر في أواخر مايو، كان كاشفًا. تأسّف على عدم قدرته اللحاق به، وأخذ يبكي أيضًا، لكنّ أمّه مقعدة ولا يمكنه مغادرة فلورنسا.

من جهةٍ أخرى، كلُّ ما في هذه القضيّة عاطفيٌّ جدًّا، حتّى إنّ ماركو كان له الشرف في عدم إظهار عواطفه المتأثّرة، كي لا ينتهي الحدث إلى مناحة. كلا، قال في نفسه، إن كان لهذا الحدث معنى فلا بدّ أن يكون أشبه بحفلة، تجربة حياتيّة، مبهجة. لعلّها ليست بمبهجة، لكنّ ميرايجيين إذ نظَّمت الحدث أرادت استقبال أناسٍ أحياء، يعودون إلى أصقاع العالم التي جاؤوا منها بحيويّةٍ كبرى، لذا سعت أن تعتبر الضيوف رفيعي المستوى. فجهَّزت

الغرف بعناية، وأحضرت سمكًا طازجًا، وأعدَّت الباستا بالمنزل، وقطفت الخضروات من البستان - مع أنّ ماركو لم يستطع تذوُّق الطعام، نظرًا إلى تردّي حالته. لم يعد بإمكانه أن يأكل، ومنذ أشهر طويلة لا يتغذّى إلّا بوساطة فغر المعدة بالمنظار العابر للجلد، أي بأنبوب التغذية الذي أدخله الأطبّاء وسط بطنه. ورغم هذا، ورغم عدم استطاعته الاقتراب من الطعام، ساعد حفيدته في تحضير العشاء والغداء اللاحق كما لو أنّهما بصدد حفل استقبال لائق بالضبط. ومن جهة أخرى، ماركو يعرف أذواق الضيوف: جاكومو، فواكه البحر؛ لويزا، جراد البحر؛ مارينا، جبن موتزاريلا البوفالا... لا شكّ أنّ المعلومات راجعة إلى أزيد من ثلاثين عامًا، لكنّ الأذواق لا تتبدّل، إلّا في حالة الامتناع لأسباب صحّيّة - وفي هذه الحالة، سيكون هو هناك، على رأس المائدة، يواسيهم بأنبوبه. ولكن لا داعي. لم يُمنَع أيٌّ منهم من وجبته المفضّلة - ما قد يشير إلى حظٍّ سعيد.

وهناك خطرٌ آخر في الحدث الذي قرّر ماركو إقامته. الأوّل، ذكرناه، التهكُّم والاستهزاء: فماركو كارّيرا، الرجل المنتمي إلى العالم القديم، لطالما لجأ إلى استخدامٍ منتظمٍ لكلا المذهبين، ولكن لا مكان للتهكُّم والاستهزاء في عالم ميرايجيين الجديد. ثمّة السخرية، وكفى. الخطر الثاني هو العاطفة، وقد ذكرناه أيضًا. الثالث هو أداء دور الضحيّة - إن لم يكن الحسد. مثال: انظر إليهم، أنا أموت وهم يأكلون جراد البحر. لذا راقب ماركو نفسه بصرامة، أثناء المأدبتين، وقبلها أيضًا حين استقبل الضيوف عند وصولهم. لا عاطفة، لا نكات تهكُّميّة، لا تحسُّر ذاتيّ. أليس ما يفعله من أجلهم هبةً أم لا؟ عليه أن يشعرهم بأحسن حالٍ إذًا. فلا بدّ لحضورهم أن يصبح ذكرى جميلة. لذا يجب أن تكون مثاليّة.

يُنهِضُ جذعه ويقعد على السرير. صعقات ألمٍ من جديد. حانت ساعة

المورفين بالفعل - الأمر الذي لا معنى له، نظرًا إلى الوضع. إلّا أنّ ماركو إذا أزاح عنه الألم سيكون مستقلًّا أكثر، لأنّه ما زال بعيدًا عن النهاية. حتّى من الناحية الجسمانيّة: لم يصبح بعدُ زومبي، مثلما حدث لأبيه وأمّه - ولن يصبح كذلك أبدًا. هذا جوهريٌّ لإضفاء معنى لما سيفعله بعد قليل: ماركو كارّيرا يريد أن يرحل، لا أن يخلّص الآخرين من متاعبه.

في اليوم الأوّل، حالما وصل إلى هناك، أراد أن يقوم بنزهة على الدرّاجة صحبة ميرايجيين إلى غابة الصنوبر. وقد استطاع، بمفرده، مع أنّه كان ضعيفًا جدًّا ويتدرّج ببطء وكان عليه أن ينعطف يمينًا وشِمالًا، وكان شباب المرافقة يتبعونه على الأقدام متأهّبين للقفز والحيلولة بينه وبين السقوط، في حال فقد توازنه. هذا إذًا ما يمكن الضحك عليه، وفعلًا عندما عادا إلى المنزل، ماركو وميرايجين، ضحكا على ذلك: لم يكن تهكُّمًا، لم يكن استهزاءً.

بالتأكيد - يفكّر - لو أخذ المورفين (عن طريق الفم، لا الوريد) سيتسنّى له الخروج إلى الحديقة على ساقيه. ولكنّه في الحديقة، سيُلزَم بالجلوس على الكرسيّ المتحرّك، وسيسبّب هذا خلخلةً للأدوية الأخرى. الخطر رقم أربعة، إثارة الشفقة. إيه، انظروا إليّ، بإمكاني فعلها بنفسي!

لكنّه يستطيع الذهاب من السرير إلى الكرسيّ المتحرّك بمفرده، هذا نعم. عليه أن يقطع الغرفة كلّها لأنّ رودريغو ترك الكرسيّ بعيدًا عن السرير، لتثبيطه عن هذه المبادرة تمامًا. يقف ماركو كارّيرا على قدميه، وبخطوةٍ متشنّجة، يجرُّ خلفه حامل التروية المتحرّك ويستند إليه أيضًا، يقطع المسافة التي تفصله عن الكرسيّ المتحرّك. حذار من السقطة الآن، يقول في نفسه. حذار من كسر عظم الفخذ الآن. يبلغ الكرسيّ، يتحقّق من إدخال المكبح، ليس مُدخَلًا، يُدخِلُهُ. يركّز جيّدًا ويجلس برفق، تجنُّبًا للارتدادات. فعلها. كانت مؤلمة، لكنّها بسيطة. وبعد ذلك ينادي الممرِّض. «رودريغو» يقول،

بصوتٍ منخفض. منخفضٌ جدًّا؟ لا، رودريغو يدخل مباشرة ولا يؤنِّبه على كونه نهض وبلغ الكرسيّ بمفرده. «فلنخرج إلى الحديقة، من فضلك. فلنفعلها هناك!».

ظهيرةٌ دافئة ومشرقة. نبات البيتوسبوروم مزهر، كذلك هي القرنفليّة والياسمين: عشب المرج مقصوصٌ هذا الصباح، والرائحة المنبعثة من ذلك المزيج مثيرة. تنصرف لويزا عن جاكومو وتتّجه إليه. ينظر إليها ماركو، والشمس الهابطة تضفي عليها هالة النور: كم عمرها؟ أربعة وستّون؟ ثلاثة وستّون؟ خمسة وستّون؟ لم تُجرِ أيّ عمليّة تجميل على جسدها ووجهها اللذين لطالما اشتهاهما ماركو تتيُّمًا. ما زالت في غاية الجمال. يتّجه إليه جاكومو أيضًا، من خلفها. جاكومو كذلك أحَبَّ ذلك الجسد وذلك الوجه. وجاكومو كذلك ما زال وسيمًا. الخطر الخامس: الإعياء. ولحسن الحظّ تظهر ميرايجيين من الدرب في تلك اللحظة نفسها، متبوعةً بأوسكار، مارينا، غريتا وكارّادوري. الجميع هنا إذًا، يفكّر ماركو، يمكننا أن نبدأ.

عواطفه متأثّرة، قلبه يخفق بشدّة في صدره.

يبلغه كارّادوري ويحيّيه بحرارة. يعتذر عن التأخير فيقول له ماركو إنّه علم بأزمة السير الخانقة على الطريق وتأسَّفَ لأنّه علق فيها. وكعادة هذا الرجل، لا يساوي شيئًا لولا القوّة المغناطيسيّة التي تشعّ من عينيه. هما في العمر نفسه لكنّه يبدو أكبر. لا بل إنّ ماركو مَن يبدو أصغر. فعلى الرغم من نقص الوزن، والمرض والعلاج، لا يظهر أنّه في عامه الحادي والسبعين. لم يتساقط شعره على إثر العلاج الكيميائيّ، ما زال شعره فوق رأسه، كثيفًا وناعمًا وقد وَخَطَهُ الشيبُ بالكاد، تعبث به النسمة المسائيّة. إن كان هناك معنى لذلك الحدث فهو هذا تمامًا: أن يرحل بكامل ألقه المعهود، قبل أن تنال منه أهوال المرض.

لا أحد يتكلّم. لا أحد يعرفُ ما يقول. يومئ ماركو إلى رودريغو فيدخل الأخير إلى المنزل. لقد فكّر ماركو مرارًا ومرارًا بتلك اللحظات الأخيرة، بما يتوجَّب عليه أن يفعل وأن يقول. حيَّدَ كلَّ الأفكار المفرطة في عاطفيّتها التي خطرت في باله، لذا: لا موسيقى (للوهلة الأولى فكَّر أن يضع أغنية «Don't cry no tears» لنايل يونغ، وسرعان ما تولّاه النفور منها)؛ لا خطاب توديع، حبًّا بالله؛ لا حفلًا مهيبًا؛ لا عواطف، لا إعياء، لا تحسُّرًا ذاتيًّا. مسموحٌ بالعناق فقط، هذا نعم، مع مَن لديه رغبة في معانقته، مثلما يحدث عند السفر، وكلامٌ موجزٌ وتقنيٌّ لتطمين الجميع بأنَّهم غير متواطئين ولا مسؤولين عن شيء البتّة.

يلتزم الجميع الصمت إلى أن يعود رودريغو حاملًا الموادّ، وبينما يركِّب الأكياس على الأنابيب وحامل التروية، يبادر ماركو.

- إذًا - يقول - أشكركم لأنّكم هنا، إنّي سعيدٌ جدًّا بوجودكم إلى جانبي. وكما تعرفون، فكرة دعوتكم تعود إلى ميراجيين، وبما أنّكم أتيتم جميعًا فلا بدّ لي من أن أستنتج أنّكم وجدتم الفكرة صائبة. ولكنّكم الآن...

وفجأةً، تفترُّ من جاكومو شهقتان، اثنتان، عاليتان، واحدة تلو الأخرى في ظرف ثانيتين. ماركو قبالته تمامًا، وخلال تلك الثانيتين يسعفه الوقت لرؤية وجهه الجميل النحيف يتداعى بتكشيرةٍ تعبِّر عن الخيبة وسرعان ما يستجمع نفسه بتعبيرٍ مستغرقٍ ظلَّ مطبوعًا على وجهه منذ أن نزل من التاكسي في اليوم السابق. صمد إزاء كلّ شيء، جاكومو، بدءًا باللحظة الحسّاسة التي تلاقيا فيها بعد مرور أعوام وحتّى تلك التي تحدَّثا فيها قليلًا، على انفراد، بعد العشاء، هو عن ابنتيه وماركو عن ميراجيين. صمد بقوّة إزاء كلّ شيء وصولًا إلى تلك الثانيتين، عندما بدا له أنَّ كلّ شيء يشرف على الانهيار. لكنّه لحسن الحظّ تمكّن من استعادة السيطرة.

- المعذرة. - يغمغم.

ويعود إلى إنصاته، متأثّرًا، ويداه بين ساقيه، كأنَّ شيئًا لم يكن. ففي النهاية كان المشهد هزليًّا.

- كنت أقول إنّكم لستم مجبرين على الحضور بالإكراه. أنا سعيدٌ جدًّا لأنّي رأيتكم وتحدّثتُ إلى كلّ واحدٍ فيكم. ما عدا حضرتك، دكتور كارّادوري، لم يتسنَّ التحدُّث إليك، بسبب أزمة السير التي أوصلتْكَ متأخّرًا. ولكن، باختصار، إن كان أحدكم يودّ الدخول إلى المنزل، أو الذهاب إلى الشاطئ، أو أينما أراد، فآمل أن يفعلها، دون أن يشعر بإلزاميّة بقائه هنا.

يتوقَّف وينظر إلى جمهوره. جاكومو صامد. ميرابجيين تشبك أوسكار، الذي يعانق كتفيها اللامعتين بساعده المسمرّ. لويزا بملامح حزينة، لكنّها جامدة. مارينا ما لبثت ترفع أنظارها وتخفضها وتهزّ رأسها.

- لا أنا... - تقول - ربّما أفضل لي... أذهب المنزل.

ترفع عينيها من جديد، تبتسم، وتنصرف. بانت آثار الزمان على مارينا - الزمان والأدوية. الغزالة الجريحة. لكنّ وضعها تحسَّن، خلال الأعوام، بفضل اهتمام ميرابجيين، إلى أن صار بوسعها التحرُّك والعيش باستقلاليّة. يتبعها ماركو بنظرته إلى أن اختفت خلف باب المطبخ، ثمّ يحطّ عينيه على غريتا، أخت آديلي.

- وأنتِ؟

غريتا فتاةٌ ألمانيّةٌ جميلة، على أعتاب الثلاثين، بشعرها القصير جدًّا ووشومها الكثيرة على الذراعين. ما لبثت آديلي أن تآخت معها حتّى خطفها الموت، إلّا أنَّ بينها وبين ميرابجيين، تاليًا، توطَّدت علاقة قويّة وعميقة، كما

لو أنّها هما الأختان - وهذا بفضل الجهود التي بذلها ماركو، خلال الأعوام، باصطحاب حفيدته إلى ألمانيا لدى جدّتها ولدى غريتا، وإبقائهما معًا. والآن، باعتبار أنّ مارينا على حالها هذه، لنا أن نقول إنّ ميراجيين لن تبقى وحيدةً في العالم، وإنّ ذلك بفضل تلك الرحلات إلى ألمانيا، والمودّة التي نشأت بينها وبين أخت والدتها.

– لا يا ماركو – تقول غريتا – أنا باقية.

يتّسم وجهها بملامح قاسية مثل نطقها، لكنّها مشرقة أيضًا، وتوحي بالظفر عمومًا. لكأنّها مدقوقةٌ على معدن. يسحب ماركو نفسًا عميقًا، ويتجاهل فكرة أنّ مارينا بمفردها تبكي في الداخل - ما أصعب الموقف، اللعنة - ويستأنف كلامه.

– أردتُ أن أقول لكم كلمتين بها أنّي مارستُ مهنة الطبّ أربعين عامًا، لكي تدركوا أنّ ما أفعله الآن أفعله أنا، وأنا وحدي، بملء إرادتي وبكامل قواي العقليّة. إنّما رودريغو هنا ليقدِّم لي خدمة بسيطة، ليهديني عشرين أو ثلاثين ثانية من السلام. ولكن بوسعي فعل كلّ ما يجب بمفردي.

يشير إلى الكيسين اللذين ركّبهما رودريغو على حامل التروية ووصلهما بجهاز التشريب الوريديّ الذي تنتهي دارته بشريان ذراعه اليمنى.

– في الكيس الأوّل يوجد مزيجٌ من الميدازولام، مكوّنٌ من البنزوديازيبين والبروبوفول، ويتميّز بقدرة تنويميّة عالية. وهما الأكثر شيوعًا في التخدير العامّ. أمّنتُ جرعةً سخيّة، تضمن تسكينًا عميقًا. وفي الكيس الثاني محلولٌ سريع من البوتاسيوم غير المذاب، الذي سيؤدّي المهمّة القذرة. لن أخبركم عن كيفيّة حصولي على هذه الموادّ، لكنّي أؤكّد لكم أنّه لا أحد على دراية بطريقة استخدامي لها. بكلّ بساطة، سهّلت عليَّ

أعوامي الأربعين التي أمضيتها بالعمل طبيبًا، تدبير هذه الموادّ دون الحاجة إلى توريط أحد.

هذه هي الأكذوبة المُعدَّة في السيناريو، ويتمكّن ماركو من قولها جيّدًا، بأسلوبٍ يُصدَّق. إلّا أنّه في الحقيقة ما كان ليستطيع تدبير البوتاسيوم المركَّز، لذا طلب العون من ميرايجيين. فدبَّرته. بل إنّ ميرايجيين عثرت على رودريغو، ورودريغو هو الذي دبَّرَ المادّة. لكنّ ماركو لا يريد أن يعرف أحدٌ بهذا.

- بعد قليل، عندما أكون قد ودَّعتكم، سأفتح الصنبور الأحمر، للسماح للمخدِّر بالتدفُّق إلى شرياني. وحين يفعل المخدِّر مفعوله، سيسدي رودريغو إليّ معروفًا بفتح الصنبور الآخر، الأزرق، الذي سيُدخِلُ البوتاسيوم المركَّز إلى شرياني، وفي غضون دقائق معدودة سيكون كلُّ شيء قد انتهى. أي عندما ترونني قد غفوتُ، عمليًّا. أقول إنّ رودريغو سيهديني عشرين أو ثلاثين ثانية من السلام، لأنّه لو توجَّبَ عليَّ فعلها بمفردي لبقيتُ مشدود الأعصاب حتّى في أثناء التسكين، لتفعيل الصنبور الأزرق قبل أن أغطّ في نومٍ عميق، وستكون هذه خسارة فادحة. كنت سأضيّع على نفسي أجملَ ما في العمليّة، أي النشوة التي يزلقني عليها المخدّر.

حصل على ما رجاه، فتلك الكلمات الجافّة، والمصطلحات التقنيّة، هدَّأت الموقف، وبدا أنّ كلّ المخاطر التي أراد ماركو اجتنابها تتلاشى أو تكاد. أبطأ القلب خفقانه، وخمدت العاطفة. يتحدّث عن موته كما لو أنّه يوصِّف عمليّة في قرنيّة العين.

- يسفر البوتاسيوم عن اختلال في النظم القلبيّ، ما يؤدّي إلى الرجفان البطينيّ، ريثما يتوقَّف القلب. ليس من المتوقّع أن يؤدّي جسدي مشاهِد شنيعة: وفي أسوأ الأحوال، في حال تسرُّع القلب، قد تنشأ اضطرابات

محدودة قبل الرجفان، لكنّي لا أرجح هذه الفرضيّة.

وفجأة تقفز إرينه في رأسه، بشكلٍ غير متوقّع. لعلّ إرينه ستكون فخورة به، في هذه اللحظة. إرينه التي وضعت حدًّا لحياتها عندما كانت أكبر من ميرايجيين بقليل.

يتنفّس، يتجاهل هذا الخاطر أيضًا، ويستأنف:

- بعدئذ، حين ينتهي الأمر، ستتصل ميرايجيين بالرقم 118. ستأتي سيّارة الإسعاف من كاستانييتو كاردوتشي. سيتحقّقون من الوفاة. ستشرح لهم ميرايجيين ظرفي، وتبرز لهم ملفّاتي الطبّيّة، ولن يعرف أحدٌ منهم شيئًا. وفي رأيي، لا وجود لأيّ سببٍ يستدعي وجودكم هنا عندما تصل سيّارة الإسعاف، ولكن كونوا مطمئنّين، لن يستجوبكم أحد حتّى إذا أردتم البقاء، ولن تكونوا مرغمين على الإدلاء بشهادة زور. لا أحد - أؤكد لكم - سيكون لديه رغبة في إجراء تحقيق.

وهكذا، ينتهي الخطاب. ماركو فخورٌ بنفسه أيّما فخر، لكونه لم ينسَ أيّ تفصيل، ولأنّه شرح كلّ شيء، بمهنيّة. لم ينسحب أحد، عدا مارينا، والشهقتان اللتان افترّتا من جاكومو كانت الإشارة الوحيدة على العاطفة التي أفسدت استعراضه. تملص ميرايجيين من عناق أوسكار وتذهب إليه. تنحني، وتعانقه.

- أحسنت يا جدّي - تقول.

تخطر في رأسه فكرة، فكما قلنا ذاكرته تجيء وتغدو.

- *الغزوات البربريّة* - يوشوشها - ذلك الفيلم الذي لم نتذكّر عنوانه. هذا هو عنوانه.

- صحيح - تهمس ميرايجيين - *الغزوات البربريّة*.

تداعب شعره. ثمّ تقف بجانب الكرسيّ المتحرّك، من الطرف الآخر لرودريغو. مثل أبي الهول، صامتٌ، يد الممرّض ممسكةٌ بعارضة حامل التروية كأنّها رمح. متأهّب.

تتقدّم غريتا. تنحني هي الأخرى، مثلما فعلت ميرايجيين، تعانقه بالدفء نفسه. يستنشق ماركو عطرها المفعم بالنكهات الحادّة، كالحمضيّات. ثمّ ينظر في وجهها. عيناها مغرورقتان بالدمع أكثر من المعتاد بقليل، تبتسم.

- وداعًا، ماركو - تقول.

- إلى اللقاء - يردّ.

تنهض غريتا وتعود إلى مكانها. لكلّ واحدٍ منهم مقعد، ما باليد حيلة: إنّه عرض.

حان دور كارّادوري. يتقدّم ويمنح يده لماركو ليقرّر بنفسه ما يفعل بها؛ يختار ماركو مصافحةً رياضيّة، كتلك التي يجرونها عند انتهاء مباراة تنس. صفيقٌ، وصعقةُ ألم.

- إنّني أودُّ حضرتك - يقول كارّادوري.

- فلنرفع الكلفة، من الآن فصاعدًا - يجيب ماركو. فينفجر الجميع ضاحكين. لا بأس بقليل من التهكُّم مع كارّادوري، فهما في العمر نفسه.

أوسكار. عرفه ماركو قبل بضعة أشهر فقط، في خضمّ العلاج الكيماوي، عندما جاء لزيارة ميرايجيين التي انتقلت إلى فلورنسا لتساعد جدّها. فما كان من ماركو المنهك إلّا أن قدَّرَ حيويّة هذا الفتى، حتّى إنّه استمدّ منها القوّة لأنّها معدية بالفعل. هو أشبه بنسخة ذكريّة عن ميرايجيين، قياديّ، ومؤثّر - أملٌ عظيم للعالم الجديد، هو أيضًا.

- اصمدا – يقول له ماركو وهو يعانقه.
- Claro بالتأكيد.

ثمّ يضيف جملةً ما كان مجبرًا على قولها.

- Su vida es mi vida حياتُها حياتي.

يشدّ على يد ميرايجين، ويلثم ثغرها بشفتيه ويتنحّى.

والآن؟

رغم انعدام الأهميّة، والحال هذه، ماركو يتساءل مَن سيأتي أوّلًا جاكومو أم لويزا: ما التراتبيّة؟ وربّما يتساءل كلٌّ منهما بهذا، إذ يبقيان متحجِّرين حائرين. ثمّ يتقدّم جاكومو. يتعانق الشقيقان ويتشابك بطناهما بقوّة. لقد أخافت تلك الشهقتان كليهما، لأنّ الانفجار بالبكاء الآن سيودي إلى كارثةٍ تهدم كلَّ شيء. وفي الأثناء يبقيان متعانقين، ويتشابكان.

- اعذرني – يقول جاكومو.
- بل اعذرني أنت – يقول ماركو.

ينفصلان. يشهق كلاهما. ولا شيء بعد. انتهى الأمر. يحين دور لويزا.

ها هي. يعاود قلب ماركو خفقانه الشديد. لون عينيها من نبتة الميرميّة. شعرها الكستنائيّ ما زال برّاقًا، مرويًّا بالشمس. عنقها الأملس، عطرها البحر، ما زال على شذاه. لم يحضّر ماركو أيّ شيء ليقوله لها. فقرّر أن يقول أوّل ما يخطر على باله، وبالفعل، في تلك اللحظة الدقيقة، وهو ينظر إليها، تخطر في باله فكرة.

- أتعلمين في أيّ يومٍ نحن؟ – يسألها.

- لا.

- الثاني من يونيو. أيُّ يومٍ هو؟

لويزا تبتسم، متردّدة.

- عيد الجمهوريّة؟

- أجل. ولكن بمعزلٍ عن هذا...

تهزُّ رأسها بخفّة، وتبتسم.

- إنّه أبعد يومٍ عن يوم ميلادي - يقول ماركو - ستّة أشهر بالضبط. ما كان ذلك المعتقد عن الرجل الصالح الذي يموت في يوم ميلاده؟ ما كانت تلك الكلمة العبريّة؟

- *تساديك*.

- تمامًا. أنا لستُ *تساديك*. إنّني الضدُّ من الصدق والصلاح.

أهذه هي آخر الكلمات التي يقولها ماركو كارّيرا للويزا لاتّيس؟ ربّما - يفكّر - كان من الأفضل تحضير شيء مّا.

- ورغم ذلك فأنت *تساديك* - تقول.

- وماذا عن الروحانيّة العبرانيّة؟

- الروحانيّة العبرانيّة تخطئ.

تداعب بيدها رأسه، جبينه، وجهه.

- Mon petit colibri أيا طنّانيَ الصغير - تهمس.

تحني رأسها جانبًا، فينسدل شعرها، الحركة المألوفة، الشبقة، مثلما كانت قبل أعوام بعيدة، تهيّئ نفسها من أجل الـ...

قبلة! على الفم! باللسان! ممسكةً بوجهه بين يديها! هكذا، في أرذل العمر، بوجود جاكومو، وأمام الجميع!

أحسنتِ، لويزا: إن كان فعلكِ مشينًا فليكن مشينًا حتّى العمق. يمسك ماركو رأسها بيده، لكي يضمُّها إليه، ليتبارك الألم الذي يوجعه. هو أيضًا كان راغبًا بتقبيلها، وهذا ما رغب فيه دائمًا، دائمًا. راودته تلك الرغبة للمرّة الأولى في هذا المكان تحديدًا، في القرن الماضي، وما عادت تكفُّ عن مراودته بعد أكثر من خمسين عامًا. لكنّه ما كان ليجازف بالمبادرة، اليوم. فبادرت بنفسها هي.

انتهى الأمر. تنهض لويزا، تستجمع نفسها. تخطو إلى الخلف وتعود إلى مكانها، محنيّة الرأس، مثلما يضع الناس القربان المقدَّس في أفواههم للتوّ.

والآن، حانت الساعة. لم يبقَ إلّا التنفيذ. عطور الظهيرة مُسْكِرة، والأشياء تتأجّج بالضوء والحياة. نسمة البحر تهزّ الأسيجة بالكاد، وتعبث بالشعر الأنعم، وتزرع إحساسًا عظيمًا بالرخاء. لا يشعر ماركو بالألم في وضعيّته تلك. لقد شعر بالألم كثيرًا، في حياته. حياةٌ حافلةٌ بالألم، بلا شكّ. لكنّ كلّ الألم الذي عاناه لم يمنعه من الاستمتاع بلحظاتٍ كهذه، التي يبدو فيها كلُّ شيء على أتمّ وجه – وحياته كانت حافلةً بلحظاتٍ كهذه. فالأمر لا يتطلَّب الكثير، في الحقيقة: نهارٌ رائع، بعض المعانقات، وقبلة على الفم. وقد يكون هنالك المزيد منها، في نهاية المطاف...

الخطر السادس، اللعنة: العدول. ربّما هذا ما يأمله الجميع من حوله، أن يعدل عن قراره. أن يتظاهر بإيمانه بالشفاء، أن يستأنف العلاج، أن يستأنف الصراع، أن يعاني نوبات غثيانٍ لا تنتهي، وزحار، والتهابات قلاعيّة، وألّا يقوى على التحرُّك من سريره، وأن يصبح يرقة، وأن يصاب بقرحة الفراش، وأن يتحتّم على ميرايجيين بدلًا من إنقاذ العالم أن تُهرَع لاستئجار سريرٍ

مائيّ، ناهيك بالزيوت، والمراهم، والممرّض الليليّ، والاستنشاق المقرقر، والمورفين، عن طريق الفم، والوريد، أكثر فأكثر، دائمًا أكثر، بسبب الإدمان، فلا يجوز الإكثار منها، تقول التدابير الصحّيّة، لدرجة أن يتوسّل إلى ميرابجيين أن «تأخذه بعيدًا»، مثل بروبو، وميرابجيين بدلًا من إنقاذ العالم ستجد نفسها مرغمةً على...

يلتفت ماركو نحو رودريغو، ويشدّ على يده.

- شكرًا على كلّ شيء - يقول له. يربّت رودريغو على كتفه.

يمدّ ماركو ذراعه - ألم - يبلغ بيده اليمنى الصنبور الأحمر، ويفتحه. ثمّ يحطّ يده ثانيةً على فخذه. ألم. ينظر إلى الأشخاص الخمسة الذين قبالته، ثمّ يرفع عينيه صوب ميرابجيين، وبيده يدعوها إلى الانحناء. فتنحني. ينظر ماركو إلى تلك الفتاة ذات الجمال الباهر للمرّة الأخير. يرفع يده - ألم - ويزرعها في لغز شعرها. تبادله الفتاة النظرة بتعبيرٍ مشجِّع، وزاخرٍ بالذكريات. يبدأ مفعول المخدّر، يبتعد الجميع. لو فعلها بمفرده، توجَّبَ عليه حينذاك أن يبذل الجهد الفيليّ لفتح مصدر البوتاسيوم. هذه هي الهديّة التي يقدِّمها إليه رودريغو. ولكن، ما الذي تفعله ميرابجيين؟ برقّةٍ لامتناهية رفعت يده اليمنى وأبدلتها باليسرى في شعرها. لا ألم. كلُّ الأشياء تبتعد أكثر. ما الذي تفعله ميرابجيين؟ أوه، هذا ما تفعله. صحيح. تتعشَّق اليدان اليُمنيَان بعضهما ببعض ما بين الخنصر والبنصر، حيث تتلامس الشامتان التوأمان. بالتأكيد. «نقطة القوّة»...

كلُّ الأشياء في البعيد البعيد. سلامٌ متماوج، تحتمائيّ. إرينه. آديلي. أبتاه. أمّاه. أترك هذه الطفلة لهذا العالم. هل أنتم فخورون بي؟

إرينه.

آديلي.

أبي.

أمّي.

كم شخصًا مدفونٌ فيَّ؟

ها هو. ماركو يغفو. تنقلب رأسه جانبًا، فتسندها ميرايجين بيدها، وتحميها. والآن حانتِ مهمّة رودريغو، الذي جاء من ملقا من أجلها. حكايته عجيبة: والده أعمى، وأمّه من الغجر وكانت مغنيّة، وراقصة، وفنّانة طريق – ويبدو – عشيقة إنريكه إغلاسيوس قبل أن يرتبط بآنّا كورنيكوفا، لديه شقيقتان توأم لا يراهما أبدًا لأنّهما يجوبان العالم مع المنظّمات الإنسانيّة، وخطيبه بطلٌ بكُرَة الباسك، ولديه ابنٌ متبنّى في بينين: لكنَّ هذه الحكاية كلَّها ليست حكايته، لأنَّه ما جاء إلى هنا إلّا لفتح الصنبور الأزرق.

فلنصلِّ من أجله، ومن أجل كلِّ السفن في البحر.

هذه السماء العتيقة (2007)

لويزا لاتّيس

بريد محفوظ

67 شارع الأرشيف

75003 باريس

فرنسا

روما، 17 نوفمبر 1997

في حال وقعت فوق رؤوسنا هذه الشمس العتيقة

لويزا، لويزا، لويزتي،

دون أن تمنحنا الفرصة ليقول أحدنا للآخر،

إنّنا اثنان يحبُّ أحدهما الآخر،

يبدو لي هكذا.

تعالي نكتبْها هكذا، بكلّ ما فيها من أخطاء

أنا حبُّ أنتِ، وأنتِ حبُّ أنا.

تعالي نكتبْها هكذا،

لويزا، لويزا، لويزتي،

على كلّ سطحٍ خلقه الربُّ الودود.

الطنّان

(روما وأماكن كثيرة أخرى، 2015-2019)

ديون

قبل كلّ شيء، إنَّ فصل «*في المولينيلّي*» ليس مستوحىً من حكاية *الدوّامة* للأديب بيبّي فينوليو فحسب، إنّما هو نسخةٌ عنها بحقّ. تتسّم تلك الحكاية، التي من الوارد أنّها أجمل ما كُتِبَ باللغة الإيطاليّة، بالكمال الذي كان له أن يختفي لو أنّها اقتصرت على تملُّك الفكرة التي أنجبت الحكاية، دون أن تثمر حتّى عن بنيتها. إنّما التأليف ما يجعلها متكاملة، ومزيج البراءة باليأس ما يجعلها عفويّة بذلك الشكل. لذا قرّرتُ أن أعيد كتابتها، بحيث تتناسق مع الحدث المسرود في هذه الرواية، وحاولتُ أن أحترم ذلك التأليف وذلك المزج قدر الإمكان. وكان الأمر بالنسبة إليّ درسًا رائعًا. وفي النهاية، وبهدف إيضاح مقصدي ووفائي، قرّرتُ أن أحافظ على أوّل سطرين وآخر سطرين منها - وما باليد حيلة، تبيَّنَ بما لا يقبل الشكّ أنّ تلك السطور هي الأفضل في الفصل كلّه.

في فصل «*عين الإعصار*» ثمّة جزءٌ من التوصيف الجسمانيّ لشنيع الذكر، مستَقَدَمٌ كما هو من أحَبَّ الأدباء إلى قلبي، وهو ماريو بارغاس يوسا: «كان

الرجل طويل القامة وهزيلُ البنية لدرجةٍ يبدو فيها بمقطعٍ جانبيٍّ على الدوام» هو السطر الأوّل من روايته حرب *نهاية العالم*، التي صدرت بالأصل عام 1981، والطبعة الإيطاليّة عام 1983، بترجمة أنجلو مورينو (إيناودي).

وفي الفصل نفسه: حادث التزلُّج، والعيدان التي انغرست في فخذ المتزلّج، كان قد وقع فعلًا – ليس في مسابقة، بل أثناء التدريب – في جبل غوميتو، عند سلسلة الأبيتون، لولدٍ قويٍّ من فلورنسا أذكر كنيته، غراتزيوزو. دماءٌ على الثلج. والولد يصيح من الألم. كلّما تذكَّرتُ هذا المشهد شعرتُ أنّي لستُ بخير.

وكان الفصل بأكمله قد صدر مسبقًا في مجلّة IL، عدد يوليو 2017.

في فصل «*أورانيا*»: الكتابة بالقلم الرصاص على الغلاف الداخليّ لرواية الخيال العلميّ هي أمرٌ حقيقيٌّ يخصّني، وقد ناسبتُه مع الرواية. وفي الحقيقة هو والدي. بينما كنتُ أولد لم أعد أذكر في أيّ مستشفى، في فلورنسا، كان والدي يكتب هذه الكلمات على الغلاف الداخليّ لإحدى روايات أورانيا التي كان يطالعها: «أهلًا وسهلًا بكم سيّداتي سادتي، أودّ أن أقدِّم إليكم صديقي الجديد... أو لا، صديقتي... الآنسة جوفانّا... أو ربّما لا، السيّد ألسّاندرو... مَن يدري... ها هو، ها هو، انتباه... الممرّضة آتية... ليس واضحًا بعد ما إذا... ها هي تنحني و... سيّداتي سادتي، لقد وصل ألسّاندرو!». الرواية التي كان يقرأها هي *عين السماء* لفيليب ك. دِك، مؤرَّخة، للأسباب الموضَّحة في الفصل، 12 أبريل 1959 مع أنّي ولدتُ في الأوّل من أبريل.

بطبيعة الحال، الفيلم المذكور في بداية فصل «غوسپودينيبي»، هو *أماركورد/أنا أذكر* لفيديريكو فيلّيني، الذي عُرِضَ في الصالات في 13 ديسمبر 1973.

وفي الفصل نفسه، الجملة المقتبسة بين ظفرين آتية من رواية *آل غولدن/ البيت الذهبيّ* لسلمان رشدي، 2017.

في بداية فصل «*خيط، ساحر، ثلاثة صدوع*» أردتُ أن أشيد بهذه القصيدة النثريّة العظيمة لسيرجيو كلاوديو بيرّوني بعنوان *أن نعرف الطريق* وموجودة في الديوان *أدخل في مناملكِ أحيانًا* الصادر عام 2018 (لانافي دي تيزيو): «تتحرّك تحت الظلام ولا تجد نفسك، تمشي ببطء بين جدران البيت لكنّ ما تتوقّعه لا تلمسه، ما تلمسه غير متوقّع، يصل مسرعًا كثيرًا، ومتأخّرًا كثيرًا، له زوايا جديدة، وجوانب غير مسبوقة، فتبحث بالتلمُّس عن زرّ الضوء الأقرب، تشعل الضوء لحظةً لتسترشد، لحظة واحدة فقط كي لا تستيقظ كلّيًّا، وتلك اللحظة تكفيك لتحديد نفسك، لمعرفة الطريق لحظةً قبل أن يختفي، لتنحت في ذهنك أبعاد الظلام، وتستأنف تقدُّمك واثقًا من كلّ خطوة، من كلّ لفتة، بين الأشكال التي تثق بها، مقتنعًا بمعرفة الطريق في اللامرئيّ، لكنَّ ما يجعلك تمضي قدمًا هو ليس إلّا ذكرى تلك اللحظة، وما يقودك ليس إلّا ذاكرة الضوء». ولأنّها لم تكن إشادةً كبرى، توصّلتُ إلى قرار محوها، ولكن في 25 مايو 2019، بينما كنت لا أزال منغمسًا بكتابة هذه الرواية، انتحر بيرّوني في تاورمينا، حيث يسكن. وبما أنّه كان صديقًا لي، قرّرتُ أن أضع إشادتي المتواضعة في الرواية، للحصول على فرصة كتابة أسطر الامتنان هذه تجاهه.

المقالة المذكورة في نهاية فصل «*الرسالة الأولى عن الطنّان*» كتبها ماركو ديرامو، وظهرت في المانفستو، عدد 4 يناير 2005، وهي مخصّصة فعليًّا لتناول معرض *امبراطوريّة الأزتك* المقام في متحف غوغينهايم بنيويورك ما بين 15 أكتوبر 2004 ولغاية 14 فبراير 2005.

خطاب الدوكخا الموجود في فصل «Weltschmertz & Co. (2009)» مقتبس من كتاب نيدانيا ساميوتا - مجموعة الخطابات المرتبطة بالعوامل العَرَضيّة، (V)، غاهاباتي فاغا، منظّمة بورما بيتاكا، رانغون، بورما.

بما يخصّ أغنية Gloomy Sunday، المذكورة في الفصل الذي يحمل اسمها: صدرت الأغنية للمرّة الأولى عام 1935 في هنغاريا، حيث أُلِّفَت في الثلاثينات بعنوان «Szomoru' vasa'rnap»، من كلمات لاسلو جافور وألحان عازف البيانو المتعلّم ذاتيًّا ريزسو سيريس، وغناء بال كالمال، وحظيت بنجاحٍ عالميٍّ سريع. وبسبب هذا النجاح، سرعان ما أصبحت الأغنية أساسيّةً في الجاز، لاسيّما بفضل النسخة الأمريكيّة عام 1936 بإمضاء الشاعر الغنائيّ سام لويس. وها هنا نصّ الأغنية الإنكليزيّ:

Sunday is gloomy

My hours are slumberless

Dearest the shadows

I live with are numberless

Little white flowers

Will never awaken you

Not where the black coach

Of sorrow has taken you

Angels have no thoughts

Of ever returning you

Would they be angry

If I thought of joining you

Gloomy Sunday

Gloomy is Sunday

With shadows I spend it all

My heart and I

Have decided to end it all

Soon there'll be candles

And prayers that are said I know

Let them not weep

Let them know that I'm glad to go

Death is no dream

For in death I'm caressin' you

With the last breath of my soul

I'll be blessin' you

Gloomy Sunday.

ولكن في سياق نجاحها، انتشرت حول العالم أسطورةٌ تقول إنّ هذه الأغنية، بسبب تعاستها القاهرة، كانت سببًا في اقتياد كثيرٍ من الأشخاص الذين استمعوا إليها نحو الانتحار. فأدّى هذا الصيت المشؤوم إلى جعلها شهيرة في العالم بأسره باسم «أغنية المنتحرين المجريّة»، الأمر الذي أخضعها للحظر والحدّ من انتشارها. ثمّ في عام 1941، بغية الاعتراض على هذا الصيت، أضيفت فقرةٌ إلى النسخة التي غنّتها بيلّي هوليداي لم تكن موجودة في النسخة الأصليّة، بمثابة تفسيرٍ للفقرات السابقة على أنّها ثمرة أحلام.

Dreaming, I was only dreaming

I wake and I find you asleep

In the deep of my heart here

Darling I hope

That my dream never haunted you

My heart is tellin' you

How much I wanted you

Gloomy Sunday.

ورغم هذا، منعت بي بي سي الانتشار الإذاعيّ للأغنية لأنّها اعتُبِرَت حزينةً إلى أقصى الحدود، في لحظةٍ عصيبة بحدّ ذاتها كانت بريطانيا تعيشها، تحت وابل القصف الألمانيّ. وظلّ المنع ساريًا حتى العام 2002. غُنِّيت الأغنية بأداءاتٍ لا تعدّ ولا تحصى على مدى الأعوام، بإمضاء مطربين

وموسيقيّين عظماء، مع أو بدون الفقرة المضافة. من بينها، فضلًا عن نسخة البونك التي أدّتها ليديا لانتش عام 1981 والمذكورة في الفصل، أودّ ذكر أداء إيلفيس كوستيلو 1994، ريكي نلسون 1959، ماريان فايثفول 1987، سيناد أوكونور 1992، وأداء بيورك 2010. لكنّ هذه الأغنية أُدِّيَت بالعشرات حقًّا.

ثمّة نسخة إيطاليّة بالطبع، *الأحد الكئيب*، من كلمات نينو راستيلي، غنّاها على مدى الأعوام كلٌّ من نورما بروني، مارلاستيلا، ميريام فيريتي، جوفاني فالارينو، وعلى وجه الخصوص، عام 1952، نيلا بيتزي. ففي أدائها لا أثر لمحاولات تلطيف الكآبة، ولا جعل التلميح إلى الانتحار بسبب عذاب الحبّ أقلّ وضوحًا.

وفي النهاية، يوجد فيلم رديء بريطانيّ - إسبانيّ 2006 مع تيموثي هيوتن ولوثيا خيمينيث، عنوانه *علبة كوفاك*، حيث تُطبَّق تكنولوجيا الميكروشيب على الأشخاص لدفعهم إلى الانتحار عبْر إسماعهم على الهاتف أغنية *الأحد الكئيب*.

وفي العام 1968، انتحر ريزسو سيريس ملقيًا بنفسه من إحدى نوافذ بيته في بودابست.

في فصل «Shakul & Co.»: المفردات التي تدلّ على الآباء الذين فقدوا ابنًا، آتية جزئيًّا من كتاب *أظنّ أنّ الربيع في الخارج*، لكونشيتا دي غريغوري، إصدار فلترينلي 2015.

وفي الفصل نفسه بيتان آتيان من أغنية *صديق هشّ* لفابريتسيو دي آندريه.

كتاب ديفيد ليفيت المذكور في فصل «*درب الصليب*» هو أولى رواياته *رقصة عائليّة*. جميلة جدًّا: اقرأوها، أو أعيدوا قراءتها.

أغنية جوني ميتشل التي يشار إليها في فصل «*تتناقل سيرتك الأفواه*» هي The Wolf that Lives in Lindsey، الموجودة في ألبوم Mingus، عام 1979. تحتوي حقًّا على عواء الذئاب في نهايتها، وهي مؤثّرة.

فصل «*إنّها النظرات جسد*» هو إعادة صياغة لنصٍّ كتبتُه لمجلّة لاليتورا في العام 2017.

عبارة «الذئاب لا تفترس الأيائل المنحوسة. إنّما تفترس الأيائل الضعيفة» تقال في فيلم بعنوان *أسرار ويند رايفر*، فيلم إثارة جميل مصوَّر في محميّة هنديّة في الويومينغ وقصّتها مليئة بالدماء والآلام تشبه روايات لويس إردريتش. المشكلة هي أنّ الفيلم من العام 2017، والنصّ الذي أشير فيه إليه تدور أحداثه عام 2016: أي مفارقة تاريخيّة. ولأنّي لم أستطع وضع أحداث الفصل في العام اللاحق، فضّلتُ أن أترك فيه العبارة هكذا على ألّا أضعها أبدًا. والمهمّ، هنا، هو التشديد على أنّها ليست من بنات أفكاري: هي من بنات أفكار تايلور شيريدان الذي أخرج الفيلم وكتب نصّه أيضًا.

وكذلك، فيما يخصّ هذا الفصل نفسه، يجب أن أُرْجِعَ إلى بيرانديلو تطوُّرَ سيرة دوتشو كيلّيري الملقّب بشنيع الذكر. كتب بيرانديلو رواية صغيرة عام 1911 بعنوان *الرخصة* عن شخصيّة جالب النحس، واسمه روزاريو كياركيارو، والذي عوضًا عن التصدّي لصيته السيّئ يقرّر أن يتقبلّه ليبتكر مهنة جالب النحس بأجرٍ مدفوع. ستنتقل هذه الرواية إلى السينما على يد

لويجي زامبا من فيلم بأربع حلقات *هذه هي الحياة*، عام 1954، مستلهمًا من نوفيلات بيرانديلو، حيث يؤدّي توتو دور شخصيّة كياركيارو.

الكتاب المذكور في فصل «*الرسالة الثالثة عن الطنّان*» بعنوان هو، *أنا، نحن* إصدار إيناودي 2018. عبارة عن حكاية طويلة بثلاثة أصوات تركّز على الذكرى والغياب لدى فابريتسيو دي آندريه، بإمضاء دوري غيتزي وجوردانو كياتشي وفرانشسكا سيرافيني («اللسانيّان» الملمح إليهما في الفصل). إنّه كتابٌ لا بدّ من وجوده في مكتبة كلّ مَن يحبّ فابريتسيو دي آندريه، وكلّ مَن يحبّ اللغة الإيطاليّة أيضًا - وابتكار هذه المفردة الجديدة «إيمّينالجيا» دليلٌ على ذلك.مكتبة سُر مَن قرأ

في فصل «*الإنسان الجديد*» يحال على فرسٍ اسمها دولّي، وتوصف بإيجاز. كانت هذه الفرس لشقيقي جوفاني.

وفي الفصل نفسه، فكرة الصراع بين الحقيقة والحرّيّة آتية من قراءة دراسة رائعة لروكّورونكي بعنوان *ميتافيزيقيا الشعبويّة*، الصادرة في مجلة دوبيوزيرو 12 نوفمبر 2018. هي قراءةٌ مستنيرة حقًّا، ينبغي للجميع فعلها. وبينما كنت أزور موقع دوبيوزيرو لتتبُّع الدراسة، تجوّلتُ في فهرس كلّ الدراسات الأخرى المتوافرة، فاستوقفني عنوان إحداها *تذكّر مستقبلك*، ورأيتُ أن أسمّي البرنامج الذي تشارك فيه ميرايجيين على عنوان الدراسة. ثمّ قرأتها، بإمضاء ماورو زانكي، الذي يتطرّق إلى زيارة قسم *أرشيف المستقبل* في معرض *الفوتوغرافيا الأوروبيّة* 2017 - *خرائط الزمن. ذاكرة. أرشيف. مستقبل* (بإشراف ديان دوفور، إليو غراتزيولي ووالتر غوادانيني) وقد تمّ

تجهيز المعرض في مناطق مختلفة من مقاطعة ريجو إيميليا بين مايو ويوليو 2017: وحتى تلك القراءة كانت مفيدة بالنسبة إليّ.

«Ubi nihil vales, ibi nihil velis» الحكمة مذكورة في الفصل ما قبل الأخير، قائلها فيلسوف الظرفيّة الفلمنكيّ أرنولد جولينكس (1624-1669)، وموجودة في عمله الجليل الصادر بعد مماته بعنوان *الإيثيقا*، والذي يبدو أنّ قراءته أنقذت حياة صموئيل بيكيت إذ أرّقته دوافع الانتحار. وفي رسالةٍ من 16 يناير 1936 إلى صديقه الوفيّ توماس ماكغريفي (ينبغي قراءتها قولًا واحدًا: صموئيل بيكيت، *رسائل*، 1920-1940)، يروي بيكيت كيف وقع على هذه الحكمة. ثمّ تظهر الحكمة في روايته *مورفي*، التي كتبها بالإنكليزيّة ونشرها عام 1938، خلال علاجه لدى المحلّل النفسيّ البريطانيّ الشهير ولفريد بيون، وسيظهر جولينكس لاحقًا، مذكورًا باسمه الصريح في *مولوي*. وإنَّ إبطال الإرادة كمنهج جذريّ لحلّ كلّ الصراعات الناجمة عن الإرادة، أي المنهج الذي تطبّقه جميع شخصيّات بيكيت، آتٍ من هناك. وليس من قبيل الصدفة التشابه بين هذا المبدأ وخطاب دوكخا المذكور في فصل «Weltschmertz & Co. (2009)».

وفي النهاية، هذه قائمة بأسماء الأشخاص الذي أودّ شكرهم، من القلب، وكلٌّ واحدٍ منهم يعرف السبب:

زوجتي مانويلا، شقيقي جوفانّي، أبنائي أمبرتو ولوتشو وجانّي ونينا وزينو؛ فاليريا سولارينو، إليزابيتا سغاربي، إيوجينيو ليو، بيبّي دل غريكو، بييرو براكي، فرانكو بوريني، ماركو ديرامو، إدواردو نيزي، ماريو ديزياتي،

بيجي باتيستا، دانييلا فيليونه، مارينليلا فيليونه، فولفيو بييرانجيليني، باولو فيرتزي، كارين حسن، ماركو ديلوغو، تيريزا تشاباتي، ستيفانو بولاني، إيزابيلا غرانده، دومينيكو بروكاتشي، أنطونيو ترويانو، كريستيان روكا، نيكولا سادا، ليوبولدو فابياني، جورجو ديلارتي، باولو كاربوناتي، ستيفانو كالاماندري، فيليبو دي براود، فنتشنزو فالنتيني، ميكيلي مارتزوكو، فرانشسكو ريتشي، إنريكو غراسي، جينفرا بانديني، جوليا سانتاروني، بييرلويجي أماتا، مانويلا جانوتي، ماريو فرانكيني، ماسيمو زامبيني.

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود
telegram @soramnqraa

الفهرس

لنا أن نقول (1999) 9

بطاقة بريديّة محفوظة (1998) 12

نعم أو لا (1999) 13

مع الأسف (1981) 24

عين الإعصار (79-1970) 27

هذا الشيء (1999) 34

طفلٌ سعيد (70-1960) 36

جَرْد (2008) 40

طائرات (2000) 47

جملة سحريّة معيّنة (1983) 53

ليلة البراءة الأخيرة (1979) 57

أورانيا (2008) 62

Gospodinèèèè! (1974) 70

الرسالة الثانية عن الطنّان (2005) 77

خيط، وساحر، وثلاثة صدوع (95-1992) 78

فعّالة (2008) 89
Fatalities (1979) 94
رجاءٌ خاطئ (2010) 100
كيف جرت (2010) 102
لم تكوني (2005) 112
سوى أنَّه (99-1988) 115
توقَّفي قبل ذلك (2001) 128
عن النموِّ والشكل (74-1973) 131
الرسالة الأولى عن الطنَّان (2005) 138
未来人 (2012) 141
حياةٌ بأكملها (1998) 156
في المولينيلّي (1974) 161
Weltschmertz & Co. (2009) 166
Gloomy Sunday (1981) 172
ها هي، تهبط (2012) 186
Shakul & Co. (2012) 188
مُقَيَّم (2009) 194
درب الصليب (2005-2003) 199
بالعطاء والتلقّي (2012) 215

قناع (2012) 217

برابانتي (2015).. 234

تتناقل سيرتَكَ الأفواهُ (2013) 239

إنّما النظراتُ جسد (2013) 248

الذئاب لا تفترس الأيائل المنحوسة (2016).. 254

الرسالة الثالثة عن الطنّان (2018) 264

الأشياء كما هي (2016).. 267

أخيرة (2018).. 280

الإنسان الجديد (2016–29) 283

تحت تصرُّفك (2030) 300

الغزوات البربريّة (2030) 301

هذه السماء العتيقة (2007).. 320

الطنّان (روما وأماكن كثيرة أخرى، 2019–2015) 322

مكتبة
t.me/soramnqraa

الطنّان

أنت طنّانٌ بالفعل. ولكن ليس للأسباب التي مُنِحتَ بها هذا اللقب: أنت طنّانٌ لأنّك كالطنّان تضع كامل طاقتك في البقاء ثابتًا. سبعون رفّة جناح بالثانية لكي تبقى حيث أنت. إنّك رائعٌ، في هذا. تستطيع الثبات في العالم وفي الزمن، تستطيع أن تثبّت العالم والزمن من حولك، وأحيانًا تستطيع حتّى أن تعود به إلى الخلف، أقصد الزمن، وأن تعثر على الزمن المفقود، مثلما هو الطنّان قادرٌ على الطيران إلى الوراء. لهذا السبب كان البقاء بجانبك أمرًا جميلًا.

ولكن، ما تستطيع فعله بعفويّة، يفعله الآخرون بصعوبةٍ بالغة.

ولكن، الميل إلى التغيير، حتّى عندما قد لا يأتي بنتائج أفضل، يشكّل جزءًا من الفطرة البشريّة، وأنت لا تدرك هذا الميل.

ولكن، وعلى وجه الخصوص، لا يبدو هذا الثبات الدائم، الذي يكلّف جهدًا كبيرًا، أنّه العلاج، إنّما الجرح. ولهذا السبب كان البقاء بجانبك أمرًا مستحيلًا.

ساندرو فيرونيزي: كاتب وصحفيّ وروائيّ إيطاليّ من مواليد فلورنسا عام 1959، تخرّجَ من كليّة العمارة وانغمس في كتابة الأدب حتّى أصدر عشرات الروايات، إلى جانب مؤلّفات نقديّة وصحافيّة أخرى. حصل على تقديرٍ وثناء على المستوى الوطنيّ والدوليّ مع صدور روايته "فوضى هادئة" التي حازت جائزة لوستريغا في إيطاليا عام 2006، وجائزة فيمينا للكتاب الأجنبيّ في فرنسا، وجائزة البحر المتوسّط للرواية عام 2008. ثمّ عاد بعد كتاباتٍ وروايات أخرى ليحصد جائزة لوستريغا المرموقة للمرّة الثانية بروايته "الطنّان" عام 2020، وجائزة الكتاب الأجنبيّ في فرنسا عام 2021.

ISBN 978-603-91904-2-4
9 786039 190424

تصميم الغلاف:
أحمد الصباغ

أثر